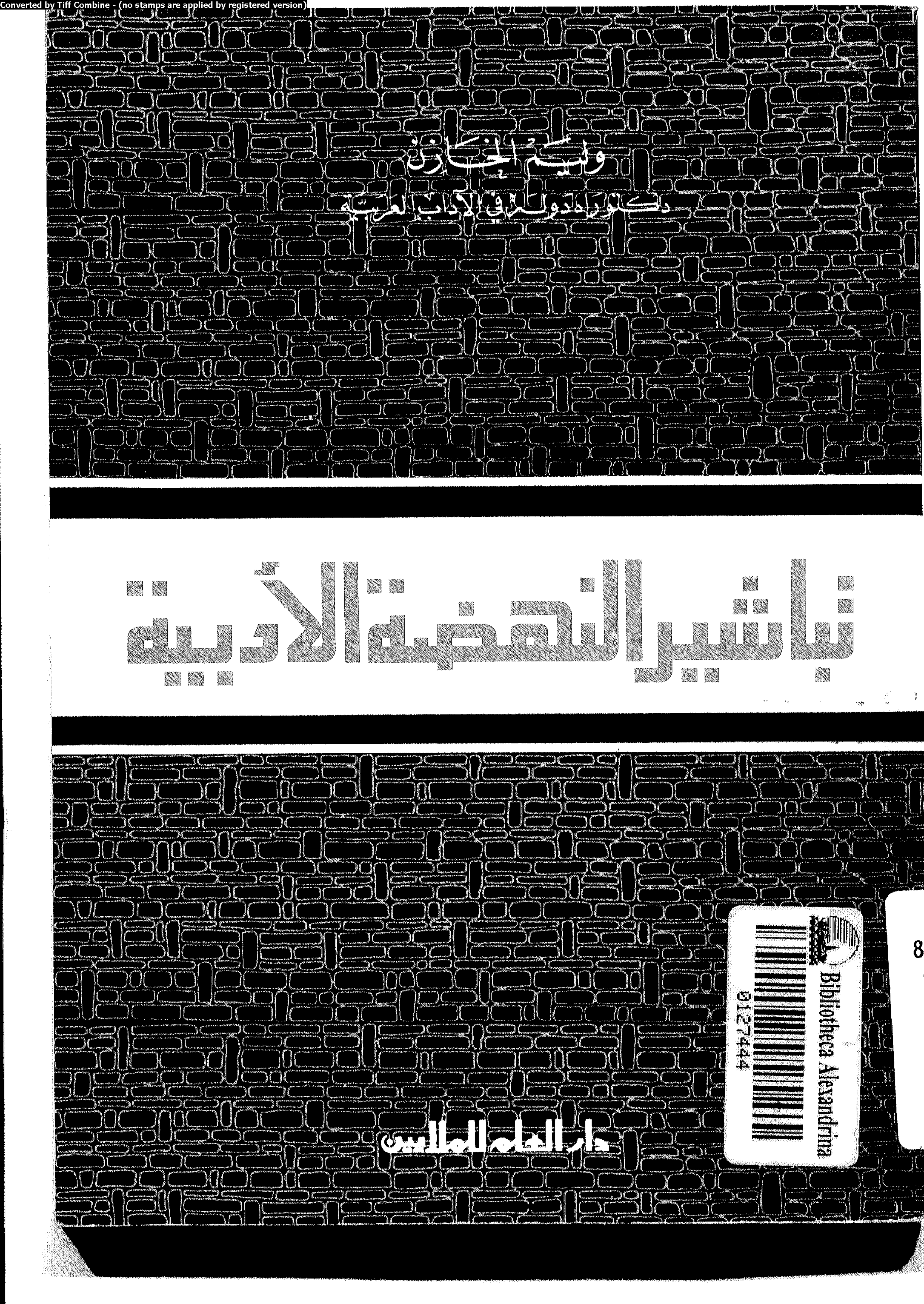


وليم الخازن
دكتوراه دولة في الآداب العربية
نباشير النهضة الأدبية
دار العلم للملايين

نباشير النهضة الأدبية

وليم الخازن
دكتوراه دولة في الآداب العربية

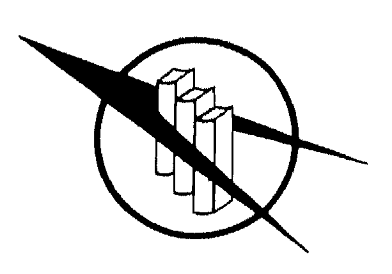
تباشير النهضة الأدبية

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

أيلول/سبتمبر ١٩٩٣

الإهـــداء

إلى زملائي الأساتذة
وإخواني الطَّلَبَة،
لعلّهم يجدون في كتابي هذا
محاولة تدفعهم إلى قراءات
جديدة في تاريخ آدابنا
ومناقشة «ثوابته».

مقدّمة

يعود اهتمامنا الجدّي بآداب النهضة العربيّة الحديثة إلى أواسط الستينيّات، يومَ بدأ أستاذنا النهضويّ الكبير الدكتور جبور عبد النور (١٩١٣ - ١٩٩١) يُشرف على أطروحتنا المعدَّة في جامعة القدّيس يوسف بعنوان **معالم الوطنيّة في الشعر اللبنانيّ الحديث** لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها التي استغرق عملنا فيها أكثر من إحدى عشرة سنة، بحيث ناقشناها عام ١٩٧٧. ثمّ وافقت دار المشرق على طبعها عام ١٩٧٩ بعنوان **الشعر والوطنيّة في لبنان والبلاد العربيّة**. وقد عالج كتابنا هذا الآداب العربيّة في عصر النهضة، والمؤثرات الغربيّة فيها، ومختلف تيّاراتها ومظاهرها الأدبيّة والفكريّة من مطلع القرن التاسع عشر حتّى عام ١٩٣٩.

وخلال تدريسنا الجامعيّ للآداب النهضويّة، الذي رافق عملنا في إعداد الأطروحة، اهتممنا بجذور النهضة العربيّة في لبنان وببعض أعلامها في العصور العبّاسيّة، فأصدرنا عام ١٩٨٤ في منشورات الجامعة اللبنانية كتاباً بعنوان **مظاهر الحضارة اللبنانيّة زمن الدولة العبّاسيّة**.

أمّا الحقبة الواقعة بين هاتين المرحلتين اللتين يتناولهما كتابانا المذكوران فلم نعبأ فيها كثيراً بملاحقة الآداب العربيّة وأخبارها، لانطباعٍ كَوّنّاه من أساتذتنا ومطالعاتنا المحدودة، آنذاك، بأنّها مراحل لا تستحقّ كبيرَ عناء، لِما اتّسمت به من انحطاطٍ وتخلُّفٍ وجمود(١). يقول جرجي زيدان، مثلاً: «أمّا

(١) استثنينا العهد الأيّوبي (١١٧٤ - ١٢٥٠) إذْ لم تشمله صفة الانحطاط عند جمهور الدارسين لأنّه =

الآداب العربيّة، على الأجمال، فأُصبحت في أحطّ أدوارها، وندر نبوغ العلماء والمفكِّرين أو المستنبطين فيها»[١].

وختم الأب لويس شيخو كتابه «شعراء النصرانيّة بعد الإسلام» بقوله: «ينال هذا الكتاب من التاريخ الحقبة المشؤومة التي خيّم فيها الجهل على البلاد الحزينة الناطقة بالضاد بعد انقيادها لزمام المماليك ومَنْ خَلَفَهم مِنَ الحكّام الجَوَرَة أرباب السيف الدامي واليَراع المحطَّم، فيقع طرف القارىء فيها وقوعه على قفرٍ خالٍ وليلٍ مظلمٍ حالكٍ لا يُسمع فيه إلّا أنّة المظلوم واستغاثة المضنَى ولا يُرى إلّا لمعة السيف وشهيّة النار الآكلة...»[٢].

وعالج الأستاذ بطرس البستاني (١٨٩٨ - ١٩٦٩) «عصر الانحطاط» في كتابه «أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث» وحدّده على الشكل التالي: «يبتدىء باستيلاء هولاكو على بغداد، وينتهي بدخول نابوليون الأوّل مصر (١٢٥٨ / ١٧٩٨)»[٣]. وحكم عليه حكماً قاطعاً: «عصر يصبغه الهول والذعر والفساد من جميع نواحيه، عصر تقتيل العلماء، وإتلاف الكتب، وتخريب المدارس... ولم يمعن المماليك في إرهاق العرب إلّا ليوطِّئوا العقاب للعثمانيّين أبناء جلدتهم... واستُعبدت الأفكار، وحُطِّمت الأقلام، وخُنقت حرّيّة الفرد والجماعة، فذلّ العرب وتفرّقت كلمتهم. وكان هذا العصر أسوأ العصور عليهم»[٤].

ووافق على كلام بطرس البستاني أخوه كَرَم (١٨٨٨ - ١٩٦٦) في مقدِّمته لكتاب «المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو» (الجزء الخامس). فبعد أن

= زامن العصر العبّاسيّ الرابع (١٠٥٥ - ١٢٥٨)، وقد شجّع الدراسة والعلوم الإنسانيّة ومنها الآداب.

(١) **تاريخ آداب اللغة العربيّة**، ٢/٢٨٤.

(٢) الأب لويس شيخو: **شعراء النصرانيّة بعد الإسلام**، ص ٥١١. وربّما كانت هذه الخاتمة للأب المشرف على المطبعة الكاثوليكية التي طبعت الكتاب عام ١٩٢٤ كما يُفهم من آخرها، إلّا أنّ الأب لويس شيخو وافق عليها، بلا شكّ، وقد تُوُفّي عام ١٩٢٧.

(٣) بطرس البستاني: **أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث**، ص ٢٠٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٢.

عَنْوَن القسم الثاني من مقدّمته «بالأدب المشرقيّ في الانحطاط»، ووصف العهد «بالعهد الكالح»، قرأنا له: «فانطفأت جذوة القرائح ومات الفنّ، وأرمد الوحي والابتكار، ودبّ الفساد في اللغة الفصحى بانتشار العناصر الأعجميّة، ونشرهم رطانتهم فيها... وهكذا خيّم الانحطاط برَوْقَيه[1] على العربيّة وآدابها، وانزوت الفصحى بنتاجها العبقريّ في بطون الطوامير[2] المُهْمَلَة، تنتظر أن يقيِّض لها الله تعالى يوماً تنبعث فيه من أكفانها»[3].

وهذا الجوّ، على علمنا، كان سائداً في مختلف البلاد العربيّة، ولا يزال مخيِّماً عليها، وإن ابتدأت تتخلّله انفراجات لا تزال تنتظر مَن يتعهّدها ويوسِّعها بمزيد من العناية قراءةً واطّلاعاً وبحثاً.

وكان أنّنا، خلال محاضراتنا النهضويّة في الجامعة اللبنانيّة، أخذنا نوجِّه نظرنا أكثر فأكثر إلى عهدَي المماليك والعثمانيّين مُسْتَوفين دراستنا للآداب النهضويّة، فلمسنا إنتاجاً ضخماً في مختلف ميادين العلوم الإنسانيّة، ورأينا أعلاماً نذروا أنفسهم للعلم والمعرفة، وحُفظت عنهم المخطوطات المستفيضة المتعدِّدة الأجزاء، والموسوعات الوافية، والأدب الجمّ شعراً ونثراً، إلّا ما كان يكتنف تلك الآونة من رداءة الحكم والسياسة، ما لا يمنع الإنتاج وإنْ عرقله. بل ربّما أُورثت التجارب والمحن قرائح الأدباء والعلماء ورفدت مواهبهم، كما رأينا، مثلاً، في العصور العبّاسيّة حين ضعف الحكم المركزيّ في بغداد، وتعدّدت الولايات والممالك الخارجة عن سلطة الخليفة. وكثيراً ما أصابت تلك الآونة أحكامٌ تتعدّى زمانها ومعاييرها، منطلقةً إليها من جعبةٍ نقديّةٍ عصريّةٍ حديثة.

وشجّعنا على المضيّ في سبيلنا آراءٌ متفرِّقة وكتب ابتدأت تنظر إلى عهدَي المماليك والعثمانيّين نظرة جديدة، وتزفّ منها آثاراً تطيب لها النفوس. وقد اعتاد المؤرّخون الكبار، في بحثهم عن تاريخ بلادهم، أن يتوقّفوا عند

---

(١) يُقال ضرب رَوْقَه بمنزل كذا: نزل به وضرب خيمته.

(٢) جمع طامُور وطُومار: الصحيفة.

(٣) المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو، ٥/ ٢٣٠.

الانجازات العظيمة والآثار المشرِّفة مُهملين ما يكتنفها من بشاعة وتقصير. وإنّما غايتنا وغاية الفنون الجميلة عموماً البحث عن مظاهر الجمال والروعة، وإتحاف الناس بها، مُخرجين اللآلىء البرّاقة من أصدافها.

وحَصَرْنا في لبنان دراستنا الموسومة **بتباشير النهضة الأدبيّة** لأنّنا أبناء البلد، نُلمُّ بتاريخ وطننا ومكتنِفاته إلماماً نرتاح إليه، وهو الذي كان، على ضِيْقِ مساحته، رائداً كبيراً في بثّ أشعّة الانبعاث والتطوّر إلى سائر البلاد العربيّة. ولا يعني هذا أنّنا نتنكّر لِما أسهمت به هذه البلاد، كما لا ننكر التفاعل بينها وبين بلدنا. ولا سيّما أنّ لبنان مشهور بانفتاحه على الشرق والغرب. فتطرّقنا، أحياناً، بما يسمح به طرحنا، إلى كبار أعلامها وساطع منائرها. ثمّ إنَّ تحديد الطرح في بلدٍ عربيّ واحد يساعد على عمقه وشموله، ويقدّم نموذجاً حيًّا عن سائر البلاد العربيّة، ذلك أنّ تطوُّر اللغة والآداب فيها، وإن اختلفت وتيرته وسرعته، لم يختلف جوهره ومبادئه العامة؛ فاللغة واحدة والمآل واحد. ومع زيادة الاتّصال اشتدّت اللحمة بحيث وصلت، مع الزمن، إلى جِسْمٍ متناسقٍ متناغم، إلى ما تفرضه الفوارق القُطريّة.

أمّا المصادر والمراجع التي اعتمدناها، فسوف يرد أهمّها في المبحث الأوّل من الكتاب. وقد اعتنينا اعتناءً خاصاً بالتوثيق والدعم لكي نعزّز بحثنا بحوافز الاستمراريّة والثبات والإجماع.

وأمّا المنهج الذي اتبعناه، فهو تأريخيّ انتقائي استقرائيّ ينطلق متسلسلاً من الآثار نفسها، يستنتج خصائصها ويبرزها، مع التوكُّؤ الوافر على المنهج الاجتماعيّ، ذلك أنّ المجتمع هو الأرض التي نبتت فيها الأغراس المعتمدَة.

وما كتابنا هذا سوى محاولة وإسهام في موضوع نرجو أن يكثر تداوله، فيستوفي حقّه ويشيع بين الناس، مستبدلاً بالنظرة السلفيّة إلى عهدَي المماليك والعثمانيّين نظرةً جديدةً أكثرَ صحّةً وأشدَّ اعتدالاً.

وليم الخازن

الفصل الأوّل

مبدأ النّهضة

ليس للنهضة العربيّة الحديثة حدود واضحة متّفق عليها، بل هي تيّار متّصل، بعيد الجذور، كثير الروافد، يختلف اتساعاً وتأثيراً وأهميّة في البلدان التي ورثت حضارة العرب، وانتظمتها لغة الضاد، وشكّلت العالم العَرَبيّ الحديث. والنهضة الأدبيّة مرتبطة بالنهضة الاجتماعية والثقافيّة، وبمدى انفتاح البيئة التي تعيش فيها على سائر البيئات قريبةً وبعيدة. فالنهضة الأدبيّة وجه من وجوه الحضارة العربيّة وعنصر أساسيّ من عناصرها، تفاعلت معها وكانت رافداً من روافدها المتميّزة.

لم تنقطع الثقافةِ العربيّة انقطاعاً تاماً في أيّ عهد من العهود، بل ظلّت شمسها تتخلّل الغيوم المتلبّدة لتسطع في بؤر معيّنة ومؤسّسات مشعّة في العالم العربيّ، مثل جبل عامل، وجبل لبنان ومدنه، والمدن الشاميّة والعراقيّة والمصريّة، وكالأزهر في مصر، والنجف الأشرف في العراق، وجامعتي القيروان والزيتونة في تونس.

وأُنشئت المدرسة المارونيّة برومية في القرن السادس عشر (١٥٨٤)، وعمّ نفعها الشرق والغرب. كما نشطت معاهد الاستشراق[١] في كثير من البلدان الأوروبيّة لغاياتٍ سياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة، فعانى منها المشرق سياسيًّا

(١) للتبسُّط في الاستشراق، راجع كتاب نجيب العقيقي: المستشرقون في ثلاثة مجلّدات، طبعة ثالثة، مصر ١٩٦٤؛ وفؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، ١٢/١١ - ٥٠.

راقتصاديًّا، وأفاد ثقافيًّا وحضاريًّا. وبذلك، بدا لنا أن نقول: إنّ الرأي المتناقل يردّده الخلف عن السلف بأنّ عصر الانبعاث، أو اليقظة العربيّة، أو النهضة الحديثة، قامت مع حملة بونابرت على مصر (١٧٩٨) هو رأي يشوبه الكثير من التّسرّع والإجحاف بحقّ القرون والمراحل السابقة لهذه الحملة، خصوصاً في لبنان.

نقول هذا غير غافلين عن تأثير جوّ السلطنة العثمانيّة السلبيّ، وحكمها المطلق المدّعى من الله، وظلمها وكبتها الحريّات[1]، واقتصار ثقافتها على الجنديّة وأنظمة الحكم. واللغة التركيّة تطعّمت بالعربيّة والفارسيّة لتقصيرها وصعوبة إتْقانها بحيث توقّفت موهبة الأتراك، كما يقول البارون دو طوط[2] «في حدود القراءة والكتابة لصعوبة لغتهم ولطول الوقت اللازم لاستيعابها»[3].

أوّلاً: واحات ثقافيّة في ما عُرف بعصر الانحطاط

حيث إنّ التفاعل بين لبنان وسائر البلدان العربيّة قام منذ أقدم العصور، فلا غروَ من أن تتأثّر نهضته بنهضة العالم العربيّ وتتفاعل معها. ولا بدّ، إذاً، من نظرة خارج لبنان نركّز فيها الإطار العام للآداب العربيّة في مرحلة دراستنا.

إنّ العصر الذي وُسم بالانحطاط عرف، بخاصةٍ في أوّله، شعراء يستحقّون الذكر كالتَلَعْفَري (١١٩٨ - ١٢٧٧) والشاب الظريف

(١) من أسوأ ما عُهد عن بعض سلاطين العثمانيّين تحريمهم الطباعة. فعندما وصل خبر الاختراع الجديد إلى الشرق، أصدر السلطان با يزيد الثاني مرسوماً بتاريخ ١٤٨٥ ينهَى فيه رعاياه عن اتخاذ المطبوعات. وتبعه ابنه سليم الأوّل الذي جدّد أمر أبيه سنة ١٥١٥ (الأب لويس شيخو: **تاريخ فن الطباعة في المشرق**، مجلّة المشرق ١٩٠٠، ٣/١٧٤ - ١٧٥).

(٢) François Baron de Tott: جنرال فرنسي (١٧٣٣ - ١٧٩٣) ابن شريف مجريّ مهجّر. خدم السفير الفرنسيّ فرجين Vergennes في القسطنطينيّة مترجماً (١٧٥٧ - ١٧٦٣). عُيّن قنصلاً في القِرم Crimée لدى التتر الذين حرّضهم على روسية (١٧٦٧). أعاد تنظيم الجيش التركي. أمّن الدفاع عن مضيق الدردنيل يوم هاجمه أورلوف (١٧٧٠)، وحصّنه (١٧٧٣ - ١٧٧٥). كُلّف تفتيش أسكلة الشرق (١٧٧٦). مارشال (١٧٨١). حاكم دُوَي Douai المدينة الصناعيّة الفرنسيّة (١٧٥٧). هاجر إلى المجر (١٧٩٠). تشكّل مذكّراته عن الترك والتتر (أربعة أجزاء، ١٧٨٤) مصدراً مهمًّا لتاريخ تركية (موسوعة لاروس الكبيرة، باريس ١٩٦٤، ١٠/٣٩٥).

(٣) F. Baron de Tott: *Mémoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares*, p. 165.

(١٢٦٣ - ١٢٨٩) والبُوصيري (١٢١٢ - ١٢٩٦) وابن الوردي (١٢٨٩ - ١٣٤٨) وصفيّ الدين الحِلّي (١٢٧٨ - ١٣٤٩) وابن نُباتة المصريّ (١٢٨٧ - ١٣٦٦). وعرف هذا العصر منشئين ومؤلّفين كباراً في اللغة والآداب والتاريخ والعلوم، كابن مالك (١٢٠٣ - ١٢٧٤) صاحب «الألفيّة»، وابن هشام (١٣٠٩ - ١٣٦٠) صاحب «قَطْرِ النَدَى وبلّ الصَّدَى» و «مُغني اللبيب عن كتب الأعاريب» وغيرهما، وابن آجرُّوم[1] (. . . - ١٣٢٣) الذي غلب عليه اسم «آجُرُّوميَّته»، وابن منظور (١٢٣٢ - ١٣١١) صاحب «لسان العرب»، والفيروزابادي (١٣٢٩ - ١٤١٥) وله «القاموس المحيط»، وابن خلّكان (١٢١١ - ١٢٨٢) صاحب «وفيات الأعيان»، والنُوَيري (١٢٧٨ - ١٣٣٢) وكتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) صاحب «المقدّمة» و «التاريخ» المشهورين، والدَّميري (١٣٤١ - ١٤٠٥) صاحب كتاب «حياة الحيوان الكبرى»، والقلقشندي (١٣٥٥ - ١٤١٨) صاحب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، وتقيّ الدين المقريزي (١٣٦٤ - ١٤٤١) صاحب «الخطط» في تاريخ مصر وأحوالها، والإبشيهي (١٣٨٨ - ١٤٤٦) صاحب «المستطرَف في كلّ فنّ مستظرَف»، وحاجي خليفة (١٦٠٨ - ١٦٥٧) وله «كشف الظنون» وهو معجم لأسماء المصنّفات العربيّة مرتّبةً على الألفبائيّة.

وما ذكرناه، هنا، غَيض من فَيض يدلّ على أنّ عصر الانحطاط أو الانحدار لا يزال ينتظر من يُعطيه حقّه ويضعه في المرتبة التي تليق به ضمن التراث العربيّ، ومن خلال المعايير والأوضاع والأنماط السائدة في عهوده المختلفة: «فكلُّ دعوة، مهما كان ابتداؤها أو غرضها الأخير عاماً، شاملاً لجميع النوع الإنسانيّ، فإنّ نظرتها إلى الحياة والكون يجب أن تكون منطبقةً على خصائص البيئة التي تنشأ فيها وعلى استعدادها الروحيّ، فلا يمكنها أن تشذّ عن استعداد بيئتها إلاّ إذا خرجت منها أو وُجّهت إلى غيرها المخالف لها»[2] ومهما خرج الأدب على البيئة يظلّ لها أثر كبير فيه. والعربيّ آنذاك

(١) آجرُّوم كلمة بربريّة تعني الفقير الصوفيّ.
(٢) باسل البرازي: نحو شموليّة سعاده، ١/ ٤١.

ممزّق بين حليفين «ممثّل الدين ومالك الأرض»، فانطبع «بحبّ المآسي والعِشق المرضيّ للحزن، بالخوف من الفرح، بنوع من الميل لتحطيم الذات، بإحساس الذنب، بتقييم سفلويّ للذات، وبقبول تلذُّذيّ للظلم والرضى بالألم، مع تمرّد قليل وفورات بسيطة وعابرة.. فظهرت القدسيّة التاريخيّة للموت والحزن. جذورها في الظلم، في الإحساس به، في الشعور بالمصيبة الجماعيّة (دينيًا واجتماعيًا). لقد غرسوا الكآبة ورضعوها، خلقوها ثمّ عبدوها في البكاء والعويل»(١).

وممّن أعادوا النظر في هذا العصر، وقرأوا تراثه قراءةً شخصيّةً جديدة الدكتور بكري شيخ أمين الذي كان له فيه آراء لافتة نذكر منها قوله: «الظاهرة البارزة الأولى في تاريخ الأدب العربيّ عموماً، والعصرين المملوكيّ والعثمانيّ خصوصاً، أنّ موكب الشعر لم يتوقّف أو ينقطع على الرغم من تغيُّر الأوضاع السياسيّة، وتبدّل الأحوال الاجتماعيّة، وتبايُن الجواء الفكريّة والثقافيّة بين مختلف الأمصار والعصور... ولو فتحنا كتاباً تعرّض لذكر بعض شعراء تلك الأزمنة «كخريدة القصر» للعماد الأصفهاني، أو «خزانة الأدب» لابن حجّة الحمويّ، أو «خلاصة الأثر» للمحبّي، أو «سلك الدُّرر» لمحمد المُرادي، ونظرنا في ما احتوى عليه كلّ منها من أسماء الشعراء، لانتابنا العجب لأنّ كلّاً منها يطالعنا بأسماء لا تكاد تُحصى... إنّ معظم ما خلّف شعراء العصر السلجوقيّ والفاطميّ والأيّوبيّ والعثمانيّ لا يزال مخطوطاً، وأكثر هذه المخطوطات متربّعة على رفوف مكتبات الغرب أو الشرق، وبعضها ضائع أو مفقود... ولا نبالغ إذا قلنا إنّ المؤلّفات التي صدرت في العصر المملوكيّ بلغت عشرات الآلاف، وحسبنا دليلاً أن بعض العلماء عُرف عنه أنّه ألّف مئات من الكتب كالسيوطي وابن تيميّة»(٢).

ونزيد على لفتة الدكتور بكري شيخ أمين المعبّرة موضحين ومكمّلين، فنذكر أنّ تمام عنوان كتاب محمد أمين بن فضل الله المُحبّي الدمشقيّ

(١) علي زيعور: التحليل النفسيّ والإناسيّ للذات العربيّة، ٣/٤٨.
(٢) بكري شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكيّ والعثمانيّ، ص٥٨، ٧٩، ٨٠، ٨٢.

(١٦٥١ ـ ١٦٩٩) هو «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، وهو سِفر كبير في أربعة أجزاء. وتمام عنوان كتاب مفتي دمشق محمد خليل المرادي (١٧٦٠ ـ ١٧٩١) هو «سلك الدُّرر في أعيان القرن الثاني عشر» وهو في أربعة أجزاء أيضاً. ومن المصنَّفات الواسعة المهمّة التي لم يذكرها شيخ أمين في شواهده كتاب شمس الدين محمّد بن عبد الرحمن السَّخاوي المصري (١٤٢٧ ـ ١٤٩٧) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وهو في عشرة أجزاء، وكتابان لنجم الدين محمّد الغزّي الدمشقي (ت ١٦٥١) هما «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» في ثلاثة أجزاء، و«لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر».

وفي الدراسات الحديثة تحتلّ أطروحة محمد عيسى قنديل «الشعر العربيّ في العصر المملوكيّ الثاني» مكاناً متميّزاً من حيث معالجتها المتكاملة ونظرتها الشاملة لأحوال العصر وشعره.

ويعزّز هذا العصر أن قد تكامل فيه من الأدب الشعبيّ «خيال الظل»[١] سابق السينما، و«سيرة بني هلال»، و«سيرة عنتر» التي تكاملت في مصر منذ القرن الرابع عشر تقريباً[٢]، و«ألف ليلة وليلة» في مصر والعراق والشام خصوصاً. وما أصلها الذي ذكره النديم في فهرسته «هزار أفسانة» (ألف خرافة) سوى نزر يسير منها. وقد اهتمّ بها الغرب قبل الشرق، وترجمها إلى لغاته، واستوحى منها الأخيلة المشرقيّة والموسيقى الرائعة[٣].

ومن الدراسات الرصينة الوافية في البلاد العربيّة، والتي نهضت حديثاً لتعيد إلى تلك الأونة مكانتها الحقيقيّة في تاريخ الآداب العربيّة، الكتاب المعبِّر في جزأيه للدكتور محمد زغلول سلام بعنوان: «الأدب في العصر المملوكي»،

(١) عالج المحامي فاروق سعد «خيال الظلّ العربيّ» في أطروحة مهمّة بجامعة القدّيس يوسف، ١٩٨٣؛ وفي «ملحق النهار»، العدد ٢١، السبت أوّل آب ١٩٩٢، ص ١٠-١٣. وسمّاه العرب أيضاً: خيال الإزار، خيال الستارة، طيف الخيال، مسرح العرائس.

(٢) الموسوعة العربيّة الميسّرة، ص ١٠٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

إلى جانب كتاب بكري شيخ أمين حول الشعر في العهدين المملوكيّ والعثماني [١]. كما تجدر إضافة بعض المصادر القديمة المطوّلة مثل «مطالع البدور في منازل السرور» لعلي بن عبد الله البهائي الغُزُولي الدمشقي (ت ١٤١٢)، و«بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس المصريّ (١٤٤٨ ـ ١٥٢٤).

ولم يَرَ المستشرقون والنّقاد المتطوّرون غضاضةً أو حطًّا من قيمة الآثار الشعبيّة في شذوذها عن قواعد اللغة العربيّة الفصيحة. والنقد اللاحق لعهدي المماليك والعثمانيّين، وخصوصاً الحديث منه، أصدر أحكامه القاطعة على هذين العهدين من وراء كوابح دينيّة وقوميّة عربيّة ملتزمة وموجَّهة، تحذّر من استعمال اللغة العاميّة، وتَعُدُّ كلّ تعبير عاميّ أو قريب منه سطحيًّا سخيفاً مبتذلاً شاذاً مارقاً[٢].

وقامت، اليومَ، نظرات حديثة مستقبليّة، بعيدة عن كل خلفيّة دينيّة أو سياسيّة، بل يمكن اعتبارها مثاليّة، ترى مستقبل الآداب العربيّة بألسنة الشعوب المختلفة الناطقة، عفويًّا، بلغة الحياة اليوميّة. ومن أهل هذه الآراء عندنا الشاعران الشهيران سعيد عقل (١٩١٢ ـ ...)، ويوسف الخال (١٩١٧ ـ ١٩٨٧)، والناقد المعروف عصام محفوظ (١٩٣٩ ـ ...) الذي يستهجن استعمال الفصحى في الحوار القصصيّ أو المسرحيّ، ويعتبره «خيانة للواقع وللفنّ المسرحيّ العربيّ». وقد طالب «بالتضحية باللغة الفصحى شهيدة المسرح». كما أنّ لمحفوظ شعراً عاميًّا إلى جانب الكثير من الفصيح[٣]. وهل يقلّل من قيمة الأدب العاميّ، وخصوصاً الشعر الشعبيّ اللبنانيّ، كونه باللغة المحكيّة؟ ألا يشكّل أتباعه وقادروه الجمهور الأوسع؟

ويبقى علينا تمييز يفرض نفسه بين عهدَي المماليك والعثمانيّين، وهو يرجّح كفّة المماليك أدبيًّا وفنيًّا وعلميًّا لأسباب أهمّها اعتماد المماليك على

(١) عنوان كتابه «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني»، كما مرّ بنا.
(٢) مثلاً كتاب قضايا ومشكلات لغويّة، تأليف أحمد عبد الغفور عَطّار، مكّة المكرّمة ١٩٩٠.
(٣) عصام الحوراني: مسرد لأدباء من قضاءي مرجعيون وحاصبيّا، ص ٥٩١ ـ ٦٠٨.

العنصر العربيّ خصوصاً، لتفرّع أصولهم الغريبة، وقيامهم على أرض عربيّة؛ واعتماد العثمانيّين اللغة التركيّة، واختلاف مواطنهم. وقد التزم هذا التمييز حتّى الذين تبنّوا مصطلح «الانحطاط» لتلك العهود كالأب لويس شيخو اليسوعي(١)، والأستاذ بطرس البستاني(٢)، وقبلهما جرجي زيدان(٣).

وبعد كل التآليف والآراء التي ذكرنا، والتي تجنّبتْ تسمية عهدَي المماليك والعثمانيّين بأسماء تغلق عليهما كلّ باب يتسرّب منه الضوء، إضافة إلى مؤلّفات وآراء كثيرة أغفلناها، ككتاب محمود رزق سليم «عصر سلاطين المماليك» المطبوع بمصر في ثمانية أجزاء كبيرة، والمحتوي على مختارات وتعاليق وشروح، وكتابَي الدكتورَين محمد كامل حسين، وعبد اللطيف حمزة(٤)؛ بعد كلّ هذا، ألا يستحقّ ذاك العهد الطويل أن يتلبّس بتسمية جديدة فيغدو «عهد المماليك والعثمانيّين»، لا عهد الانحطاط، والانحدار، والظلمات، وما إليها؟

ثانياً: جبل لبنان والسواحل والمدن

١ ـ الجبل

تمتّع جبل لبنان بحريّةٍ ما عرفتها سواحله: «فعدا صعوبة السيطرة على الجبليّين عموماً، فإنّ الاستعباد التركيّ الذي انتظم الساحل اللبنانيّ بأكمله توقّف عند أوّل صخرة وأوّل مفازة من مفاوز الجبل الذي حافظ أهله على

(١) كتب الأب شيخو: «منذ استولت تركية على البلاد الناطقة بالضاد في العشر الثاني من القرن السادس عشر، أصيبت الآداب العربيّة بضربة أليمة» (شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ٤/٤٥٥).

(٢) أدباء العرب، ٣/٢١٠ ـ ٢١١. وراجع أيضاً محمد عيسى قنديل: الشعر العربيّ في العصر المملوكي الثاني، ص ٢ وما بعدها.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربيّة، ٣/٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٤) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، ١/٦.

استقلالهم وتقاليدهم، وعلى ذكرى أميرهم العظيم فخر الدين»[١]. وحافظ المسيحيّون وجيرانهم الدروز فيه على الاتّحاد التام، والعلائق الاجتماعيّة الممتازة[٢].

وقبل إنشاء المدرسة المارونيّة بقرون، كان اللبنانيّ يختلج شعوراً وافتتاناً بما حباه الله من طيب الجوّ، وجمال الطبيعة، وتوفُّز السليقة. قال صلاح لبكي (١٩٠٦ ـ ١٩٥٥) في كتابه «لبنان الشاعر»: «إنّ لفي طبيعة لبنان من التوازن والاتّساق والجمال ما يفيض بعضه على النفوس ويحرّك القلوب. لقد قام منذ أبعد العصور بين اللبنانيّين وطبيعة بلادهم صداقة حميمة. . . هي تغدق وتشعّ وتلوّن، وهم يبثّون ويفزعون إليها ويحنّون ويعبدون. فترتفع القلوب أنغاماً وتنطلق العقول استنطاقاً عن المكنونات والبواعث والعلل»[٣].

وفي شمال لبنان حيث ظلّت السريانيّة مسيطرة حتى القرن السابع عشر كان تأثّر اللبنانيّ المارونيّ حاسماً بالأناشيد والمدائح السريانيّة القريبة من النفوس بأنغامها الموقّعة، والتي كانت تُنشد في الكنائس. وأبرزها الأفراميّات ذات السبعة المقاطع، واليعقوبيّات ذات الاثني عشر مقطعاً. وإن تكن هذه الأنغام غريبة عن بحور الخليل ومرتبطة بالتراث الآرامي، فإنّ النظم عليها جاء أحياناً باللغة العربيّة المحكيّة، آنذاك، في جبل لبنان[٤].

وفي ظنّنا أن الدكتور خليل حاوي (١٩١٩ ـ ١٩٨٢) حين أكّد بارتياح أنّ محاولات النصارى اللبنانيّين في التعبير الأدبيّ العربيّ «لم يتمّ قبل القرن الخامس عشر»[٥]، كان في يقينه إنتاج تلاميذ المدرسة المارونية (١٥٨٤)،

---

(١) De Tott: Mémoires, P. 22.

(٢) ركّز توفيق توما في كتابه المهمّ الريفيون والمؤسّسات الإقطاعيّة عند الدروز والموارنة في لبنان من القرن السابع عشر حتى ١٩١٤، الصادر في منشورات الجامعة اللبنانيّة بالفرنسيّة عام ١٩٨٦ (١/٤٧ ـ ٥٦)، على العلاقات المتميِّزة بين الدروز والموارنة، وعلى مؤسِّسي الوحدة الدرزيّة ـ المارونيّة. وهو بحث جدير بالمراجعة.

(٣) صلاح لبكي: لبنان الشاعر، المجموعة النثريّة، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٤) بطرس الجميل: زجليات جبرائيل إبن القلاعي، ص ٦٠ ـ ٦٢.

(٥) خليل حاوي: جبران خليل جبران، ص ٣٠.

وجبرائيل إبن القلاعي (ت ١٥١٦) في القرن السادس عشر وليس الخامس عشر. قال جبران مسعود: «النهضة هي كذلك بنت لبنان، نهلت من روحه وترعرعت بهدية، واطمأنّت على ساعده، فكان لها نِعم الأب، حضنها يوم بسمت لطلعتها دنياه، منذ القرن السادس عشر، وسهر عليها حتى استقام عودها، واستمرّ يتعهّد سعيها في أرضه حيناً وفي دُنى الاغتراب حيناً»[١]. ويتحدّث مارون عبّود عن تلقّف اللبنانيّ للفصحى وقابليّته للتمرّس بها سليمةً قبل سائر الأقطار العربيّة، فيقول: «قابلتُ لهجة لبنان بلهجات الأقطار الأخرى فوجدت لغتنا العاميّة أقرب إلى الفصحى من جميعها»[٢].

ومن أبرز الممثّلين للشعر اللبنانيّ وأدبه، آنذاك، **الأمير سيف الدين يحيى التنوخي**[٣] «الشاعر الذي تخطّى عصره»[٤]. والتنوخيّون الدروز، عموماً، كانوا من السبّاقين إلى النهضة الفكريّة، وإلى الشعر الروحيّ الذي يلامس التصوّف ويمتزج به أحياناً. ومذهبهم الدرزيّ، القائم على العقل والروح، يقرب، من جهة، من الصوفيّة فيطّرد في جوّها؛ وتقف التقيّة حائلاً بينه وبين الانتشار في سائر الملل والطوائف، من جهة أخرى. يشهد على ذلك ما رحنا نطّلع عليه من دراسات في هذا الموضوع لأمثال عجاج نويهض[٥]، وعارف أبو شقرا[٦]، وفؤاد أبو زكي، وقبلهم تاريخ ابن سباط... كتب أبو زكي: «في خضمّ الظلام الفكري المحلولك، شعّ نور في لبنان الوسيط في إمارة الغرب التنوخيّة التي بقي الشعر مزدهراً فيها طيلة مدّة حكم أمرائها»[٧].

(١) جبران مسعود: لبنان والنهضة العربيّة الحديثة، ص ١١.
(٢) مارون عبّود: صقر لبنان، ص ٦٦.
(٣) وُلد في عُبيه عام ١٣٨٧، وتوفّي عام ١٤٥٩. تجد عن حياته وأعماله وزهده وتقواه في تاريخ الدروز لابن سباط، ص ٢١ - ٢٣؛ وفي التنوخيُّون لنديم نايف حمزة، ص ١٩٤ - ١٩٨؛ وفي ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف لفؤاد أبو زكي، ص ٣٧ - ٤٦.
(٤) المرجع الأخير، ص ٤٦.
(٥) في كتابه التنوخي والشيخ الفاضل، مطابع دار الصحافة، بيروت ١٩٦٦.
(٦) في كتابه ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف، دار الغد، بيروت، طبعة أولى ١٩٥٧.
(٧) فؤاد أبو زكي: ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف، ص ٤٥.

ونقل الكاتب نفسه عن ابن سباط قوله عن الأمير سيف الدين يحيى التنوخي إنّه «فات الأوّلين والأخيرين في شعره»(١).

وللتمثيل على شعره نذكر شاهدين: الأوّل من المرحلة الأولى التي انطبعت باللهو والغزل. والثاني من مرحلة الارتداد الى الدين والروح والمسلك القويم. جاء في مطلع قصيدة «باح الفؤاد» الغزليّة المؤلّفة من ثمانية وستين بيتاً:

باحَ الفؤادُ بِسِرٍّ غيرِ مُنْكَتِمِ ونَمَّ دَمْعِي بما عندِي مِنَ الألمِ
وَرُحْتُ أشكو لمنْ أهوَى فعارَضَني وقال إنَّكَ في الدَعْوَى لَمُتَّهِمِ
فقلتُ لَو أنّني قد كُنْتُ مُدَّعِياً ما فاضتِ العَيْنُ في يوم النَّوى بِدَمِ
ولا تَمايَلْتُ مِنْ ذِكراكُمُ طَرَباً كما تميلُ غصونُ البانِ بالنَّسَمِ
ولا قَضَيْتُ بِكَ الأيّامَ في أَمَلٍ مِنَ اللِّقاءِ ومَحْصُولي على عَدَمِ
ولا تنفَّسْتُ بالصُّعْداءِ مِن كَبِدٍ حَرَّى ولا زال منّي الجسمُ بالسَّقَمَ
ولا قَضَيْتُ اللَّيالي فيكَ مفتكراً بمُقْلَةٍ كُحِّلَتْ بالدَّمْعِ لَمْ تَنم (٢)

ومن النهج الروحي قصيدة «الزهد» التي يتحدّث فيها عن مَجرى حياته بين الجهل والعقل، وقوامها واحد وخمسون بيتاً:

بُلُوغُ مَدَى الغاياتِ بالطَّلَبِ الجِدِّ عَسيرٌ مع العمرِ القصيرِ الى المَجْدِ
وإن يتوانَ طالبٌ عَنْ مرامِهِ يكونُ جديراً بالتَردّي عن القَصْدِ
وَهَلْ يَبْلُغُ الساعي المرامَ وكَمْ عسى يُجاوزُ بالسَّيْرِ الهُوَينا مع البُعْدِ
ومِنْ دونِهِ الأقدارُ جوّالةٌ وقدْ جَرَتْ حَلْبَةُ الأيّامِ بالحَثِّ والكدِّ
وإنْ فات جَولاتِ المقاديرِ لم يُفِدْ تصرُّمُ أيّامٍ تَوَلَّتْ بلا رَدِّ

(١) المرجع نفسه، ص ٤٦ عن ابن سباط: تاريخ الدروز، ص ٢٢.
ويطيب لنا أن نلاحظ أنّنا في دراستنا كلاً من أدباء الطوائف اللبنانيّة المختلفة اعتمدنا، خصوصاً، المراجع العائدة لأبناء طوائفهم. ذلك أنّنا نعتقد مخلصين أنّ خير من يدرس شخصيّات طائفة معيّنة وآراءها ومعتقداتها هم أبناؤها أنفسهم لأنّهم يحيون جوّها وأعرافها وعقائدها. ونتجنّب بذلك تهمة التحيّز الطائفيّ الذميم.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥١.

عـزائـمُـهُ بـالـنَّـقص راجعـةٌ بـهِ　　وأيّـامُـهُ بـالـعمـرِ رائحـةٌ تَغْـدِي
كـأنَّ لـيـالـيـنـا وأيـامـنـا غَـدَتْ　　تسوقُ بنا سَوقَ المُضَمَّرةِ الجُرْدِ
لَقَـدْ فَـازَ مَنْ ألْجَـا إلى الـلّهِ أمْـرَهُ　　وأقْبَلَ نحو الحقِّ في الصَدْرِ والوِرْدِ[١]

إنّ المتمعّن في شعر الأمير سيف الدين التنوخي يرى فيه الجوّ العام المهيمن على المذهب الدرزيّ وأتباعه آنذاك، ومنه التقشُّف والتضرُّع والابتهال والصبر وجهاد النفس والقضاء والقدر والحكمة. وأمّا من ناحية البِنية الشعرية فشعره سهل واضح، سليم اللغة والأسلوب إجمالاً «يُذكِّر بشعر النهضة العربيّة»[٢]، إلّا أنّه قد يلامس بعفويّته وضروراته الشعريّة الأخطاء الشائعة، كاستعماله «مفتكراً» في البيت السابع من قصيدته «باح الفؤاد». كما لا يخلو شعره من الأخطاء النحويّة، إذ لم يجزم جواب الشرط «يكون» في البيت الثاني من قصيدة «الزهد»؛ واستعمل «تغدي» بدل «تغدو» في البيت السادس من القصيدة نفسها. وإنْ أجاز لنفسه ذلك، فهو غير مقبول عند أهل العَروض وجمهور اللغويّين.

وقد يكون مفيداً ذكرُ شاعرٍ تنوخيٍّ نبيهٍ آخر تُوفّي بعد الأمير سيف الدين يحيى التنوخي بقليل، وهو الشاعر **شمس الدين بن الصايغ** (ت ١٤٧٢) الذي قال يرثي الأمير سيف الدين عبد الخالق الثاني (١٤٤٨ ـ ١٤٦٩) في مطلع قصيدة طويلة:

قِفْ بـالـدِّيـارِ وحَيِّـهـا ونـادِيـهـا　　وانْـظُرْ إلى رَبْعِها العـالي ونـادِيهـا
أمّـا المعـالي فقـد دُكَّتْ مبـانيهـا　　مِنْ بَعْـدِ ما كـان سيفُ الـدينِ بـانيهـا
يـا عبدَ خـالقِنا قـد كُنْتَ راعيهـا　　فَبَعْـدَكَ اليـومَ مَنْ أضْحَى يُـراعيهـا
خيـرُ العُلومِ صَغيرُ السِّنِّ حـاويهـا　　والكُتْبُ مِنْهـاجُهـا قـاري وحـاويهـا[٣]

(١) فؤاد أبو زكي: ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف، ص ٦٧.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦.
(٣) ابن سباط: تاريخ الدروز، ص ٦٧.

ولا يخفى ما في إيقاع هذا الشعر المنغَّم المنساب من مجاراة وصلاحية لِما عُهِد في بني معروف من ندب في مسيرة جماعيّة للرجال يوم الدفن، خصوصاً إن يكن الميت شاباً أو صاحب عزّ وجاه.

ولابن الصايغ مراثٍ كثيرة في هذا الأمير الشاب، منها:

هَجَرْتَ الحِمَى فَاغْبَرَّ من بَعْدِك الحِمَى ... وَاصْفَرَّ منه بانُهُ والأرايكُ
وأمّا جِنانُ الخُلْدِ فهي تَزَخْرَفَتْ ... لَدَيْكَ وَإشْتاقَتْ لِقاكَ المَلايكُ
وما كُنْتُ أهْوَى أنْ أراكَ مُفارِقاً ... يَقِلُّ اعتراضِيْ مَنْ تَوَلَّاك مالِكُ[1]

ومنها أيضاً:

دَعِيني اللَّومَ عاذلتي دَعيني ... فَقَدْ أصْبَحْتُ ذا قَلْبٍ حَزينِ
أُعَنَّفُ في الأَسَى وألامُ فيهِ ... وما لي في مُصابي من مُعينِ
وما نَوْحُ الحمامِ على هُذَيْلٍ[2] ... كَنوحي في الدَّياجي فاعذُريني
وبي وَجْدٌ كَمِثْلِ نِسا عَلِيٍّ ... مُفَجَّعَةٍ على فَقْدِ الحُسَيْنِ
وما زالت سِهامُ يَدِ الرَّزَايا ... تُصيبُ مَقاتِلي لِدُنُوِّ حَيْني[3]

وشعره، عموماً، يُعَدُّ من الانطلاقات الرائدة، ويمتاز بموسيقاه وسهولته وصدقه وسلامته اللغويّة والعَروضيّة، إلى ما فيه من صناعة لفظيّة ومعنويّة تجاري عصرها.

ومن الذين أثّروا في الحركة الأدبيّة والفكريّة اللبنانيّة في عهد سيف الدين يحيى التنوخي وبعده، الراهب الماروني **جبرائل إبن القلاعي** المولود في لحفد عام ١٤٤٧، والمتوفّى مطراناً على الموارنة في جزيرة قبرص عام ١٥١٦[4].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦٨.
(٢) اسم رجل.
(٣) المرجع نفسه، ص ٦٨ - ٦٩.
(٤) للتوسّع في حياته راجع: دائرة معارف فؤاد أفرام البستاني، ٣/٤٦٤ - ٤٦٦؛ وإسطفان الدويهي: **تاريخ الأزمنة**، ص ٣٩٥.

درس جبرائيل عشرين سنةً في جامعات رومية، وعاد منها عام ١٤٩٣ وقد أتقن ستّة عشر عِلماً، إلى جانب منظوماته الزجليّة التي تعدّت الخمس والعشرين قصيدة من الشعر العاميّ، ومنها ما يربو على خمسة آلاف بيت. ومن خير زجليّاته المدائح، ومن أشهر مدائحه «المديحة على جبل لبنان»، ومطلعها:

كِيْفِ الدُّهُورْ بْتِتْغَيَّرْ ... وفيهِ العُقُولْ بْتِتْحَيَّرْ
وْلَوْ ما تُوجَدْ في الأسْطُرْ ... ما كانْ يِخبِرْ عَنْهُ إنسانْ
ولكِنِ التواريخْ بْتِخْبِرْنا ... على ما جَرَى بمواطِننا
والذي كانوا قَبْلْ مِنَّا ... سكّانْ في جَبَلْ لُبْنانْ[1]

قياساً على الأوزان العربيّة، تبدو هذه المدحيّة غير موزونة. أمّا إذا قسناها على أنغام الأفراميّات السريانيّة فتظهر تامة الوزن والقافية، بهيجةَ الإيقاع.

وكان لإبن القلاعي تلاميذ، منهم يوحنّا الذي رافقه إلى قبرس، ثم غرق في البحر وهو في طريقه إلى القدس الشريف، فصنّف إبن القلاعي مرثاة يعدّد فيها فضائله وعلومه ويمدح قداسته[2]. ونظم عام ١٥٠٩ زجليّة تنمّ على حنينه إلى وطنه لبنان، ومنها:

رَحَلْنا للغُرْبِهْ وزِعْلِتْ نْفُوسْنا ... ونادَى بِنا الشَّوقْ لِلْعَادَاتْ
أَطْفالْ آشْتَاقِتْ الى أطفالْ مِثْلُهُمْ ... وِعْيُونِ المَشايِخْ سَكَبِتِ الدَّمْعاتْ
وِآتْذَكَّروا أَوْطانْهُمْ وأهْلِ بْلادْهُمْ ... وَأَشْعَلْ بِهِمِ الشَّوقْ بالعَبَرات
غُيَّابْ اشْتاقُوا والشَّوقْ زايدا ... والشَّوقْ مثلِ النّارْ بالغاباتْ[3]

ومع الإنشاد والتنغيم يستوي الشاذ ويستقيم الوزن.

ويعود الدكتور جبور عبد النور (١٩١٣ - ١٩٩١) بتاريخ الزجل اللبنانيّ

(١) بطرس الجميِّل: زجليّات جبرائيل إبن القلاعي، ص أ - ج.
(٢) إسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٣٦٧.
(٣) المرجع السابق: ص هـ، و.

الى سليمان الإشلوحي في رثائه باللغة العربيّة العاميّة مدينة طرابلس واصفاً خرابها واحتراقها عندما فتحها السلطان قلاوون المملوكيّ (١٢٧٩ - ١٢٩٠) في نيسان ١٢٨٩ (١).

ويمثّل **المطران جرمانوس فرحات**(٢) محطّةً مهمّة في استعمال الأسلوب العربيّ الفصيح، وتأليف كتب القواعد لإقامة الألسنة الملتوية في أتباع ملّته بنوع خاص. وكان له مئة وأربعة كتب كما يقول مارون عبّود(٣). أمّا نهاد رزّوق فقد أحصى له ٢٥ مؤلّفاً مطبوعاً و ٧٨ مخطوطاً بين ترجمة وتصحيح ولغة وأدب وشعر ودين وتاريخ(٤). ولم يكن فرحات أوّل من ألّف في علم النحو في الملّة المسيحيّة السريانيّة إذ سبق أن طبع نصر الله شَلَق العاقوري كتاب «مبادىء العربيّة» في رومية عام ١٦٢٢ (٥). ووصف مارون عبّود جرمانوس فرحات بأنّه أوّل روّاد الفصحى(٦). وقال فيه نهاد رزّوق: «انبلج فجر فرحات المؤلّف في أوائل القرن الثامن عشر الميلاديّ. فتألّقت كتبه فوق تخوم الجهل والتخلّف لتمدّ العقول وتغذّي النفوس بنورانيّة العلم والمعرفة، وتسهم مع معطيات قلّة من أقلام العصر النابغة الجريئة في بعث مقوّمات النهضة الحديثة التي شملت سورية ولبنان وسواهما من الأقطار والبلدان»(٧). وأقرّت له دائرة المعارف الإسلامية بريادة النهضة الأدبيّة التي توهّجت في البلاد العربيّة خلال القرن

---

(١) Jabbour Abdel - Nour: *Etude sur la poésie dialectale au Liban*, p. 18.

(٢) ولد جبرائيل فرحات في ٢٠ تشرين الأوّل ١٦٧٠ في محلّة الصليبيّة من مدينة حلب، وتوفّي في ١٠ تمّوز ١٧٣٢، وعاش معظم حياته في لبنان، وعمل وألّف فيه. من أساتذته تلميذ المدرسة المارونيّة بطرس التولاوي (١٦٥٨ - ١٧٤٦) (تجد بحثاً مطوّلاً عنه في مجلّة «المنارة»، السنة ٢٥، العددان الأول والثاني، ١٩٨٤، ص ٢٩١ - ٣١٨، بقلم الخوري نبيل الحاج) والشيخ سليمان النحويّ الحلبيّ.

(٣) مارون عبود: روّاد النهضة الحديثة، ص ٤٤.

(٤) نهاد رزّوق: جرمانوس فرحات، ص ٦٩ - ٨٧ و ٨٩ - ١٤٤.

(٥) P. Pierre Raphaël: Le *rôle du Collège Maronite Romain dans l'orientalisme aux XVII e. et XVIII e. s.*, pp. *97 - 98*.

(٦) مارون عبّود: روّاد النهضة الحديثة، ص ٤٢.

(٧) نهاد رزّوق: جرمانوس فرحات، ص ٦٧.

التاسع عشر، وذكرت أنّه جمع حوله شُلَّةً من الشعراء والعلماء على رأسهم نيقولاوس الصائغ (١٦٩٢ - ١٧٥٦)(١).

أما شعر فرحات فنمثّل عليه بمقطّعة دينيّة في مريم العذراء، ومقطّعة ثانية يَظهر فيها نمط من الشعر كثرت المباهاة بإتقانه في مبتدأ النهضة ألا وهو «التسميط» أو «التشطير» الذي يعاقب على أبيات قصيدة مشهورة صدراً لعجز وعجزاً لصدر.

قال في بشارة مريم عام ١٦٩٦:

بُشْـراكَ بُشْـراكَ قـد أَدْناكُمُ النـائي ... مُـذْ أَوْمَضَ البَـرْقُ مِنْ تِلْقـاءِ عـذراءِ
فـالجَـوُّ مُنْبَجِسٌ بـالـنُّـورِ مَفْـرِقُـهُ ... والأَرْضُ قـد بَسِمتْ عَنْ ثَغْـرِ لَمْيَـاءِ
قـد غَـرَّدَ الـطائِـرُ السِـرِّيُّ مِنْ طَـرَبٍ ... لَمَّا رأى القُضْبَ تَرْقُصْ(٢) رَقْصَ هَيْفاءِ
والـرِّيْحُ تَكْتُبُ فَـوقَ الماءِ أَنْمُلُهـا ... سَـطْراً تُحـاكِيْـهِ بيْنَ الـدُّرِّ والمـاءِ
إِذْ لاحَ شَمْسُ الهُدَى في بُرْجِ طـالِعِهِ ... بِشـارَةٌ قَـدَّسَتْ أَرْحَـامَ حَـوَّاءِ...(٣)

وهذا الشعر الدينيّ فتح جديد في الآداب العربيّة يطبّق فيه الشاعر أوزان الشعر العربيّ على موضوعات مسيحيّة خاصّة، وإن كان قد سبقه إلى هذا النمط الشعريّ سليمان بن حسن الغزّي المتنصّر في القرن الرابع عشر على الأرجح، فإنه لم يحظ من الشهرة ما حظي به شاعرنا(٤).

---

(١) Encycl. de l'Islam, II/814.

(٢) سَكّن الصاد لضرورة شعريّة.

(٣) جرمانوس فرحات: ديوانه، ص ٤.

(٤) شيخو: شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ٤/٤٠٠/٤٢٠؛ و Encycl. de l'Islam, II/815 . ومن شعر سليمان الغزيّ الذي وصف شيخو ديوانه بأنّه «أوّل ديوان نصرانيّ بَحْت» (المرجع نفسه، ٤/٤٠٩):

أنـا الـذي كنتُ أولَى أنْ أمـوتَ كمـا ... أخْـطَيْتُ دونَ المسيـحِ مـا بِـهِ عَيْبُ
يـا ربِّ أثْبِتْ لنـا نُعـمـاكَ فيـه فمـا ... لنـا سِـواهُ عـظيـمُ الـقَـدْرِ مَـطلوبُ
واغـفِـرْ لِـمَـنْ نَـظَمَ الأبيـاتَ زَلَّـتَـهُ ... فـإثْـمُـهُ بـإزا عَيْـنَيْـهِ مَـنْـصُـوبُ

(المرجع نفسه، ٤/٤٠٢).

وقال فرحات في مطلع تسميطه لقصيدة ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) العينيّة عام ١٧١٣:

هَبَـطَتْ إليكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ ... نَفْسٌ تَـراءَتْ في وِشاحٍ لا يَعي
دَقَّتْ ورقَّتْ جَوهَراً فكأنّها ... وَرْقاءُ ذاتُ تَعَزُّزٍ وتَمنُّعِ
مَحْجوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةِ عارِفٍ ... كمّاً وَكَيْفاً كالجِهاتِ الأَرْبَعِ
لكنْ قِواها كيفَ يُمكنُ سَتْرُها ... وَهيَ التي سَفَرَتْ ولم تَتَبَرْقَعِ... [1]

ومع كلِّ اهتمام فرحات بقواعد اللغة العربيّة، فإنّ ممارسته لكتابتها لم تخلُ من الهفوات. ومع كلِّ ما نظم بقي في شعره عدد وافر من الجوازات. وممّن لفت إلى هذا الضعف الأب لويس شيخو، ومارون عبود، ودائرة المعارف الإسلاميّة [2].

ويحسن بنا أن نعطي مكانة متميّزة في نهضتنا الأدبيّة الحديثة للتيّار النهضويّ الوافد من حلب [3] وحمص على يد روّاد دانت لهم النهضة بكثير من أسسها. نذكر من حلب بطرس التولاوي (١٦٥٨ ـ ١٧٤٦) العالم الكبير، وجرمانوس فرحات، وعبد الله زاخر (١٦٨٠ ـ ١٧٤٨)، ونيقولاوس الصائغ، ومؤسّسي الرهبانيّة اللبنانيّة الثلاثة: عبد الله قرألي (١٦٧٢ ـ ١٧٤٢) وجبرائيل حَوّا (١٦٦٨ ـ ١٧٥٦) ويوسف البتن (ت ١٧١٤) [4]. ونذكر من حمص آل اليازجي، وبطرس كرامة (١٧٧٤ ـ ١٨٥١). وعبّر مارون عبّود خير تعبير عن

---

(١) جرمانوس فرحات: ديوانه، ص ٢٧٤.

(٢) شعراء النصرانية بعد الإسلام، ٤/٤٥٦ ـ ٤٦٤؛ روّاد النهضة الحديثة، ص ٤٧؛ Encycl. de L'Islam, II/815.

(٣) كتب المستشرق كراتشكوفسكي Kratschkowsky (إغناطيوس ١٨٨٣ ـ ١٩٥١) في دائرة المعارف الإسلاميّة: Alep était l'une des rares villes arabes qui, après la conquête ottomane, avaient maintenu et développé, dans une certaine mesure, une tradition littéraire. (Encycl. de l'Islam, II/814).

(٤) مجلة «المنارة»، السنة ٢٥، العددان الأول والثاني، ١٩٨٤، ص ٣٠٠؛ والآباتي بطرس فهد: تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة، ١/٦ ـ ١٣.

استمرار شعلة المعرفة في لبنان إذ قال: «في أعماق الديورة وجوار الجوامع، بقي للعلم قبس كنار المجوس الدائمة»[1]. وجاء قول المؤلّف نفسه «إنّ الفصحى سرت إلى لبنان من حلب التي كانت اللغة التركيّة تجري على ألسن معظم سكّانها»[2] مطابقاً لرأي الرحّالة ڤولني (١٧٥٧ - ١٨٢٠) الذي أقرّ بأهميّة حلب في انطلاق الدراسة العربيّة[3]. ونبقي، مع ذلك، مكانة خاصّة لثلاث محطّات رائدة في جبل لبنان وسواحله ومدنه، وفي المدرسة المارونيّة، وفي جبل عامل، حَضَنَت الفصحى، وأسهمت في تغذيتها وانتشارها.

٢ - السواحل والمدن اللبنانيّة

انتشرت اللغة العربيّة وآدابها في مدن الساحل وبعلبك قبل انتشارهما في مناجع الجبل[4]، ذلك أنّ الأمويّين والعباسيّين شجّعوا الهجرات العربيّة إلى مدن الساحل، وكان من أوسع هذه الهجرات وأفعلها هجرة التنوخيّين[5] (أجداد الدروز). ومنهم، في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر للميلاد، **صالح بن يحيى** (ت حوالى ١٤٤٦) صاحب «تاريخ بيروت». ورأينا أن نستدلّ على أسلوب الكتابة لدى أهل السواحل والمدن من تاريخه، إذ توفّي قبل سنة تقريباً من ولادة جبرائيل إبن القلاعي (١٤٤٧ - ١٥١٦)، وهو من الطائفة الدرزيّة التي انتشرت، آنذاك، انتشاراً واسعاً في المنطقة الواقعة غربيّ جبل لبنان، ومنها بيروت، وأسلوب أهلها من حيث السلامة والبلاغة في منزلة متوسّطة بين كتابة المسيحيّين الناشئة وكتابة المسلمين المتقدّمة. قال ابن يحيى يذكر بيروت وأخبارها[6]:

«بيروت مدينة قديمة جدًّا يُستدلُّ على قدمها بعتق سورها ومع عتقه فهو

---

(١) مارون عبّود: **روّاد النهضة الحديثة**، ص ٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٣) Volney: *Voyage en Egypte et en Syrie*, p. 292.

(٤) وليم الخازن: **مظاهر الحضارة اللبنانيّة زمن الدولة العبّاسيّة**، ص ٤٩ و٥٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٨ (هامش ٩)، ٢٩، ٣٠؛ وصالح بن يحيى: **تاريخ بيروت**، ص ١٢ وما بعدها.

(٦) المرجع الأخير، ص ٨.

محدث عليها استخذوه (أي اتخذوه) الأولين من خرايب كانت مقدمة أقدم منه بمدد كثيرة لأننا نجد في السور المذكور قواعد من الرُخام وأعمدة كثيرة من الحجر المانع الذي قد تعب عليها الأولين في عَمْلِها وجَلْبها ونفقوا عليها أموالهم فدلّ ذلك على أنها من خرايب قديمة كانت عظيمة البناء جليلة المقدار فاستهانوها الذين جاؤوا بعدهم وجعلوها في السور المذكور مكان الحجارة التي لا قيمة لها لاستغنايهم عنها بكثرة أمثالها في الخرايب ودل ذلك على أن العماير الأوّله كانت أعظم من الثانية. . .».

يكشف هذا النصّ المكتوب في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر، على ما فيه من أخطاء لغويّة، أسلوباً عربيًّا مقبولاً وواضحاً بالنسبة إلى الأساليب الركيكة المشوبة بالعاميّة واللكنات الغريبة في تلك الأثناء. ولا تصحّ مقابلته بأساليب الكتّاب الذين سبقوا انهيار بغداد، أو عاصروا النهضة الحديثة.

وكان من التنوخيّين البحتريّين، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مفكّرون وكتاب وشعراء جلُّهم أمراء، كالأمير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين أمير الغرب المتوفَّى عام ١٣٥٠، والأمير شهاب الدين أحمد بن صالح بن الحسين المتوفّى عام ١٣٨١، والأمير شرف الدين عيسى بن أحمد بن صالح المتوفَّى عام ١٤٢٣، والأمير جمال الدين عبد الله بن سليمان (١٤١٧ - ١٤٧٩) وهو أشهرهم.

ونكتفي للتمثيل على أدبهم. بمقطّعة من قصيدة وصفيّة لناصر الدين الحسين أمر بأن تُعلَّق على باب الحمّام ببيروت:

وحمّامٍ يروقُ العينَ حسناً ... تجدْ(١) فيهِ المسرّةُ والنعيمُ
يريكَ الماءَ يسرحُ فوق دُرٍّ ... تزولُ بهِ لِمَنْظَرِهِ الهُمومُ
كأنَّ قِبَابَهُ والجامُ(٢) فيهِ ... سَماءٌ طالعاتٌ بها نجومُ. . .(٣)

---

(١) أثبت صاحب كتاب «التنوخيّون»: «تحيطُ بهِ» مكانَ تجد فيهِ، فأنقذ الوزن واللغة.

(٢) الجام: إناء من فِضّة كالكأس.

(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٤؛ ونديم نايف حمزة: التنوخيّون، ص ١٩٠.

ومن غير الأمراء نختار محمَّدَ بن عليّ الغزّي(١)، وله مدائح في الأمير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين، ومقامة في مدحه ومدح أقاربه تشتمل على نثرٍ ونظم، يقول فيها: «وهل في الشام تُشام غير بروق سحابه، أو يروق غير جمال كتبه وجميل كتابه، فالجِدُّ والجدوى وقف على سيفه وقلمه، والعفاف والتقوى من طباعه وشيمه، غالباً بآرايه الغنيّة عن الرايات، بالغاً بالآية غايات النهاية ونهاية الغايات، مع كتابةٍ كالروض باكره من كفّه وَسْمِيُّ(٢) الغمام، وبلاغة تفعل بالعقول ما لا يفعله المُدام».

ويتبع شعر مطلعه:

حَيَّا الحيا غَـرْبَ بيـروتٍ ومَنْ فيـهِ … وجـودُ كفِّ ابْنِ سعـدِ الـدينِ يَكْفِيـه
ولا غَـدَتْ مَنْ يُغـاديـهِ المنـونُ ولا … خَلَتْ مغـانيـهِ يـومـاً من مغـانيـه
غَـرْبٌ غدا مَشْـرِقاً للجـودِ مـا بَـرِحَتْ … شَمْسُ المكارمِ تُضْحي في ضواحيه(٣)

ولمحمّد الغزّي مخمّس مدحيّ من مشطور الرجز يفتتحه بالغزل والشكوى:

يـا حـاديـاً سـارَ ضُحىً بـالـرَّكْبِ … خَـلَّفْـتَ جِسْمـي وأخَـذْتَ قَـلْبـي
فَـقِـفْ عَـسَـى أنْـظُرُ وَجْـهَ حُـبّي … يُـقْـنِعُـنـي قبـلَ حُـلُولِ الـتُّـرْبِ
تَرْبَحُ(٤) أجْرَ المُسْتَهامِ الصَّبِّ... (٥)

---

(١) شمس الدين محمّد بن علي بن محمّد الغزّي المتوفّى عام ٧٦١ هـ/١٣٦٠ م. (المرجع الأخير، ص ١٨٩).

(٢) وسميّ: أوّل مطر الربيع لأنّه يَسِم الأرض بالنبات.

(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٨. وقد أثبت حاشيةً في أسفل الصفحة جاء فيها: «وكلّما نكتبه لمحمّد الغزّي المذكور فهو نقلاً عن خطّه وعندي منه ما يكتب في مجلّد كبير ضخم الحجم». ونقل نبذةً عن المقامة والأبيات نديم نايف حمزة في كتابه «التنوخيّون»، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٤) ورد «تربحُ» مرفوعاً وحقّه أن يكون مجزوماً.

(٥) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٩.

وتقدّم نتاج التنوخيّين تقدُّماً ملحوظاً في ما بعد بحيث ظهر، في آخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، شعراء وكتّاب لامسوا النهضة الأدبيّة، وكادوا يتفوّقون على كثير من مظاهرها. نذكر من هؤلاء الأدباء بعض من بقي أدبه مغموراً إلى حدّ كبير كابن سباط (ت ١٥٢٠)، والشيخ زين الدين عبد الغفّار تقيّ الدين (ت ١٦١٤)، والشيخ حسين المِيْمَساني (ت ١٦٢٦)، والشيخ علي فارس (ت ١٧٥٣). وإلى جانبهم عَلمان بلغا في عهدهما شهرة واسعة، وهما الشيخ يوسف بن سعيد الكفرقوقي (ت ١٦١١)، والشيخ محمّد أبو هلال الملقّب بِالفاضل (ت ١٦٤٠)[١].

الشيخ يوسف بن سعيد الكفرقوقي[٢]

نظم الكفرقوقي اثنتين وأربعين قصيدة، ومقطوعة واحدة[٣]. ولزم في شعره ما لا يلزم على طريقة أبي العلاء المعرّي (٩٧٣ - ١٠٥٧). وكان أدبه أدب الزهد والتقوى والورع والعفاف والطهارة والإخلاص والمحبّة والوفاء والصبر والرضا والتسليم والمواعظ والحكم والأمثال والفلسفة[٤]. وهي موضوعات نابعة من البِنية الذهنيّة لبني معروف الذين حاولوا دوماً المحافظة على الأعراف، والتحفُّظ في مجتمعات واسعة لجأوا إليها.

ومن التزامه المهارات الشعريّة ما سُمّي لديه «معشّرات الحروف»، خصّ فيها كلّ حرف من حروف الهجاء بعشرة أبيات مع مقدّمات توافق حرف كل باب. ففي حرف التاء مثلاً:

«تُبْ إلى الله إن طلبت رضاه. تقرّب إليه ودَعْ ما سواه. تبتّل لتلاوة كتابه المُنْزَل. توسّل إلى كرمه بنبيّه المرسل. تابع أهل السنّة بالأفضل الأكمل. تماديك على المعاصي خذلان. تيهك في هواك موقع في الحرمان. تتابع

(١) فؤاد أبو زكي: ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف، ص ٩.
(٢) وُلِد وتوفّي في كفرقوق، وهي قرية في قضاء راشيّا (١٥٣٠؟ - ١٦١١).
(٣) المرجع نفسه، ص ٩٣.
(٤) المرجع نفسه، ص ٩١.

سقطاتك ارتكاس وخسران. تبعات ذنوبك قائدة إلى النيران. تغافلك وتناسيك سبب لغضب الملك الديّان.

١ ـ تـأهَّبْ لِيَوم الجَـزا والمَمَاتْ — فـعَمّـا قـليـلٍ يَـجِـلُّ الـفَـواتْ
٢ ـ تناسيتَ عِرْضَـكَ يـومَ الحِسابْ — إلى كَمْ وكَـمْ لم تَـفِـدْكَ العِـظاتْ
٣ ـ تعـامَيتَ عن ذَنْبِـكَ المُـخْتَشَى — عـليـكَ بـه مُـوجبـاتُ الشَّـتـاتْ
٤ ـ تـعلَّقْ بـجـانبِ مـن لا يُخَيِّبْ — إليـهِ المنيبُ، الجـزيـلُ الـهبـاتْ
٥ ـ تَـذَلَّـلْ لـديـهِ بلينِ السُّؤالِ — وطـولِ انكسـارِكَ حتّى الـممـاتْ
٦ ـ تَعُـدْ بعـد طـولِ الجَفا للصَّفـا — وتَـرْقَ الـمعـالـي بتلك الصفـاتْ
٧ ـ تـنـاقصَ عـمـرُكَ لـمّـا بـدا — تـزايـدُ أفـعـالـكَ الـمُـنْـكَـرَاتْ
٨ ـ تَمَـرَّدْتَ عن حُسْنِ لينِ القبولِ — لآيـاتِ مُـوجِـدِكَ الـبـيِّـنـاتْ
٩ ـ تُـرَى مـا جـوابُـكَ لمّـا غـداً — تُـنـادَى بـأفعـالِـكَ المُخْـزِيـاتْ
١٠ ـ تَـرومُ الـنـجـاةَ بـلا تَـوبـةٍ — وإنْ تِبْتَ، يا صاحِ، أينَ الثَّباتْ؟(١)

وله تخميس للاميّة محمّد البوصيري (١٢١٣ ـ ١٢٩٦) صاحب قصيدة «البُردة» في ٣٤٢ بيتاً و ١٦٦ شطراً مستقلاً، مطلعه:

يـا غافـلاً منه طيبُ الفعلِ مَجْهـولُ — عَنِ الهُـدَى بضـلالِ الغيِّ مَعْقـولُ
فهـا دليـلٌ أتى نُصحـاً ومـدلـولُ — الى متى أنتَ بـاللذّاتِ مَشْغُـولُ؟
وأنتَ عَنْ كـلِّ مـا قـدّمْتَ مَسْؤُوْلُ(٢)

وبدا شَغوفاً بالتلاعب اللفظيّ والبيانيّ كما في قصيدته: «دُرَر النُّحور في التوبة الى الملك الغفور»:

أنـا الفقيـرُ الكَسيـرُ المُسْـرِفُ العـاني — أنـا الذليـلُ الضَّعيفُ العـاجـزُ الـواني
أنـا الضعيفُ أسيـرُ اللَّهْـوِ في مَـرَحٍ — أنـا الجَهولُ الغَفـولُ المُـذْنِبُ العـاني
أنـا الـذي لم أفِ بـالعِلْمِ في عَمَلي — أنـا الـذي سـاءَني جَهْلي وعِصْيـاني

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٩٧.

أنــا المُسَـوِّفُ في الأيـامِ أقـطعُهـا لَهْـواً وسَهْـواً بتفـريـطي وإرْكـاني
أنــا المُضَيِّـعُ أوقـاتي بـلا عَـمَـلٍ يُـرضي الإلَـهَ فيـا ذُلِّي وخُسْراني(١)

وللكفرقوقي ألفيّات شعريّة تسير أوائل أبياتها على حروف الهجاء، ومنها الألفيّة المربّعة على الشكل التالي:

يـا ذا القُـدُسِيَّـةْ يـا ذا القُـدُسِيَّـةْ أَصْـلِحْ لـي قـلبي فـي صَفْـوِ الـنِيَّـةْ
أنــا الـمُسْتَعْـفِي بـاللّطف المَخْفي يـا مَـوْلَـى الـلّطفِ يـا ذا الـعَـطِيَّـةْ
بـالهـادي المُهْـدِي من نـورِ الرُّشْـدِ بـالفَضْـلِ المُسْـدِي يـا ذا الجُـودِيَّـةْ
تُبْ على المُخـطِي يـا مولىً مُعْـطي وَامْـدُدْ لي بُسْـطي يـا ذا الأُنْـسِيَّـةْ
ثَـبِّـت إيـمـاني واصْلِحْ لي شـاني يـا ذا الإحـسـانِ والجَبْـروتِـيَّـةْ(٢)

وإلى جانب التصنُّع والتفنُّن والتزام ما لا يلزم، نظم الكفرقوقي قصائد كثيرة على الأوزان التقليديّة. منها، على وزن «البسيط»، قصيدة «وصف الأصدقاء» ومطلعها:

يـا قَلْبُ دَعْ مَنْ تُعاني من بني الـزَّمَنِ ففي الـودادِ صحيحُ القَـومِ كـالـزَّمِنِ
وكُـنْ على حَـذَرٍ مِـمَّـنْ وَثِـقْـتَ بِـه فـمـا صَـديقٌ عـلى وُدٍّ بِمُـؤْتَـمَـنِ(٣)

لا يتخلّل شعره ضعف أو ركالة، وإنّما كانت نماذجه على غرار النابهين القدماء، إلى حِرصه على إظهار فنونه ومهارته.

ولا يقلّ نثر الكفرقوقي قيمةً عن شعره، وهو يجيد بلوغَ أهدافه المعنويّة، متوسلاً إليها بطرائق الإرسال المعهودة في أيامه. مثلاً في الابتهال: «إلَهي! شفيعنا إليك الذلّ والانكسار والندم والرجوع والدموع الغزار. إلَهي! إن كانت ذنوبنا قد أخافتنا من عقابك فإنّ حسن الظنّ قد أطمعنا في ثوابك. فإن عفوت

(١) المرجع نفسه، ص ١١٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٣.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٧.

فمن أولى منك بذلك، وإن عذّبت فمن أعدل منك هنالك؟ . . .»[١].

وابتهاله هذا يشهد بما توصّل إليه في مطالعاته وتمرُّسه بالكتابة من تطوُّرٍ وإيذانٍ بالنهضة الآتية. وإنّما الحرص على السجع في نصّه أوقعه في استعمال لفظة نافلة، أقحمها إقحاماً بغير مسوِّغ، وهي لفظة «هنالك» التي يستغني عنها المعنى بلا خلل.

وللأديب موعظة طويلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكَر والاعتبار بمن رحل. وأسلوبه فيها تأثّري حيّ، نابض بالحياة، يكثر فيه التكرار والسؤال، وعبارات التأوّه والتفجُّع والأسى. منها:

«إخواني!

قلوبنا بالغفلة رحلت عن الأجسام. إخواني! الى مَن أتحدّث وليس في الحيّ خيام؟ إخواني! أما تنظرون إلى ما فعلت بنا الزلّات والآثام؟ قيّدنا التقصير ودنا الحِمام. فأوّاه علينا من هول يوم النشور ونفخٍ في الصُّور. بالله يا إخواني إلى متى تؤخّرون المتاب؟ وهذا المشيب قد أتى وقد تولّى الشباب؟ يا هذا متى تصالح مولاك؟ متى تقف بالباب؟ . . .

آه على قلوبٍ أذابها حرُّ الغليل. آه على نفوس أفناها البكاء والعويل. آه على جوارح قابلت بقبحها الفعل الجميل. آه على قلوب لم تتفكّر في يوم الموت والرحيل. آه على أكباد تنقطع خيفةً من الملك الجليل. آه على جنّة عدنٍ وظلّ ظليل. . .»[٢].

الشيخ الفاضل محمّد أبو هلال[٣]

مارس الشيخ الفاضل الأدب شعراً ونثراً، فقصّد القصائد في مختلف

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٣ ـ ١٧٧.

(٣) ولد في «كوكبة أبو عرب»، في قضاء راشيّا الوادي، حوالى عام ١٥٧٩، وتوفّي في «عين عطا» عام ١٦٤٠. كان شديد التقشّف حتّى الاعتزال في المغاور. بلغ مرتبة شيخ العقل. وكما عبّر أبو زكي: «طبّقت شهرة تقواه وعلمه وورعه وزهده وعفافه وطهارته آفاق لبنان» (المرجع نفسه، ص ١٧٩ ـ ١٩٠).

الأبواب الشائعة في زمانه من غزلٍ ومدحٍ وهجاءٍ ووصفٍ واعتذارٍ وزهدٍ وتصوُّف. وكتب الرسائل الدينيّة الناضحة بالنصائح والوعظ والتواضع والأدعية، ما يجعلنا نفسح له، في مجال باب التصوّف اللاحق، مكانةً خاصّة، مكتفين، ههنا، بتقديم ما تيسّر من أغراض شعره الزمنيّ.

من باب الغزل قصيدته «مشوقة القلوب إلى لقاء المحبوب»، ومطلعها:

شوقاً يشبُّ زفيراً من حرارتِهِ — والدمعُ ما بين مَسْجورٍ(1) ومُنْسَجِمِ
نيرانُنا لم تزل دَوْماً لبعدكمُ — مَسْعُورَةً بْهَجيرٍ دائمِ الضَّرَمِ
أرواحُنا نحْوَكُمْ بالشَّوقِ طائرةٌ — قلوبُنا لم تَزَلْ بالبُعْدِ في أَلَمِ
مُنُّوا علينا بقربٍ في جوارِكُمُ — وَإجْعَلونا لَكُمْ في جُمْلَةِ الخَدَمِ(2)

ومن الشعر الدينيّ قصيدة «يا نبيِّي»، يقول فيها:

يا نبيِّي يا مُمَجَّدْ — يا نظامَ العَالَمَيْنْ
يا نبيِّي يا مُعَظَّمْ — يا وَلِيَّ المَنْزِلَيْنْ
يا نبيِّي يا مُقَدَّسْ — يا مليكَ الحالتَيْنْ(3)
يا وَلِيَّ اللّه حَقًّا — يا رجيحَ الوزنتَيْنْ
يا صَفِيَّ اللّه صِدْقاً — يا سِرَاجَ الخافِقَيْنْ(4)

وله قصيدة طويلة (٢٤٥ بيتاً) بعنوان «يوم البعث» يقول في مطلعها:

ألا أيُّها الناسُ النيامُ تنبّهوا — وجدّوا جُهُودَ الفائقِ اليقظانِ(5)

(١) مسجور: متّقد.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٤.
(٣) حالة العسر وحالة اليُسر.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٧. الخافِقان: المَشْرِق والمَغْرِب.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢١٩.

وفي **الإخوانيّات** قصيدة طريفة بشكل «رسالة إلى المشايخ الحلبيِّين»، ومطلعها:

أهيمُ مُحَيّا القوم منهم تودُّداً | بأوفى سَلامٍ ثم أزْكى تَحِيَّةِ
حاءُ حَذاه الشّوقُ نَحْوَ مَحَلِّهِمْ | فَهُمْ مَقْصَدي دون الأنام وبُغْيَتي
. . . واوٌ وإنْ كان البُعادُ مسافَةً | ولاهُمْ قريبٌ في حَشائي وَمُهْجَتي
دالٌ دَواهُ عِنْدَكُمْ ليسَ خافياً | ودائي مِنْهُمْ مِنْ صحيحِ المَحَبَّةِ[1]

نرى في ما أثبتناه من شعره أنه يعبّر بصدق وإخلاص عمّا يجيش في صدره. وقد يتصنّع في معرض الظرف والمنافسة. وأسلوبه عربيّ صميم. وإلى ما شاهدناه من تصنّع في إخوانيّاته، نقرأ لفؤاد أبو زكي: «إنَّ الفاضل يُعتبر من الشعراء المطبوعين الذين لم يحاولوا التصنّع والتكلّف في نظمهم»[2]. وقد يَرْجُحُ اقتناعنا بهذا الرأي عندما نعالج شعر الشيخ الفاضل الصوفيّ في موقعه من الدراسة.

أمّا نثر الشيخ الفاضل فكثير، وجُلُّه مواعظ ونصائح وتوجيه أخلاقيّ متوجّب على الشيخ الشهير بعلمه وتقاه، والمقصود من كلّ حَدَبٍ وصَوب. وأمّا أسلوبه النثْريّ فنحكم عليه بعد إيراد نموذج منه: «رسالة إلى الإخوان المُحِقِّين».

بعد البسملة والحمد لله والصلاة والسلام عليه وعلى رسوله الأمين في استهلال طويل يبلغ صفحةً كبيرة وربع صفحة، يتوجّه الشيخ الفاضل إلى الإخوان:

أيُّها الإخوان المُحِقُّون!

الأجلّة المهتدون، السالكون سبيل الهدى والإيمان، المتمسّكون بطاعة المليك الديّان، الواقفون على منهج الحقّ والصدق والإتقان، العابدون لله الواحد المنّان، المقرّون بوحدانيّته في كلّ عصر وزمان. وحَرَسَكُم المولى من

(١) المرجع نفسه، ص ٢٣١. وَرَمَزَ بالحاء والواو والدال إلى أوّل حرف من أسماء الشيوخ.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٩١.

خطوات الشيطان، وكلأكم وأعانكم وأولاكم، وأمدّكم بمواد توفيقه، وأخذ بكم في الصواب والخير إلى أبهج طريقه، وأعاننا وإيّاكم على المبالغة في مرضاته، ووفّقنا وإيّاكم حقوق دينه ومفترضاته. . .»[١].

إنّ أسلوب الشيخ الفاضل، كما نراه، سهل واضح. ولغته متماسكة متينة تسير على سَنَن الكتّاب العرب الكبار في عزّ نهضتهم، كعبد الحميد الكاتب (ت ٧٥٠) في رسالته إلى الكتّاب[٢] وغيره، قبل أن تسيطر على الترسُّل ضروب الصناعة والبديع. أمّا السجع المعتمد، أحياناً، فهو، عدا دُرْجَة العهد، يجاري التأثّر بالموضوع، ويهدف إلى مزيد من التأثير في القارىء.

طرابلس

كانت طرابلس منذ القرون الوسطى ومنذ حكم بني عمار (١٠٧٠ ـ ١١٠٩) ومكتبتهم الشهيرة، بؤرة ثقافيّة ومقصداً للكتّاب والشعراء والعلماء والمتأدّبين. أمّتها طائفة من الشعراء النابغين قبل عهد بني عمّار، وعلى رأسهم المتنبّي (٩١٥ ـ ٩٦٥) وأبو العلاء المعرّي (٩٧٣ ـ ١٠٥٧). ومثلما كان أدباء جبل عامل وشيوخها الشيعة يتوافدون على النجف الأشرف في العراق وعلى مدارس إيران ومساجدها، كان الطرابلسيّون السنيّون يقصدون الأزهر ودمشق، ويتلقّون روافد المعرفة والتوجيه الثقافي من جامعي بل جامعتي «القيروان» و«الزيتونة» في تونس. وشكّل دخول الصليبيّين طرابلس في ٢٦ حزيران ١١٠٩ نكسة لاستمرار نهضتها الثقافيّة. وما إن خرجوا من بلادنا عام ١٢٢٤ حتى عادت طرابلس تتنفّض من كبوتها، وتحيي ماتهدّم من تراثها[٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.
(٢) المجاني الحديثة، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٢، ٢/٣٣٣ ـ ٣٣٧.
(٣) محمّد علي مكّي: لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ٩٩ ـ ١٠٢؛ ووليم الخازن: مظاهر الحضارة اللبنانيّة زمن الدولة العباسيّة، ص ٥٠ ـ ٥١؛ وعبد الله نوفل: كتاب تراجم علماء طرابلس وأدبائها، ص ٢.

كتب الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني»: «ولما جاء عهد المماليك استمرّت الحركة الثقافيّة لأنّهم كانوا، على الرغم من بعدهم عن العروبة، يؤمنون بالإسلام، ويخلصون له، ويتحمّسون لعلومه وآدابه ولغته، وقد أبقوا لنا مدارس كثيرة في الشام ومصر والحجاز لا تزال شاهدة على نشر العلم وتعميمه. ولم يخلُ عهد أحدهم من إشادة مدرسة أو خزانة كتب، أو تأسيس كُتّاب للأطفال أو دار قرآن للأيتام أو دار حديث للطلّاب»[1].

ومن القرن الخامس عشر ابتدأنا نتّصل بطائفة من شعراء الفيحاء وكتّابها ومعلّميها من الأئمّة والشيوخ. وكتاب عبد الله نوفل «تراجم علماء طرابلس وأدبائها» يعطي فكرة جيّدة عن نهضة اللغة والآداب، آنذاك، في عاصمة الشمال.

وظهرت بعد صاحب «التراجم» كتب وأطاريح ومقالات كثيرة تبيّن دور طرابلس الثقافيّ خلال القرون الماضية، وطابع الاستمرار والتواصل اللذين اتّصف بهما دورها هذا. كما نقرأ للدكتور نعمه الديب، وهو يتحدّث عن ملامح المدينة الفكريّة والأدبيّة بالاستناد إلى غير مصدر ومرجع: «فقد عُرفت طرابلس عبر العصور بأنّها «مدينة العلم والعلماء» بما حوت من مئات ألوف الكتب القيّمة التي نهل منها العلماء والأدباء والشعراء المعارف السائدة زمن تلك العصور، كما قدم إليها مشاهير الأعلام ليأخذوا عن محدّثيها، ويزوروا دور العلم والمكتبات فيها. هكذا كانت حالها في الماضي والتي استمرّت مع الزمن بفضل اهتمام بل شغف أبنائها بالعلم والأدب. ولا غرو في ذلك، بالنسبة إلى طرابلس، لأنّها كانت مَرْبَضاً من مَرابض الحضارة، والفكر، والإشعاع الذي سطعت أنواره في العالم، وهي تحمل رسالة فكريّة وروحيّة بارزة»[2].

---

(١) بكري شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص ٥٧.
(٢) نعمه الديب: شاعر الفيحاء سابا زريق (١٨٨٦ - ١٩٧٤) حياته وآثاره، أطروحة دكتوراه اختصاص في اللغة العربيّة وآدابها بجامعة القدّيس يوسف، آذار ١٩٨٦، ص ٥٠ - ٥١.

ثالثاً: المدرسة المارونيّة

ألف ـ تأسيسها

تأسّست المدرسة المارونيّة عام ١٥٨٤ برومية في عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) والبطريريك المارونيّ سركيس الرزّي (١٥٨١ ـ ١٥٩٧). وكان لها ولتلاميذها الأثر البيّن في اللغة والعلوم والترجمة والنهضة الإنسانيّة العامّة في لبنان والغرب(١).

وقبل افتتاح المدرسة المارونيّة كان البطاركة «يرسلون الأحداث الأذكياء المرشّحين للكهنوت إلى روما لكي يتعلّموا في كليّاتها الأوروبيّة ويتقنوا الفلسفة واللاهوت وما إليهما من العلوم الرفيعة، ليتمكّنوا من ترجمة البراءات الحبريّة والكتابات الرسوليّة، وبالتالي كي يقدروا أن يصحّحوا الكتب الطقسيّة وينقّحوها ويطبعوها مع ترجماتها ويساعدوا إخوانهم اللبنانيّين على الترقّي في مدارج المعارف الدينيّة والمدنيّة على السواء»(٢).

---

(١) قال مارون عبّود في «صقر لبنان» (ص ٧٣): «والمدرسة المارونيّة في رومة، التي كان لها أعظم أثر في تمشرق الغرب وتمغرب الشرق، كانت غايتها الأولى الدين». وقال صلاح لبكي في «لبنان الشاعر»: «هنالك حدثان هامان أثّرا في مجرى الحياة الفكريّة في الشرق العربيّ كلّه، وما الشعر إلاّ ناحية من هذه الحياة. أوّلهما عودة تلامذة مدرسة رومة المارونية التي كانت قد أنشئت سنة ١٥٨٤ إلى لبنان. وثانيهما مجيء نابليون إلى الشرق. ومعنى الأوّل أنّ لبنان قصد الغرب فأحضره إلى الشرق. وهذه البادرة تكرّرت يوم ذهب الأمير فخر الدين المعنيّ (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥) إلى توسكانا فتعرف في فلورنسا عاصمة الحضارة الغربيّة يومذاك إلى نسق المعيشة وإلى الفنّ وإلى القصور وحمل إلى بلاده الرغبة في محاكاة تلك الحضارة العظيمة. ومعنى الثاني أنّ الغرب عاد فقصد الشرق. وكان من أمر هذين الحدثين العظيمين على تطوّر النهضة الفكريّة في الشرق أنّهما ألهبا الشعلة في لبنان ومصر» (المجموعة النثريّة، ص ١٣٤).

وأثير بوضوح في الذكرى المئوية الثانية لوفاة ميخائيل الغزيري (١٧٠٨ ـ ١٧٩٢) والتي أحيتها جامعة الروح القدس في ٢١/١١/١٩٩٢، دور العالم اللبناني الطليعيّ في الاستعراب أي نقل اللغة الغربيّة وثقافة العرب إلى الغرب. وجاءت في هذه الذكرى خمس شهادات لعلماء إسبان تشيد بفضل الغزيري، خصوصاً في تبويب مخطوطات مكتبة الإسكوريال (المكتبة الملكيّة الإسبانيّة) وجدولتها ونشر الدراسة العربية في إسبانية (جريدة النهار، ٢٤/١١/١٩٩٢، ص ١٩).

(٢) ملحق كتاب تاريخ الأزمنة، من وضع الأباتي بطرس فهد، ص ٦١٨؛ عن الكردينال نرلي في الكتاب الذي طبعه برومية عام ١٦٨٥ حول المدرسة المارونيّة.

واتّصال لبنان بالغرب، وخصوصاً بفرنسة، والتفاعل الحضاريّ بينهما قديم، تجلّى منذ الحملات الصليبيّة. ويمكن مراجعة هذا التفاعل، والأشخاص الذين أمّنوه، والمؤسّسات التي رعته، في كتب أدبيّة وتاريخيّة كثيرة[١].

أدار الآباء اليسوعيّون المدرسة المارونيّة منذ تأسيسها حتى عام ١٧٧٣ إذ حلّ الحبر الأعظم جمعيّتهم. وتخرّج فيها ٢٨٠ تلميذاً قبل اجتياح بونابرت لرومية عام ١٧٩٨ ووضع يده على المدرسة، وقد قرّر إغلاق المؤسّسات الدينيّة ومصادرة أموالها. وانتظرت المدرسة المارونيّة العام ١٨٩٢ لكي تفتح أبوابها مجدّداً بفضل البابا لاون الثالث عشر (١٨٧٨ - ١٩٠٣) «بابا العمّال»، والمطران الياس الحويّك (١٨٤٣ - ١٩٣١) الذي أصبح بطريركاً (١٨٩٩).

تخرّج فيها أكثر من أربعين أسقفاً خدموا طائفتهم واللبنانيّين عموماً بما حصّلوا من علوم ومعارف. وأُغلقت المدرسة نهائيًّا في بداية الحرب العالميّة الثانية عام ١٩٣٩، وما زال بناؤها ملكاً للطائفة المارونيّة، ومقرًّا للنائب البطريركي في رومية[٢].

باء - أثرها في اللغة والآداب العربيّة

توصّل النقد الحديث إلى نظريّة قوامها النظر في النصوص على ضوئها

---

(١) منها بالفرنسيّة *Les Échanges Culturels entre les Maronites et l'Europe du Collège Maronite de Rome (1584) au Collège de Ayn - Warqa (1789)* Beyrouth, 1984 (Nasser Gemayel).
وكتابان لهُدَى عَدْرَة: في منشورات الجامعة اللبنانية: الأول عام ١٩٨٢ والثاني عام ١٩٨٥.
Gérard De Nerval et *le Liban*, et *Flaubert et le liban*.

(٢)

السنوات التي فتحت فيها	المجموع	السنوات التي أُقفلت فيها	المجموع
١٥٨٤ - ١٧٩٨	٢١٥	١٧٩٨ - ١٨٩٢	٩٤
١٨٩٣ - ١٩١١	١٩	١٩١١ - ١٩١٩	٨
١٩٢٠ - ١٩٣٩	٢٠	١٩٣٩ - ١٩٨٣	٤٤
	٢٥٤		١٤٦

عن الدكتور جوزيف أبو نُهرا: الظروف التاريخيّة لنشأة المدرسة المارونيّة الحديثة، مجلّة المنارة، السنة ٢٥، العددان الأوّل والثاني، ١٩٨٤، ص ٣٥٤.

بالذات، لا على ضوء أحدث النظريّات النقديّة. فالنصّ نفسه ينطوي على مقاييس نقده. لا أتحدّث هنا عن الألسنيّة التي يمكن أن يفيد منها النقد إفادة جُلّى بالنظر إلى ظاهر النصّ، ولكنّني أقصد عمق المبنى والمعنى معاً.

انطلاقاً من مفهوم النقد الحديث هذا، أتناول نتاج المدرسة المارونيّة في اللغة والآداب العربيّة، متخطّياً المحطّات التاريخيّة التي كثر تداولها وتَقْليب مضامينها. ولن أبالغ مع الدكتور أنطون غطّاس كرم الذي ارتأى أنّ «الكلام على الأدب يبدأ حيث ينتهي الكلام على التاريخ»[1]، فالتاريخ والأدب، عندي، خِدْنان متلازمان، يتعاونان ويتكاملان.

نشأت المدرسة المارونيّة في عهد كان التأخّر يخيّم فيه على العالم العربيّ، لا التأخّر التاريخيّ اللغويّ بنوع خاص، لأنّ ذاك العصر لم يخلُ من أساليب بيانيّة، وكتب لغويّةٍ وتاريخيّة، وفيه نشأت تصانيف شتّى في مصر والشام خصوصاً، ولكنّه تأخّر سياسيّ واجتماعيّ وإبداعيّ في ظلّ العثمانيّين المتخلّفين لغةً وحضارة. وَصَفَ جرجي زيدان ذاك العصر بأنّه «عصر الشروح والحواشي»[2].

وكان الجوّ الأدبيّ في لبنان على شيء من الانتعاش. ألم تُعزَ إلى الأمير فخر الدين الثاني (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥) نفسه أبيات زجليّة؟[3] ألم يُنسب إليه أنّه أراد السير بلبنان في سبيل الحضارة العصريّة؟[4].

---

(١) **ملامح الأدب العربيّ الحديث**، ص ١١.

(٢) **تاريخ آداب اللغة العربيّة**، ٢/٢٨٥.

(٣) من أقوال الأمير فخر الدين مجيباً يوسف سيفا:

نِحْنـا صْغـارْ وفي عـينِ الـعَـدُوّ كْبـارْ   إنْتُـو خَشَبْ حَـوْرْ نِحْنـا لِلْخَشَبْ مِنْشـارْ
وحَقّ طِيبَـةْ وزَمْـزَمْ والنَّبي الـمُخْـتـارْ   مـا بْعَمِّر الـدَّيْرْ إلاّ مِنْ حَجَـرْ عَكّـارْ

وقيل إنّ الأمير فخر الدين غنّى موّاله هذا بعدما سمع الموّال الذي ردّت به ابنته «ستّ النصر»، زوج حسن بن يوسف سيفا، على موّال السيفيّات اللواتي عرَّضْنَ فيه بقصر قامة أبيها. (كرم البستاني: **أميرات لبنان**، ص ٦٤ ـ ٦٦).

(٤) فيليب حتي: **لبنان في التاريخ**، ص ٤٥٤ و٤٦٣. كتب المستشرق الألمانيّ هنريخ ـ فرديناند فوستنفلد (١٨٠٨ ـ ١٨٩٩): «لقد تقرّب (فخر الدين) من جهة إلى فئة من الناس فأجزل عليهم =

وجاء في مقدّمة فؤاد أفرام البستاني لكتاب أسامة عانوتي «الحركة الأدبيّة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر»:

«القرن الثامن عشر مهضوم الحقّ، مبخوس القدر، في تاريخ الآداب العربيّة، على ما تأكّد لكاتب هذه الدراسة. فاندفع، جاهداً للانتصاف له، ولتخليصه من أَسْر الأحكام التقليديّة التي يتخطّفها الباحث من الباحث دونما استقصاء ولا تمحيص.

ولعلّ مردّ هذه الأحكام التقليديّة إلى القول المردّد المتكرّر، المتناقل في أكثر كتب الأدب: إنَّ دويّ مدافع بونابرت، في أرجاء وادي النيل، أيقظت الشرق من سباته الطويل. وهو قول، إن صحّ على مصر التي لم تعرف الطباعة، ولا المدارس العصريّة، إلّا في الربع الأوّل من القرن التاسع عشر؛ فلا يصحّ على لبنان الذي عرفها، ونعم بها، منذ أوائل القرن السابع عشر، برجوع الأفواج الأولى من خرّيجي المدرسة المارونيّة بروما؛ ولا على بعض أنحاء سورية، ولا سيّما حلب، التي عرفت الطباعة وما يليها من حركات فكريّة، منذ أوائل القرن الثامن عشر، بفضل علاقاتها بأوروبة، وبفضل اتخاذ المرسلين إيّاها مركزاً أوّل لعملهم الثقافيّ، ومنطلقاً لنشاطهم التبشيريّ».

أمّا أوروبة، فقد انتعشت النهضة فيها منذ القرن الخامس عشر في كل الميادين، وخصوصاً إيطالية التي أضحت واسطة العقد في احتضان هذا الانبعاث الجديد، ودعمه، وتصديره[1].

وشارك خرّيجو المدرسة المارونيّة في النهضة الأوروبيّة، وتفاعلوا معها، آخذين ومعطين في إيطالية وفرنسة بخاصة. فمنذ توافدوا إلى المدرسة، وابتدأوا يتخرّجون فيها، عاونوا المستشرقين الأوروبيّين وشاركوهم ترجمة

= العطاء، ولا سيّما الشعراء الذين كانوا يقصدونه فيمدحونه فينالون منه المكافأة هدايا ثمينة» (فخر الدين أمير الدروز ومعاصروه، ص ١٤٩). وفي ذيل المصدر الأخير دراسة لفؤاد أفرام البستاني بعنوان «تراث الأمير فخر الدين»، ص ١٩٣ ـ ٢١٥، تبيّن ما امتاز به عهده من نهضة وإنجاز حضاريّ.

(١) الياس القطّار: مجلّة المنارة، ١٩٨٤، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

وتأليفاً. وعندما أغلق بونابرت المؤسّسات الدينيّة بما فيها المدرسة المارونيّة وصادرها على أموالها عام ١٧٩٨، اتّخذ تراجمة ومعاونين من تلاميذها كالياس فتح الله، ويوسف مسابكي اللبنانيّين، والأخ مَشْهَرَة شامي المارونيّ الحلبيّ[١].

وما زال اسما جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ - ١٦٤٨) وإبراهيم الحاقلاني (١٦٠٥ - ١٦٦٤) يشعّان على مدخل المعهد الملكيّ Collège Royal في باريس. وممّن علّم فيه يوحنّا الحصروني (ت ١٦٢٦) وسركيس الجمري (ت ١٦٦٨). واعترف المستشرق الإيطالي إغناطيوس غويدي Ignazio Guidi (١٨٤٤ - ١٩٣٥)، أستاذ طه حسين في الجامعة المصريّة، بأنّه أجاد العربيّة بفضل اتّصاله برجال الإكليروس المارونيّ المقيمين في رومية، خصوصاً الأباتي جبرائيل القرداحي (١٨٤٥ - ١٩٣١)[٢] الذي كانت تربطه به صداقة حميمة[٣].

ولا أراني بحاجة إلى التوقّف طويلاً عند فضل خرّيجي المدرسة المارونيّة في لبنان والمشرق العربيّ، فإنّ مؤلّفاتهم الجمّة، ومدارسهم الكثيرة، تشهد بمآثرهم. ويكفي أن تكون، من ثمارهم، مدرسة عين ورقة الشهيرة التي أُسّست عام ١٧٨٩، وغدت، بفضل من خرّجتهم من رجالات العلم واللغة والآداب والدين، منارةً حضاريّةً ساطعةً، ومركزاً نهضويًّا مرموقاً[٤].

وفي دراستي هذه، سوف أقتصر على معالجة أثر المدرسة المارونيّة في اللغة والآداب العربية، منطلقاً من نماذج معيّنة لتلاميذها، في أبرز الموضوعات

---

(١) Pierre Raphaël, *Le rôle du collège maronite romain*, p 63.

(٢) راهب مارونيّ أستاذ اللغات الشرقيّة في البروبغندا (رومية). له «اللباب» وهو قاموس سريانيّ عربيّ، ١٨٨٧ (المنجد في الأعلام، ص ٥٤٧).

(٣) فردينان توتل: اغناطيوس غويدي المستشرق الإيطاليّ الكبير، مجلّة المشرق، س ٣٣، تموز - أيلول ١٩٣٥، ص ٤٤٦. ولنا شاهد آخر في وزير الثقافة الفرنسيّ جاك لانغ Jack Lang الذي نوّه عام ١٩٨٢ بفضل خرّيجي مدرسة رومية في مجالات العلوم والطباعة والتأليف. (*Le livre et le Liban*, p. 11).

(٤) راجع في هذا الموضوع كتاب الأب الدكتور ناصر الجميّل:
Les échanges culturels entre les maronites et l'Europe du Collège Maronite de Rome (1584) au Collège de Ayn - Warqa (1789).

التي اختطّوها لأنفسهم نثراً وشعراً، مبتدئاً بالرسائل، فالترجمة، فعلم الكلام والمنطق، فالتربية والتعليم، فالقوانين والعقود، فالتاريخ، وأخيرًا الشعر. وفي النهاية أذكر محصّلة بحثي في نقاط محدّدة، فأعدّد بإيجاز فضل المدرسة المارونيّة على اللغة والآداب العربيّة.

١ ـ الرسائل

أبدأ بالرسائل لأنّها، فضلاً عن كثرتها المطلقة بين رومية والغرب عموماً وبين لبنان[١]، توفّر مصدراً أقرب ما يكون إلى العفويّة والسلفيّة، وبالتالي أبين وأقرب دلالة على الأساليب الكتابيّة المستعملة.

١٠١ ـ رسالة من جبرائيل الباني أوّل تلاميذ المدرسة المارونيّة، كتبها بعد رجوع الأب إليانو من مصر إلى البندقيّة عام ١٥٨٥، ومنها يظهر حب التلامذة للأب إليانو وعرفانهم جميله:

«بسم الاب والابن والروح القدس

أقبل الأرض وأحني بالهامة الخاطئة بين الأيادي الطاهرات التقيات الزكيات اي ايادي المحب الحنون وتاج راسي وقرة عيني ومهجة فؤادي المحب المحبوب أبي القس باطيشتا[٢] سلّمه الله تعالى.

سبب تسطيرها الأشواق إلى نظرك البهيّ الله يروينا إياه بخير وعافية...».

(التوقيع: احقر الناس عبدك وابنك جبرائيل الباني ابن القسّ يوسف)

وفي رسالة أخرى كتبها جبرائيل للأب إليانو باسمه وباسم ثمانية من رفقته يقول:

«أقبل الأرض وانحني بين أقدام السائر بخدمة العلي الشريف ربّنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وعد بإنجيله المقدّس ملكوت السموات

---

(١) يقول الدكتور أسامة عانوتي في كتابه الحركة الأدبيّة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر: «لقد أربت نسبة الرسائل من نثر العصر على نسبة فنونه الأخرى». (ص ٩٠).

(٢) اسمه الكامل جوان باطيشتا إليانو.

للمجتهدين بعمله... امين. إلخ... فمن كل بد وسبب يا أبونا. إلخ»[١]...

٢٠١ - كتاب الخوري يوحنّا أيّوب الحصروني في نفس السنة والمناسبة:

«بسم الربّ حافظ خائفيه وموصلهم الى درج الكمال كما يتوق الأيّل الى ينبوع المياه كذلك تاقت نفسي الى حضرة الأب القدّيس الجوهر النفيس الذي ليس في قداسته شك على الاعلام ومصباح الظلام... فخر العلماء وزين الكهنة أبي ومعلّمي وتاج رأسي القس باطيشتا أدام الرب كهنوته ويرحمني ببركة صلواته. إلخ...

تلميذك الحقير في الكهنة يوحنا
الحصروني من جبل لبنان.»[٢]

٣٠١ - رسالة البطريرك سركيس الرزي الى الأب إليانو بتاريخ ٢٥ آذار ١٥٨٥ يهنّيه فيها بالنجاة من محنته ويوصيه بالتلاميذ الموارنة:

«بطرس بطريرك الموارنة (بالكرشوني)

السلام والبركة التي حلّت على جوق الرسل تكون حالة على أعز الأصدقاء والمحبين القس باطيشتا. الرب يبارك عليك. في كل أيام حياتك ويخلصك في الدنيا والآخرة. ويكون حظك في ملكوته السماوية بصلوات العذراء الطاهرة والآباء القديسين آمين.

وسبب تسطيرها كثرة الأشواق إلى رؤياك السعيد الله يروينا وجهك بخير وعافية آمين...

برزت من دير سيّدة قنّوبين
نهار عيد البشارة ١٥٨٥». [٣]

(١) لويس شيخو: الطائفة المارونيّة والرهبانيّة اليسوعيّة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ص ٨١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٢ - ٨٣.

٤٠١ ـ رسالة البطريرك يوسف التيان[١] للقس أرسانيوس القرداحي وكيله في رومية في ٥ حزيران ١٨٠٣:

«البركة الرسولية تشمل حضرة ولدنا العزيز القس ارسانيوس الاكرم باركه الرب آمين.

أولاً مزيد الأشواق لرؤياكم بكل خير والثاني الموجب لتحرير الاحرف هو أولاً السؤال عن احوالكم نسأله تعالى تكونوا دايماً بغاية الصحة والتوفيق: ثم اننا قد وقفنا على مكتوبكم لحضرة ولدنا رئيسكم العام المحترم بتاريخه اول نيسان سنته ومنه فهمنا وصول جميع كتاباتنا ليدكم وقوي انسرينا من ذلك. إلخ...

الحقير
يوسف بطرس تيان
البطريرك الانطاكي»[٢]

هذه نماذج أربعة عن الرسالة المحرَّرة بقلم تلاميذ المدرسة المارونية. اخترنا ثلاثاً منها من السنة الثانية لفتح المدرسة (١٥٨٥)، والرابعة من مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٣)، لكي نرى الفرق الحاصل بين الحِقْبَتين.

تطالعنا هذه الرسائل بعادة البسملة، وإن كانت عند المسلمين «بسم الله الرحمن الرحيم»، فهي عند المسيحيِّين «بسم الآب والابن والروح القدس». وكتابة «بسم»، بحذف الألف، مماثلة للكتابة القرآنية لهذه العبارة. ولا غرابة في كثرة التعابير الدينية الواردة على لسان التلاميذ. فالمدرسة المارونيّة، أساساً، مدرسة إكليريكيّة.

(١) اسمه الحقيقي مفوّض بن سلوم التيان من بيروت. أرسله البطريرك يوسف اسطفان تلميذاً الى مدرسة الموارنة في رومية عام ١٧٧٣. صار بطريركاً في ٢٨ نيسان ١٧٩٦، وتنازل عن البطريركية عام ١٨٠٩. توفي في دير قنّوبين في ٢٠ شباط ١٨٢٠ (مجلّة المنارة، السنة الثامنة، ١٩٣٧، ص ٩ ـ ١٤).
(٢) مجلة المنارة، السنة الثامنة، ١٩٣٧، ص ١٦ ـ ١٧.

وامتهان النفس، وتعفير الجباه على الأعتاب، واستعمال ألفاظ التعظيم والتفخيم كلّ ذلك مستمدّ من الآداب السلطانيّة المعروفة في ذاك الزمان.

وتلفت القارىء كثرة الاصطلاحات المكرّرة بعيداً عن العفويّة في موضوع يفترض وجودها. وربّما تبدّت شدّة الخضوع للسلطات العليا خضوعاً في كلّ الميادين، ومنها ميدان الكتابة. ومن الصعب، إن لم يكن مستحيلاً، مصادفة الشخصيّة الأدبيّة في كتابات تلك العصور.

يقول الكاتب: «أقبل الأرض وأحني بالهامة الخاطئة بين الأيادي الطاهرات». هل نعدّ ذلك خبثاً اجتماعيًّا؟ إنّ من أكثر المقاييس النقديّة خطأً ما يحكم منها على التراث القديم بذهنيّه العصر الحاضر ومفاهيمه. لذلك، علينا أن لا نرى في تعابير التلاميذ سوى اتّباعٍ للسلف، وللقاعدة الكتابيّة التي يُخطّأ من يهملها أو يشذّ عنها.

ويتابع الكاتب: «وتاج رأسي وقرة عيني ومهجة فؤادي» وهي أوصاف معهودة تحدوها الحماسة والتقيّد الشديد بالفرض الواجب من الاحترام.

أمّا الأخطاء اللغويّة، فليست من هذا القبيل: فلا يُحنى بالهامه وإنّما تُحنى الهامة. والأيادي جمع يد بمعنى الفضل، أمّا جمع يد بمعنى العضو المعروف فيكون على أيدٍ. وكأنّما في استعمال طاهرات، نقيّات، زكيّات، نفحة تركيّة. واستعمال يروينا تكراراً بدل يرينا خطأ لغويّ بارز.

ولا حاجة الى البرهان على تأثّر كتابات الموارنة، آنذاك، بالسريانيّة، فقد كانت السريانيّة لغة أساسيّة لديهم، وإن لم تبق الوحيدة. وأكثر كتاباتهم بالحرف الكرشوني. وكثيراً ما اختلطت العربيّة والسريانيّة خطًّا ونهجاً عندهم؛ فإنّ «ترويسة» رسالة البطريرك سركيس الرِّزّي (النموذج رقم ٣) هي بالكرشوني، وسائر الرسالة بالحرف العربيّ. والتوكّؤ على مزامير داود النبيّ ظاهر في النموذج الثاني: «كما يتوق الأيل الى ينبوع المياه. إلخ...».

وإذا انتقلنا مع النموذج الرابع الى مطلع القرن التاسع عشر، فلا نرى كبير اختلاف أو تطوّر في الأسلوب والنمط، فلا تشذيب للأسلوب، كاستعمال

أوّلاً وأوّلاً متتاليين للتقسيم. ولا اعتناء بصحّة اللغة كقوله «وقوي انسرينا من ذلك». ولا يصدمنا هذا الواقع إذا علمنا أنّ النهضة العربيّة الحقيقيّة تأخّرت الى ما بعد منتصف القرن الماضي. وكانت الكتابة العربيّة، فيما سُمّي عصر الانحطاط، تتقدّم ببطء واضطراب، وبقفزات غير رتيبة، بل قليلة متعثّرة.

٢ ـ الترجمة

من أهمّ أعمال الترجمة التي تعهّدها خرّيجو المدرسة المارونيّة ترجمة الكتاب المقدّس في عهديه القديم والجديد في باريس. وهي الترجمة المعروفة بالبوليغلوت Polyglotte[١]. عدا الترجمات المفيدة في مختلف العلوم والفنون.

ومن أشهر مترجميهم يوسف شمعون السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) الذي احتلّ وظيفة ترجمان في مكتبة الفاتيكان عام ١٧١٠.

وأكتفي هٰهنا بنصّين مترجَمين متوخّياً فيهما تنوّعاً بل تطوّراً في اللغة والأسلوب:

١٠٢ ـ ميزان الزمان، للأب نيرومبرغ اليسوعيّ، وعنوانه بالإيطاليّة:

La diferencia entre lo temporal y lo eterno

ترجمة يوسف بن جرجس الحلبيّ المارونيّ (حجم صغير)

«المقالة الأولى

في التمييز ما بين الزمني والابدي

الفصل الأول

في الزمني والأبدي

إنه ليجب علينا أولاً أن نتقدم بمعرفة مقدار الاشيا ليسهل علينا استعمالها... وإننا عايشون في الزمنيات بجهل مفرط فكيف إذاً يمكننا ان

(١) نقّذها جبرائيل الصهيوني ونصر الله شلق وإبراهيم الحاقلاني. (ناصر الجميّل في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٣٨).

نتطلع على الأمور الأخروية ونحن لا نقدر ان ندرك الأمور المتصرفين بها. إلخ . . .»

وكُتبت مقدمة الكتاب بأسلوب مسجّع وبغير توقيع :

«بسم الأب والابن والروح القدس الاله الواحد

الحمد لله الذي جعل الزمان ميدان الانسان. وصيّر العمر ميزان الزمان. إلخ . . .».

٢٠٢ ـ كتاب حوادث الاعتراف ـ تأليف الأب خريسطوفورس اليسوعي. ترجمه من التليانية الى العربية سنة ١٧٢٣ ابراهيم جلوان السمراني الايبودياكن الماروني ربيب المدارس الرومانية العظيمة. منسوخ ومعرّب بخط جبرائيل فرحات (المطران جرمانوس) في دير مار اليشع في الوادي المقدس في اليوم السادس من نيسان ١٧٢٤.

«بسم الأب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين

التقديم :

الحمد لله الذي أنار بصايرنا بوصاياه الالهية. وكشف لنا عن حقايق الطرق الملكوتية بالتوبة السرية. وطهر انفسنا باسرار كنيسته السرية. بما اقتنته من التحرز في نقاوة الذمة والنية. . . برية من كل قصاص استحقته بالعذابات الأبدية. وليس لها في ذلك مزية شرعية. لو لم تتمسك بشفاعة خير البرية ومعدن طهارة البكارة الكلية. أي مريم العذرا والدة الهنا مخلص الأمة البشرية. فلها نقدم سلاماً واكراما ومجدا بكرة وعشية».

المقدمة الأولى :

«إعلم ان هذا الكتاب الصغير الحجم قد طبع اولا في بلد اسبانيا. وقدم الى رُوَسا كهنة تلك البلاد. ولكن يلزم الان ان يقدم الى روسا كهنة العالم المسيحيين كلهم. والسبب في تاليف هذا المولف المختصر هو ما قالته القديسة ترازيا الكرملية في احدى رسايلها : فليوعظ ضد الاعترافات الغير المفعولة جيدا. لأنه من جملة الوسايط التي يستعملها الشيطان ليربح نفوسا كثيرة الى

جهنم هي الاعترافات النفافية. إلخ . . . ».

تبدو الترجمة الأولى كثيرة الالتزام بنهج التعبير الأجنبي، وغير مهتمّة بفصاحة اللغة العربيّة وأصولها. إلّا أنّها التزمت التجانس اللفظيّ في العنوان على طريقة أهل العصر، ففسّرت العنوان الإيطاليّ وهو بمعنى «الفارق بين الزمنيّ والأبديّ» بميزان الزمان. وتبنّت المصطلحات العربيّة القديمة في استعمالها لفظتي مقالة وفصل.

أمّا مقدمة الترجمة فمكتوبة بأسلوب عربيّ مسجّع يختلف كلّ الاختلاف عن الترجمة نفسها. وسبب ذلك، بنظرنا، ليس لأنّه أُنشىء أصلاً بالعربيّة، وإنّما لكونه لكاتب آخر، ربّما كان الناسخ المتأخّر زمناً عن المترجم. وكثيراً ما كان النسّاخ يقدّمون للكتب التي ينسخونها، كما نرى في النموذج الثاني الذي قدّم له جبرائيل فرحات.

ولم أتردّد في اختيار النموذج الثاني الذي تدخّل جبرائيل فرحات في تعريبه، لأنّ فرحات من مدرسة حلب الشهيرة المتدرّجة من مدرسة رومية. وأستاذ فرحات وغيره من المارونيّين الحلبيّين هو بطرس التولاوي خرّيج المدرسة المارونيّة الذي مكث مدة طويلة في المدينة (١٦٨٥ ـ ١٧٤٦)(١).

أسلوب النموذج الثاني متطوّر، ولا شكّ، والتقديم فيه لجبرائيل فرحات يسير على طريقة السجع التقليديّة، ويتأثّر في بعض نواحيه التعبير القرآني إذ يقول: «فلها نقدم سلاماً وإكراماً ومجداً بكرةً وعشيّة». وهو دليل على أثر القرآن في تطوير لغة المسيحيّين وإكسابها البلاغة والمتانة اللائقتين في التعبير.

أمّا ترجمة الكتاب، فتبدأ في المقدمة الأولى، ونرى فيها لغةً عربيّة سهلة الألفاظ، مخفّفة من كل ما يعوق اللفظ كالهمز والتضعيف. ونلمح فيها أسلوب المطران جرمانوس فرحات في استعمال بعض التعابير التي لفت إليها في مؤلّفه اللغويّ «بحث المطالب» كإدخال أل على غير في قوله «الغير المفعولة»، وهو

(١) نبيل الحاج: الخوري بطرس التولاوي وأثره في النهضة، في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٩١ ـ ٣١٨.

تعبير عربيّ صحيح. ودرج فرحات على تحبير مقدّمات كثيرٍ من كتب المدرسة المارونيّة، وتصحيحها، ونسخها. فهل يكون هو نفسه كاتب مقدّمة النموذج الأوّل المسجّعة؟

٣ ـ علم الكلام والمنطق

أقصد بعلم الكلام ما أجمع الفقهاء على تحديده بالدفاع عن الدين بالحجج المنطقيّة. وهو، بذلك، يشكّل مع علم المنطق موضوعاً واحداً.

لا غرو في أن كثرة لجوء الموارنه إلى هذا العلم، يعود إلى أنّ تاريخهم القديم حافل بالاتّهامات المغرضة التي جرّت عليهم اضطهاداً واسعاً متلاحقاً، تمكّنوا من صدّه بمعاونة رؤساء الكنيسة وموفديهم صليبيّين وقصاداً رسولّيين.

اخترت لعلم الكلام نموذجين، ونموذجاً واحداً لعلم المنطق:

١٠٣ ـ كتاب ردّ على الهراطقة (في جزأين. نسخ عن نسخة دير حراش عام ١٩٠٣). تأليف المطران جرجس بن يمين الايسوعي على يد فرنسيس صلعون ميخائيل الغزيري واسطفان عواد تلاميذ مدرسة الموارنة المباركة سنة ١٧٣٧.

«مقالة أولى

الفصل الأول

يتضمّن شرحاً ضد بدعة اوطيخا وتباعه يوضح بان في المسيح توجد طبيعتان كاملتان.

أولاً يجب علينا نعلم بما زعمه اوطيخا الذي هو رأس هذه البدعة. فزعم اذاً ان في المسيح بعد التجسد توجد طبيعة واحدة فقط. وسبب ذلك عناداً في نسطور الذي افترا قائلاً ان كان توجد طبيعتان في المسيح يكونا مسيحان ولا مسيح واحد. لذلك قال اوطيخا ان في المسيح طبيعة واحدة لا غير. واقنوم واحد. وظن ان من يقرّ في طبيعتان يجب عليه يقر في مسيحان هكذا زعم نسطور. إلخ . . .».

٣٠٢ ـ الدر المنظوم رداً على المسائل والأجوبة الممضاة باسم البطريرك مكسيموس مظلوم (تأليف البطريرك بولس مسعد، ١٨٥٤ ـ ١٨٩٠)

«المقدمة في السبب الداعي لهذا الرد

أما بعد فيقول جماعة المحامين عن الحق اننا عثرنا الان على كريريسة مؤرخة في ٢٥ أيار سنة الف وثمانماية واربع واربعين تحت امضاء غبطة السيد مكسيموس مظلوم بطريرك الملكيين الكاثوليكيين الكلي الطوبى. وهي محتوية على ثلاثة سؤالات مردفة باجوبة ثلاثة ونتيجة: مضمونها ان الطايفة والطقس اليونانيين هما الاول في المشرق بناءً على أن المسيح رتب شريعته باللغة اليونانية وانه كان ينذر بها ورسله كذلك وان الليتورجيّات المعبر عنها بنوافير القداس قد ترتبت بهذه اللغة اليونانية لأنها كانت عمومية عند جميع القبائل وانه من ثمه فجميع الطوايف الشرقية المسيحية الموجودة الآن هي منشقة عن الطايفة اليونانية وغير ذلك من التلفيقات كما يأتي بيانه. فعندما امعنا النظر في نوع هذه السؤالات واجوبتها فلم يكن يخال في فكرنا ان هذا السيد المغبوط يُظهر للوجود مثل هذه التلفيقات المشحونة تناقضاً واموراً لا اصل لها ولا اساس صوابيّ ولومهما كان له من الغايات لما هو مسموع عنه من التجمل بالعلم والخبرة ولكن من جهة نرى ان هذه الكريريسة ممضاة باسمه. ولذاكم السبب قد اضحينا بدون شك ويقين في انها تكون منتسبة اليه. إلخ...».

٣٠٣ ـ الايساغوجي اي مدخل المنطق للقس بطرس التولاني الماروني الكاروز في محروسة حلب ابرزه في ١٦ ايلول في سنة ١٦٨٨ مسيحية[1].

«فاتحة كتاب الايساغوجي والمنطق

الحمدلله الذي خلق الانسان وميزه من كافة انواع الحيوان بالنفس الناطقة العقلية الموهوبة له من نفخته الالهيّة. وحدّ له مناهج وسبل لاكتساب الفضايل الربانية. وعلمه دلايل مدلولات ترشده الى الملكوت السمويّه... بما أنه الكريم المنّان والرحيم الرحمن. وبعده فيقول الاب الفاضل والفيلسوف العالم

(١) المخطوطة تعود الى سنة ١٨٤٩، كما هو مذكور في آخرها.

العامل الأب الخوري بطرس بن بطرس التولاني ايكونومس الملّة المارونية بمدينة حلب والمصباح المشعشع في الأصقاع الشرقية الغير المحتجب . . .

بسم الله الخالق الحيّ الناطق إياه نحمد وبه نستعين .

في الايساغوجي أي مدخل المنطق .

إنه لما كانت سعادة الانسان من حيث هو ناطق موقوفة على معرفة الحق والخير . أمّا الحق لذاته . أمّا الخير فللعمل به . والرويّة الانسانية قد تعتريها الزيغ عن الصواب والميل الى الخطأ . فدعت الحاجة الى اعداد قانون صناعي يعصم الذهن من الغلط فيها . . . فنقول إن هذا القانون الصناعي هو المنطق والحاجة اليه تأدي الذهن لدرك المجهولات من المعقولات وترتيب صورها وموادها . . . » .

ترى في النموذج الأول التقسيم نفسه الذي درج عليه تلاميذ المدرسة إلى مقالات وفصول . وقد حرصتُ على انتقائه في الرد على أوطيخا[١] ، لأنّ مقارعة هذا المبتدع كان هاجس الكثيرين من الموارنة ، وقد واجه مذهبهم بعداوة شرسة .

وتصادف في هذا النص اضطراباً لغويًّا ومعنويًّا بحيث يصعب الجزم بحكم المؤلِّف على أوطيخا : أهو يوافق نِسطور[٢] أم يخالفه؟ ما معنى قوله «وسبب ذلك عناداً في نسطور»؟ أيعني معاندته لنسطور أي مخالفته أم يعني مجاراته؟ يُخيّل للقارىء أن المقصود مجاراة أُوطيخا لنسطور ، ولكن ، لا يلبث النَّصّ أن يشير إلى قول أوطيخا بأقنوم واحد في المسيح ، بينما المأثور عن نسطور اعتقاده بأقنومين فيه . فلغة هذا النصّ صورة لما يجرّه على المؤرّخ ضعف تعبيره وأخطاؤه اللغويّة .

---

(١) أوطيخا Eutychès (٣٨٨ - بعد ٤٥٤) : راهب يوناني عاش في القسطنطينية . قال بوحدة الطبيعة في المسيح (مونوفيزيّة) . حرّمه المجمع الخلقيدوني (٤٥١) . اضطهد الموارنة وافترى عليهم افتراءات جمّة .

(٢) نِسطور Nestorius (نحو ٣٨٠ - ٤٥١) : ولد في قيصريّة سورية . بطريرك القسطنطينيّة (٤٢٨) . قال بأقنومين في المسيح ، وأنكر على مريم لقب أم الله . حرّمه مجمع أفسس (٤٣١) .

النموذج الثاني، الذي كتب بعد الأول بأكثر من مئة عام، أرقى منه تعبيراً، وإن بقي فيه اضطراب في الأسلوب، واجترار، وحماسة، وبعدٌ عن الموضوعيّة في النقاش. وربّما تعدّت الموضوعيّة المفاهيم السائدة قبل منتصف القرن الماضي.

يتحدّث مطلع النصّ عن «جماعة المحامين عن الحق». ثم يعود المؤلّف فيلتفت الى نفسه ويقول: «فعندما أمعنا النظر»، والصحيح، لغوياً، أنعمنا النظر. وربما كان هذا المطلع جرياً على تقليد متّبَع في افتتاح المناظرات.

وبعد أن يذكر البطريرك مسعد خصمه باحترام في قوله: «غبطة السيد مكسيموس مظلوم بطريرك المِلكيّين الكاثوليكيّين الكلّي الطوبى»، يعود فيتّهمه «بالتلفيقات المشحونة تناقضاً وأموراً لا أصل لها ولا أساس صوابيّ». وكأنّه عندما ذكر ادعاءاته أخذته الحماسة، فخرج عن طوره، وتخطّى الاعتدال الذي بدأ به مقدّمته.

وتجدر الإشارة الى وقوع البطريرك مسعد في خطأ تعبيري كاد يعكس قصده حينما قال: «بدون شك ويقين»، بدل أن يقول: «بدون شك وعلى يقين».

وهكذا، نستنتج أنّ المناظرات الموضوعيّة، البعيدة عن الحماسة والطعن، لم يكن قد تأذّن عهدها بعد. أمّا اللغة فما زالت تبحث عن صفائها.

تبدأ فاتحة النموذج الثالث على الطريقة العربيّة المتّبعة في افتتاح الكتب بلغة لا تخلو من تشذيب وتنقيح، يسيطر عليها النفس الدينيّ المأخوذ من العهدين القديم (نفخته الآلهية) والجديد (السير على درب المسيح). وتستمدّ أحياناً روح الاسلام العربيّ (بما أنه الكريم المنان والرحيم الرحمن).

ويأتي وصف المؤلّف وتبجيله ليرجّح أنّ الفاتحة ليست من صنيعه. ويلفت فيها استعمال ايكونومس اليونانيّة بدل رئيس الكهنة، دالّة على شدّة تأثّر الموارنة بالبيئة الغربيّة التي انتقلوا اليها، ويظهر أثر الأفلاطونيّة في تعابير من أمثال «الغير المحتجب».

وقد تضمنت المقالة الأولى من الكتاب نمطاً تعبيريًا يذكّر بفاتحة القرآن (بسم الله الخالق الحي الناطق إياه نحمد وبه نستعين).

والتفصيل المنطقي في الكتاب واضح على الاجمال، يضطرب أحياناً من حيث اللغة. يستعمل الكاتب تارة الفاء في جواب أمّا، ويهملها تارة أخرى. ويستعمل الفاء في جواب لمّا بغير مسوّغ. ومع ذلك، تبقى اللغة على شيء من التطوّر، حريصةً على توازن الجمل (والرواية الانسانية قد يعتريها الزيغ عن الصواب والميل الى الخطأ)، إلاّ أنّها لا تخلو من الأخطاء الإملائيّة كقوله «تأدي الذهن لدرك المجهولات»، واضعاً الهمزة على الألف بدل الواو.

وعدا تقسيم كتاب الايساغوجي الى مقدمة وأبحاث وفصول، نشاهد فيه طريقة حديثة في التأليف كأن يثبت المؤلّف في أوّله «بيان الأحرف المختصرات في نفس هذا الكتاب» (ظه: ظاهرة - بط: باطل - مح: محال - إلخ . . .). والكتاب مرقّم من ١ الى ٢٦٦، يتقدّمه فهرس المحتويات، كما هي الحال في أيّامنا.

٤ - التربية والتعليم

التربية والتعليم من المهمّات الأساسيّة التي أُنشئت من أجلها مدرسة رومية. أرادها البطاركة والحبر الأعظم لتعزيز الإيمان في نفوس الموارنة، وبنائه على الحقائق الروحيّة، بعيداً عن الكهانة والخرافات. كما أرادوها ليجعلوا من الموارنة منائر علم ومعرفة، ينشرونها في الناس، ومعها الأخلاق، ومبادىء الإيمان القويم.

يعود التلاميذ إلى بلادهم، فيبنون المدارس، ويحافظون على الاتّصال الثقافيّ والدينيّ بين لبنان والغرب، ورومية بنوع خاص. فكان لهم دور الريادة والطليعة في هذا المجال. وأسهموا إسهاماً فعّالاً، ولا يزالون، في نشر الثقافة والعلم في مختلف أنحاء لبنان. وكثيراً ما أمّ مدارسهم تلاميذ من سائر الطوائف اللبنانية. وقد اصطفينا لهم نموذجين في هذه المادة:

١٠٤ - كتاب المعلم والتلميذ (خليط من الكتابتين الكرشونيّة والعربيّة)
تأليف المطران اسحاق الشدراوي الماروني (١٥٩٠ - ١٦٦٣)

بخط الخوري جبرايل خادم كفرحي في بلاد البترون، وهو من البترون ويدعى الخوري جبرايل ضو كتبه في شباط ١٨٢٦.

«كنت قلت لك يا معلم ان في القيامة الرجال يقومون رجال والنسا يقومون نسا قاصد الآن اعرف منك ان كان يروحون للسما رجال قدر مايروح نسا ام اكثر من النسا. . معلم اجيب واقول لك ايها التلميذ العزيز ان هذا الامر هو موضوع في سلطان وعلم الله تعالى وحده الذي الى يومنا هذا ما اجهره الى احد» (ص ٨٧).

وفي مكان آخر يخبر المعلِّمُ التلميذَ عن المدن التي زارها:

«ومنها لمدينة ريكاناتي ومنها لمدينة لوريتو وهناك هو بيت ستنا مريم العذرا. وفي هذه المدينة مكت (كذا) (أي مكثت) اربعة اشهر الشتى وذلك بسبب شدة الثلج والبرد الذي صار بتلك السنة. ولله الحمد خمسة امرار قدمت لهذه الموضع المباركت وحضيت في بركته وشفاعته. إلخ. . .» (ص ٩٢).

٢٠٤ ـ تفسير واسع على التعليم المسيحي الذي صنّفه الاب الكردينال بالرمينو (٣٣٥ صفحة صغيرة).

مفسّر ومطبوع بامر قدس سيدنا البابا اوربانوس الثامن والمجمع المقدّس الذي على نشو الأمانة وتوسيعها على يد خوره يوحنا الحصروني ترجمان ملك فرنسا المسيحي بلسان العربي والسرياني سنة ١٦٧١

«بسم الاب والابن وروح القدس الاله الواحد الازلي

نبتدي بايضاح تعليم قواعد ذين المسيح مهمّ لمنفعة اوليك الذين يعلّمون الاولاد وناس اخرين اميّة جهّال بنوع متكلمه بين تلميذ ومعلم مؤلّف لابينا المختار العالم الكردينال روبرطوس بللارمينو. مفسّر من لسان الافرنجي الى العربي لخوري يوحنا الحصروني الماروني بامر قدس سيدنا الطوباني بابا اوربانوس الثامن الجالس على كرسى العظمة كرسى مارى بطرس وبعناية السادات الكردينااليه المكرمين المتولين على مجمع توسيع وانتشار الايمان الحقيقي. . . (ص ٩).

الفصل الأول

أي شى هو العلم المسيحي وما هي اجزاه الخصوميه

تلميذ. فلاني اعلم انها واجبه معرفة العلم المسيحي للخلاص ارغب ان تشرح لي وتفسر ما هو هذا العلم.

معلم. العلم المسيحي هو موجز وكلام مختصر على كلّ شى علّمنا اياه السيّد المسيح حتى يرينا طريقة الخلاص.

تل. أجزاء هذا التعليم الأخصّ والاوجب كم هيّ.

مع. هي اربعة: قانون الايمان. والصلاة الربانية. والعشر وصايا. وسبعة اسرار البيعة.

تل. لاي سبب هي اربع لا زايده ولا ناقصه.

مع. لاجل ان ثلاث هي الفضايل الخاصيّة. اى الامانة والرجا والمحبة...».

النموذج الأوّل هو مجموعة آراء لاهوتيّة، وأخبار سياحيّة تقوم على حوار بين تلميذ ومعلّمه. وهو من تآليف القرن السابع عشر، خليط من الكتابتين الكرشونيّة والعربيّة. وهذا النمط من التأليف كان معروفاً في الغرب، وقد عرفه المشرق مع الفلاسفة المربِّين القدامى كالغزالي في رسالة «أيها الولد»، وابن طفيل في رسالته «حي بن يقظان»، وغيرهما.

تتّخذ لفظة معلِّم، هنا، معناها الأصيل. وفي نداء التلميذ «يا معلّم» شميم من مخاطبة الرسل للسيّد المسيح. وتأخذ، أحياناً، أسئلة التلميذ طابع المماحكة والتعجيز، ما يذكّر بفتاوى المسلمين الأوائل للمعضلات الناشئة عن مواقف طارئة مفاجئة. أمّا المعلّم، فيقف عاجزاً عن الجواب ويصرفه الى الله تعالى، كما كان يلجأ علماء العرب في مثل هذه الحال الى قولهم «والله أعلم». وهو موقف أقرب إلى العلم من التكهّن والإجابة العشوائية.

وفي أخبار المعلّم السياحيّة إنماء لثقافة التلميذ، وموعظة له بارتياد الأماكن المقدّسة والتبرّك بها.

وأسلوب هذا النموذج أقرب إلى العاميّة منه الى اللغة الفصيحة، ولكنّه مقبول ومحمود ممّن ينتقل إليه من السريانيّة. والفائدة فيه مخصوصة بالمعاني

الجديدة التي يفتقر اليها الساعون الى المعرفة والثقافة، والى الانتقال باللغة العربيّة من العناية باللغة والاساليب الإنشائيّة الى العناية بالموضوعات الجديدة وما ينقص الرائد منها.

النموذج الثاني مكتوب بالحرف العربيّ، ولا يتميّز بلغته وأسلوبه عن النموذج الأوّل، ما يجعلنا نستنتج أنّه كان الأسلوب اللغويّ المتّبع، آنذاك، في كتابة تلاميذ مدرسة رومية. وأسلوب مقدّمة الكتاب شبيه بأسلوب الفصول، ما يعزّز حجّتنا في تعيين الأسلوب الكتابيّ المعهود.

ونمط التأليف متشابه بين النموذجين، والأسئلة والأجوبة متتالية بين التلميذ ومعلّمه، تبتدىء من الأبسط الى الأعمق، ومن التعميم الى التفصيل. واذ كان هذا الكتاب من تأليف كردينال إيطاليّ، أمكننا القول إنّ تلاميذ مدرسة رومية أخذوا هذا النمط من التأليف عن معلّميهم الغربيّين، أكثر مما توكّأوا فيه على الكتب العربيّة القديمة.

٥ ـ القوانين والعقود

أفاد تلاميذ المدرسة المارونيّة إفادة كبيرة من أساتذتهم في تنظيم القوانين والعقود. وحملوا هذه الأساليب الى بلادهم، وهي طرائق جديدة فرضتها شؤون الحياة الحديثة بما فيها من اتّساع التعامل، وتشعّبه وتعقيده. فكان قانون مدرسة عين ورقة مثلاً نسخة عن قانون المدرسة المارونيّة الرومانيّة[١]. وما زلنا حتى اليوم نستوحي قوانيننا من الغرب، وخصوصاً من فرنسة. أليس ذلك من تأثير الموارنة الذين تميّزت كتاباتهم القانونيّة بالدقّة والوضوح والتفصيل والشمول؟

وأُثبت، من بعد، نموذجين، أحدهما في القانون والثاني في العقود:

١٠٥ ـ القوانين والرسوم الرهبانيّة، رومية ١٧٣٥، قطع وسط، عدد الصفحات ١٨٠ لاتينية و ٢٦١ عربيّة (مكتوبة بالحساب الأبجدي رس ا)، باللغة العربية (حرف كرشوني) مع ترجمة لاتينيّة (خط إبراهيم الحاقلاني).

(١) راجع مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٥٧ ـ ٦٦ و ٢٨٢ ـ ٢٨٧ للمقابلة بين القانونين.

«الباب الحادي عشر [صفحة ١٠٩ - ١١٠ (ق ط - ق ي)]
في الأب الروحي

أولاً: يلزم في كل دير تعيين أب روحي يتقيّد بوظيفته وهي استماع اعترافات الرهبان والاحتراص في نموّهم الروحي . . .

سادساً: وَلْيَهْتَمْ اهتماماً خصوصيًّا في تعزية المحزونين والمتضايقين ونصح الفاترين بتقديم الأدوية المناسبة لشفاء أوجاعهم وهي غالباً هذه: أن يواظبوا سِرَّي الاعتراف والقربان الأقدس. وأن يصرفوا زماناً أكثر من غيرهم في الصلاة. وأن يُقَونوا ذواتهم أكثر من الآخرين ويقرأوا بعض كتب روحيّة مختصّة بعلاج دائهم وما أشبه ذلك . . .».

٢٠٥ - عقد إنشاء مدرسة عين ورقة سنة ١٧٨٩:

«الداعي لتحريره هو أني انا الحقير في الروسا[١] المدون اسمي بخطى وختمى اعلاه سريانياً وبذيله عربياً قد خصصت وعينت واوقفت بشور أخي المطران بولص اسطفان وابن أخي الخوري إبراهيم اسطفان ورضاهما جميع ارزاق ديرنا المعروف بمار انطونيوس عين ورقه الثابتة والغير الثابتة وكل عماره واتاته وحقوقه واستحقاقاته وكافة ما يعرف به وينسب اليه من توت وكروم واراضى مزروعة وغير مزروعة وسايقه ومواشى الى خير الطايفة العام اعني لكى يقام فيه مدرسة أولاً لتربية الاولاد بخوف الله والعبادة وحفظ طقوس رتبتنا المارونية الانطاكية المقدسة منذ حداثة سنهم ثانياً ليرتشدوا بالعلوم المقدسة اولاً النحو السرياني والعربي ثانياً الفصاحة. إلخ . . .»[٢].

لم يكتفِ المشترع في النموذج الأوّل بكتابته باللغة العربيّة، بل، لمزيد من الدقّة، وضع الى جانبها ترجمة لاتينيّة. وهو أمر متّبع في كثير من القوانين والاتّفاقات العامة.

(١) البطريرك يوسف اسطفان (١٧٦٦ - ١٧٩٣).
(٢) مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٧٦ - ٢٧٩. وفي آخر العقد واحد وخمسون ختماً وتوقيعاً للبطريرك يوسف اسطفان والخوارنة والمشايخ وأصحاب الحقوق.

التقسيم واضح، واللغة سهلة قليلة الاضطراب والخطأ. وهو أمر طبيعي إذ إنّ النصوص القانونيّة، بحكم توجّهها واستعمالها، لا تقبل الزيغ والإبهام. ومع ذلك، يبقى الأسلوب بحاجة إلى كثير من العناية والتصويب. فابتداء النص «يلزم في كل دير تعيين» هو أسلوب ركيك. وأن المصدرية واجبة قبل فعل يتقيّد. والتعبير «الاحتراص في نموّهم» ضعيف. وحرف الجر «على» واجب بعد «يواظبوا». والأفصح تعريف كلمة كتب في قوله «بعض كتب روحيّة».

وفي النموذج الثاني حرص البطريرك يوسف اسطفان على تدوين اسمه باللغتين العربيّة والسريانيّة، ووضع ختمه في ترويسة العقد وفي نهايته زيادةً في الدقّة والترقّب. وأكّد تخصيصه أرزاق الدير لخير الطايفة العام بفعلين بمعناه (خصّصت وعيّنت وأوقفت) منعاً لكل مراجعة او التباس. وحرص على ذكر مشورة أخيه وابن أخيه لكي لا يترك لهما مجالاً للادّعاء بحقوقهما في يوم من الأيّام. وفصّل ما أوقفه للمدرسة تفصيلاً كاملاً بحيث لا يُبقي مجالاً لأيّ استثناء.

ولم يفته إثبات ما أُنشئت المدرسة من أجله بالتفصيل وكأنّه يضع لها قانوناً في نصّ العقد نفسه، لكي لا يحصل في المستقبل أيّ سوء استعمال، وأيّ استغلال منافٍ لعلّةِ إنشائها.

وفي آخر العقد واحد وخمسون ختماً وتوقيعاً للبطريرك والخوارنة والمشايخ وأصحاب الحقوق تقدّم هي الأخرى دليلاً قاطعاً على تطوّر النصوص القانونيّة وإحاطتها بكل القيود والتحفّظات التي فرضتها العلوم الغربيّة الحديثة، بعيداً عن المخاملات الطبيعيّة المرتجلة التي كان يكتفي بها الناس في تجمّعاتهم البسيطة الماضية.

٦ ـ التاريخ

قدّم جرجي زيدان للتاريخ والمؤرّخين في العصر العثماني بقوله: «أصاب التاريخ في هذا العصر ما أصاب سائر الآداب من الضعف والركاكة». وذكر من تلاميذ المدرسة المارونيّة يوسف شمعون السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) بمؤلّفيه «المكتبة الشرقيّة» التي طبعت برومية في أربعة مجلّدات

(١٧١٩ ـ ١٧٢٨). و «أصل الرهبان في لبنان» الذي طبع في المدينة نفسها سنة ١٨٤١[١].

لقد عدّ زيدان التاريخ في قوله السالف من الموضوعات الأدبيّة وهو لكذلك عندما يذكر فيه أمثال طاش كبري زاده (١٤٩٥ ـ ١٥٦١) صاحب «الشقائق النعمانيّة في علماء الدولة العثمانيّة» و «مفتاح السعادة ومصباح السيادة»؛ وحاجي خليفة (١٦٠٨ ـ ١٦٥٧) صاحب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»[٢].

وكان التاريخ من الموضوعات الموفورة الحظّ الكثيرة الانتاج، تندرج تحته شعب ثلاث: سرد الأحداث، وتاريخ المدن، وسير الرجال[٣]. ولكنّ قيام المدرسة المارونيّة في رومية، وهي من الغرب في الصميم، كياناً وحضارةً، مهّد لتلاميذها الإفادة من المناهج الغربيّة القائمة على الموضوعيّة، والتبحّر، والربط، والتحليل، والاستنتاج، وإن بقي لمؤرّخيهم صلة دائمة بمهدهم المشرقيّ[٤].

وقد اخترت نموذجين، أحدهما لمؤرّخ هاو، إذا صحّ التعبير، هو إبراهيم الحاقلاني (١٦٠٥ ـ ١٦٦٤)، والثاني لمؤرّخ محترف هو البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٣٠ ـ ١٧٠٤).

١٠٦ ـ نص إبراهيم الحاقلاني[٥]

«في سنة الف ستمايه وعشرين يومين بعد عيد الغطاس وصلنا الى مدينة روميه نحن الحقيرين مع الأب النقي الشريف الخوري ابراهيم من قرية

(١) تاريخ آداب اللغة العربية، ٣٠٦/٢ و ٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٢) المرجع نفسه، ٣٣١/٢ ـ ٣٣٣.
(٣) أسامة عانوتي، **الحركة الأدبية في بلاد الشام**، ص ١٩٧.
(٤) راجع دراسة للدكتور الياس القطّار بعنوان: **أثر الغرب في منهجيّة وفكر الدويهي على صعيد كتابة التاريخ**، في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ١٢٧ ـ ١٣٨.
(٥) النص بحوزة الأب ناصر الجميّل مترجم الى الفرنسيّة في كتابه *Les Echanges Culturels entre les maronites et l'Europe*, pp. 62 - 63.

عينتورين ومع جوان بطشتا الافرانجي وكنا ستة اي يعقوب السرعلاني وهدا بعد ستة سنين صار ايسوعي وبعد شهر خرج وبعد علاج كثير رجع للمدرسة ووقف حول ستة اشهر ورجع للبلاد وصار له محن في البندقية . . . وسنة الف وستمايه وخمسه وتلاتين راس السنه والشهر المطران ايسمعان الشدراوي وجاب معه اولاده اتنينهو ودخلوا الى المدرسه الى الى مدرسه الموارنه في مدينه روميه المعظمة . الخ . . . ».

٢٠٦ ـ نص البطريرك اسطفان الدويهي[1]

«انشاء مدرسة حوقا والبطريرك يوحنا مخلوف. تهنئة البابا اوربانوس وجوابه للسيد البطريرك. الاسقف حنا الحصروني:

وفيها (أي السنة المذكورة) اقام البطريرك يحنا مدرسة لعلم الاولاد في دير سيدة حوقا ليتأدبوا بها الاولاد الذين يدخلون الى مدرسة رومية والذين يعاودون منها. وعندما تسلّم تدبير الكرسي الروماني البابا اوروبانوس الثامن، ارسل له البطرك مكاتيب التهنئة مع القس حنا ابن قورياقوس الحصروني المعروف من بيت سندوق (صندوق) الذي مع القس جبرايل ابن صهيون الهدناني ضبط ترجمانية اللغات الشرقية عند حضرة سلطان فرنسا. فترحّب به قدس البابا وبعث معه للبطرك يحنا تاجاً جميل وكتباً وعداد لأجل خدمة الاسرار المقدسة ورسالة يمدح بها ديانة الملة المارونية، ويتشكر بها من غيرة البطرك في بنيان المدرسة في دور حوقا لأجل تعليم الاولاد، وعيّن لها علوفة سنوية».

النصّ الأوّل إخبار بأمور شخصيّة سجّل فيه إبراهيم الحاقلاني خبر ذهابه وخمسة رفقاء له الى رومية، ومصير كل منهم.

لغة الحاقلاني عربيّة، وإن خرجت عنها متأثّرة بالعاميّة اللبنانيّة. إنّها لغة الحديث مطوّعة للقلم بكل بساطة، بعيداً عن هاجس التنميق والتزويق. إنّها لغة مسيحيّ مارونيّ سريانيّ غير متدرّب بلغة القرآن نموذج المسلم الأرقى، خصوصاً في تلك الأيّام.

(١) تاريخ الأزمنة، ص ٤٩٢.

والمخطوطة التي أخذت عنها هذا المقطع تتضمّن حواشي سريانيّة أو كرشونيّة قويمة على الورقة الأولى ومقلوبة على الثانية، وليس فيها محو، أو شطب، او تصحيح في الكتابة، ما يدلّ على كتابة فوريّة بيد جامدة، او إنها كتابة منقولة بغير رويّة او تشذيب. فإنّ الى، مثلاً، تتتابع مرّتين في قوله «الى الى مدرسه الموارنه».

ليس في مخطوطة الحاقلاني من التاريخ سوى السرد الخبري، والتفصيل، والدقّة في تعيين التواريخ. وهي تفيدنا، اليوم، في معرفة بعض شؤون تلاميذ المدرسة المارونيّة، وما قاسوه في ذهابهم، وإيابهم، ومكوثهم في البلاد الغربية، كما تفيدنا، بلا شك، في معرفة بعض أساليب الكتابة آنذاك، ما يؤيّد حكم جرجي زيدان عليها بالضعف والركاكة، وذلك نسبةً إلى القواعد العربيّة الثابتة. ونحن نرى فيها فائدة بالكتابة والتدوين في زمانٍ كانت الأميّة متفشّية، عندنا، بين أكثر الناس.

ولا يختلف نصّ البطريرك إسطفان الدويهي اختلافاً كبيراً من الناحية اللغويّة عن نصّ الحاقلاني. إلاّ أنّنا، ههنا، إزاء مؤرّخ محترف، يؤرّخ حدثاً مهمًّا في تاريخ التربية اللبنانية. إنّه حدث مختار، معروف الفائدة. ولا ننتظرنّ من الدويهي تدرّجاً يصل الى التأريخ الحديث بكل عدّته، ومناهجه، ومفاهيمه. إنّه ما زال من الكتّاب الانسانيّين الذين لم يبلغ التاريخ عندهم مرتبة العلم الخالص. إنّه يتوقّف بمهابة واحترام امام «تهنئة البابا اوربانوس وجوابه للسيد البطريرك».

إنّ علاقة البابا بالموارنة وبطريركهم على الأخصّ كانت موضع اهتمام، وربّما شغف، من قبل رؤساء الموارنة وكتّابهم منذ عهد قديم كانت المراسلات والاتصالات فيه لشكوى اضطهاد، او ردّ تهمة، أو دليلاً على أنّ المارونيّة مذهب كاثوليكيّ لا يرقى اليه الشكّ. فهديّة البابا ترتدي طابعاً خاصاً عند رأس الطائفة المارونيّة.

ونصّ اسطفان الدويهي مكثّف بالأخبار المهمّة: فضلاً عن إنشاء مدرسة حَوقا (١٦٢٤) وهدفها، نعرف منه أنّ جبرائيل الصهيوني الاهدني كان ترجمان

اللغات الشرقيّة لدى ملك فرنسة، وأنّ البابا أثنى على المذهب الماروني، وأعان مدرسة حَوقا إعانةً ماديّة.

ومع وضوح الدويهي وبساطة تعبيره، نجد عنده، أحياناً، تعقيداً في التعبير، إذ يستعمل جملاً كقوله: «وعندما تسلم... حتّى سلطان فرنسا».

ولا نحاسب الكاتب حساباً عسيراً على أخطاء اللغة، وقد صرف اهتمامه الى المعنى، وكتب كتابه، أصلاً، بالحرف الكرشوني. ولا شكّ في أنّ الكتابة السريانيّة، وما تعلّمه تلاميذ المدرسة المارونيّة من اللغات الأجنبيّة، أثّر في لسانهم العربيّ، ومنعهم من التفرّد بالعربيّة، والاقتصار عليها، وممارستها قراءةً وكتابةً وأصولاً. وما فتىء المجتمع المارونيّ، يومذاك، يرى في اللغة العربيّة الفصيحة لغة غريبة على لسانه، بعيدة عن سليقته، وعن دينه، وعن مصطلحات بيئته القرويّة وأعرافها.

ومع ذلك، فالانطلاقة المارونيّة العفويّة في التعبير أسهمت إسهاماً فعّالاً في تخفيف اللغة العربيّة من أثقالها البيانيّة البديعيّة، ووجّهتها نحو الأصالة الذاتيّة والحريّة المطلقة المستمدّة من طبيعة الجبل اللبنانيّ، وبساطة عيشه.

٧ ـ الشعر

لم يغزر الشعر العربيّ على ألسنة تلاميذ المدرسة المارونيّة كما غزر النثر، لأنّ الشعر ينطلق من الوجدان بغير تكلّف وافتعال، بل هو يفور فوراناً حاملاً معه تصاريف المعاناة. ووجدان الموارنة في بدء نهضتهم كان وجداناً سريانياً متّصلاً بلغتهم الأم اي اللغة اللبنانيّة اليوميّة التي انطلقت من السريانيّة الى خليط عربيّ سريانيّ، الى عربيّة متأثّرة بالسريانيّة.

لم يرجعوا بشعرهم الى الخليل بن أحمد، كما لم يرجعوا بلغتهم الى سيبويه. كان في ضميرهم مار أفرام السريانيّ، وإن تعدّوه في الزمان الماضي، فإلى مزامير داود ورؤيا يوحنّا، وإن تجاوزوه في الزمان الآلي، فالى تراتيلهم وأناشيدهم الكنسيّة التي نظمها رؤساؤهم الروحيّون. الموارنة شعراء في صلواتهم. صلواتهم شعبيّة قريبة من نفوسهم. يخاطبون المسيح والعذراء والقدّيسين بلغة قريبة الى لغتهم اليوميّة، لا تكلّف فيها ولا تصنع. ينتشون

ويرتفعون الى مجالات عُلى، ينسون خلالها حقيقة أوضاعهم وجهادهم في سبيل العيش الكريم، وما يقاسون من اضطهاد وملاحقة.

هذا بالمطلق. ماذا تعطينا النصوص؟

١٠٧ - منظومة ألقاها الشبّان الموارنة بين يدي البابا غريغوريوس الثالث عشر عام ١٥٨٣[١].

عَلَي اسْمِ ٱللَّهِ قَدْ جِيْنَا. تَانَسجدُ قدَّامُ أَبِيْنَا. حَتَّى إِنَّهُ يُغَذِّيْنَا. بِعِلُومَاتٍ رُوْحَانيَّه. نَسْجدُ لِاجْلِ بَطْركنَا. وَعَوَض أَخوهُ ٱلحَبِيسُ حَركَتْنَا. لإنّهم هُمَا فَرْجِتْنَا. وَقَبلُوا ٱلقِصَاد فِي غَيَّه. نَسْجدُ عَوَض كُلَّ ٱلمطَارِيْنَ. لإنَهم شَبِيهُ العطَّارِيْنَ. يدَاوًا ٱلقلُوْبُ مَعَ ٱلمِصَارِيْنَ. وَكُلّيوم يَحْمَوا عَلَي ٱلرَعِيَّه. وَنَسْجدُ عَوَض رَعِيَّتْنَا. لإنّكَ رَدَيْتَ سَبْيِتْنَا. نَرِيدُكَ تَاوِيْ غرْبِتْنَا. وَلَا تخلِّينَا بِقَهْرِيَّه. وَهُم ٱليومِ بَعْثُونَا إِلَيْكَ. حَتَّى نَسْجدُ بَيْنَ رِجْلَيْكَ. وَنَحْكِي نَحنُ مِنَّا ٱلَيْكَ. وَنَحْفِظُ عِلُومٍ إِفْرَنجيَّه. لإنَّكَ انتَ نَايُب ٱلمَسِيْحِ. ٱلعَالِيْ فِي ٱلتَسْبِيحِ. وَانْظَرت ٱلَيْنَا فِي ٱلتَصْحِيْحِ. وَرَدَّيْتنَا مِن ٱلغِشُومِيَّه. كَمَا نَظَر ٱللَّه ٱلَيْنَا. وَتحنّن قَلبكَ عَلَيْنَا. فَأَرْسَلْت قِصَادُكَ ٱلَيْنَا. فَأَصْلَحُوا كِتْبُنَا ٱلبيعيَّه. وَحَرَقُوا مِن ٱلكُتْب كَثِيرِ. وَمِنّا مُخَالِفَةً مَا عَادَ يَصِيرُ. ٱللَّهُ صَاحبَ ٱلتَدْبِيْرُ. لقِيْنَا إِعْتِقَادَاتٍ صَحِيحَه. فَطَايُفَتْنَا نَحنُ ٱلحَقِيْرَه. تَطْلِبُ مِنَّك ٱلجِيْرَه. فَلَا تخلّيهَا فِي جِيْرَه. لِكنْ فِي سِيْرَةٍ جَمِيلَه. أعمِلُ مَعَنَا مِثْل يَعقُوبُ. عَنْ أَوْلَادِ يُوسِفْ مَكتُوبُ. بَرَكَه أَعْطَاهُم وَهُوَ مَكرُوبُ. صَلَّبَ يَدّهُ كَمَا هِيَّه.

٢٠٧ - منظومة في مقدّمة كتاب اللغة العربيّة لبطرس مِطوشي[٢]. طبع في رومية عام ١٦٢٤

«هذا كتاب لمن فهم — جوهر وياقوة ردم
زمرد بافخر الكرم — لمن اكتسى به لم يعدم
فيه الفوايد بالنظم — في العلوم وما قدم

(١) Nasser Gemayel, *Les Echanges culturels*, p. 94.

(٢) ولد بطرس مِطوشي عام ١٥٦٩ في مِطوش، وهي قرية في جزيرة قبرص. دخل في جمعيّة الآباء اليسوعيّين، وعُيّن أستاذاً للغة العربيّة في المدرسة المارونيّة. تُوفّي عام ١٦٢٠.
(Pierre Raphaël, *Le Rôle du Collège maronite romain dans l'orientalisme*, p. 99 - 100).

لاصحاب العلم بالقلم   لما ان العالي رسم
هذا بحبه لك عزم   فكمثل مار بهواه لزم
اجني فوايد من علم   ومن كنز العلم اغتنم
بهذا الاله لنا رحم   في كسب الخير لنا رغم
نحمده لما قسم   بظهن البشر وايضاً وسم»

٣٠٧ ـ زجليّة للقس الياس الغزيري في مدح تلاميذ روميه عام ١٦٦٩[١].

«مديحة تلاميذ روميه
١ ـ على اسم الآب الأبويّهْ   وفي كلمته الأزليّهْ   وروح قُدُسِهِ في السويّهْ
أرتّب ابيات افراميّهْ[٢]
٢ ـ أنْبَا وابَيِّن بالاخبارْ   في جملة الإخوة الاطهارْ   المجتمعين من كلّ الاقطارْ
بمدرسة المارونيَّهْ
٣ ـ نبدي من الحبيس سركيس[٣]   مطران طاهر وكان قدّيسْ   رزّي أصلُه على التأسيسْ
تابع أمانة روميّهْ
٤ ـ حافظ وساعي بالقوانين   رتبة واعتقاد المؤمنين   ومن أخيه لسنا مفترقينْ
عن طوائف الشرقيّهْ
٥ ـ عَمُّه كان بطرك مخايلْ   والآخر سركيس طايلْ   كانوا بطاركه بالقبايلْ
اثنينهم كانوا أخويّهْ. . .».

(١) نسب الأب ناصر الجميِّل هذه الزجليّة إلى الياس بن يوحنّا مبارك من بَطْحا الذي عاد إلى البلاد عام ١٦٧٢ (مجلّة المنارة، ١٩٨٤، ص ٩٩).

(٢) الأبيات الأفراميّة تتألّف من أربعة شطور؛ ثلاثة منها على رويّ واحد، والرابع على رويّ يعود في ختام كل الأبيات.

(٣) سركيس الرِّزّي من باقوفا. كان من أوّل تلاميذ رومية وابن أخي البطريركين ميخائيل وسركيس الرِزّي وأخا البطريرك يوسف الرزّي. توفّي في رومية عام ١٦٣٨.

والبيت الأخير ورقمه ٦٢ :

٦٢ ـ «سايلاً عبدكم المكتوبْ[١] اقرأوا اسمه بالمقلوب والعذرا طاهره من العيوبْ
تحرسكم من البليّهْ»

تتلاقى القصائد الثلاث بأوزانها السريانيّه. فالأولى على نغم «مُرَنْ اتْراحامْ علينْ» السباعيّ المقاطع؛ والاثنتان الأخريان على الوزن الأفراميّ أو القرّاديّ، ومَثَلُه لحن «يا صالحاً أبدى للوجود»[٢].

لا نرى في النموذج الأوّل اتّباعاً لابن القلاعي (١٤٤٧ ـ ١٥١٦) الذي كان له الأثر الأكبر فيمن تلاه من شعراء الموارنة. وإنّما هو تأثّر سريانيّ عام. وكثير من الحركات المثبتة على الكلمات لا توافق النغم. مثلاً: «تا نَسْجِدُ قدَّامُ أبيْنَا». والصحيح وضع سكون على الميم في قدّام بدل الضمة. إلخ... ونحن نرى أن اللفظ الشفويّ لهذه القصيدة كان مختلفاً عن طريقة تدوينها وتشكيلها. ولكن، إذ لم يكن من الكتابة العربيّة بدٌّ، فقد أراد الكاتب أو الناسخ أن يكتبها ويشكّلها تشكيلاً كاملاً على الطريقة العربيّة التي قرأها، وسمعها، ولم يتملّك قواعدها الصحيحة.

والتسكين متسلّط على اللغة السريانيّة كما أنّ الإعراب مهيمن على العربيّة، ما يخلق فرقاً ظاهراً بين اللفظ والكتابة، خصوصاً عند من لا يمتلك العربيّة امتلاكاً كافياً.

والمنظومة الأولى شبيهة بالرباعيّات أو المربّعات التي كثرت في عهدَي المماليك والعثمانيّين، وبقيت في النهضة. فإنّ فيها قافية موحّدة تعود كلّ أربعة مقاطع، وتتقولب لأجلها الكلمات.

وانسياق الشعر جارٍ مع سهولة المقابلة والسجع. والكلمات تطوّع لأجل الشعر كلّما دعت الحاجة. مثلاً: «لا تخلّينا بقهريّه» لمناسبة لفظة «الرعيّة».

(١) سايلا هو مقلوب الياس مؤلّف الزجليّة.
(٢) راجع بطرس الجميّل: زجليّات جبرائيل إبن القلاعي، ص ٥٨ ـ ٦٦.

ولولا ذلك لقال مثلاً: «لا تخلّينا مقهورين».

والمعاني مشربة بالبساطة الرهبانيّة، وبالمقاصد الروحيّة، والمسكنة، والتفاؤل أمام نائب المسيح على الأرض. وفيها الخضوع للرؤساء كما يجب على المسيحيّ الذي يقتفي خطى المسيح.

ويبيّن هذا النموذج حياة القهر التي كان يحياها الموارنة في بلادهم. ويسفر، في الوقت نفسه، عن هدف تقدّمي حضاريّ بارز يرمي اليه التلاميذ في مجيئهم الى المدرسة المارونيّة، وهو الاطّلاع على العلوم الأوروبيّة التي كان يفتقر إليها المشرق العربيّ افتقاراً شديداً.

وكل ذلك لا يحجب اللغة العربيّة التي صيغ بها النص، وأضفت عليه وجهاً جديداً.

النموذج الثاني يذكّرنا بمنظومات العرب القديمة في التاريخ والقواعد والتربية والأخلاق وغيرها، مثلما نظم أَبان بن عبد الحميد اللاحقي (ت ٨١٥ م.) «كليلة ودمنة» شعراً في ١٤٠٠٠ بيت ابتدأها بقوله:

هـذا كتـابُ كَـذِبٍ ومِحْـنَـةْ وَهْـوَ الـذي يُـدْعَى كَلِيلَة دِمْنَةْ
فـيـهِ دلالاتٌ وفـيـهِ رُشْـدُ وَهْـوَ كِتـابٌ وَضَعَتْـهُ الهِنْـدُ...

إلّا أنّه في منظومة مِطوشي على حرف واحد، وعلى وزن سريانيّ لا عربيّ، فضلاً عن اضطراب التركيب، وهفوات الإملاء. وهو يعتمد على الفكرة والمعنى من دون العاطفة والخيال، مبتغياً ترغيب الناس في قراءة الكتاب الذي يحتوي على قواعد اللغة العربيّة، الى جانب نصوص وكتابات عبرانيّة وسريانيّة، وأمثال تطبيقيّة مفسّرة باللاتينيّة، ومأخوذة من مزامير داود، وعليها الشكل التام.

ولعلّ النموذج الثالث أهمّ ما وصلنا من شعر تلاميذ المدرسة المارونيّة، وهو مأخوذ من كتاب في ٦٤ صفحة، كتبه عام ١٦٦٩ بالكرشوني الياس الغزيري (أو الياس بن يوحنا مبارك)، وضمّنه بعض قصائد المطران جبرائيل إبن القلاعي. يليها ثلاث زجليّات لناسخ الكتاب القسّ الياس الغزيري (أو

مبارك): الأولى في وصف رومية العظمى، والثانية في مدح تلاميذ المدرسة المارونيّة القديمة التي كانت تحت تدبير الآباء اليسوعيّين من ١٥٨٤ الى ١٧٧٣؛ والثالثة في رثاء البطريرك يوحنّا الصفراوي من بيت البوّاب الذي خلف البطريرك يوسف حليب سنة ١٦٤٨، ودبّر الكرسيّ الأنطاكيّ الى سنة وفاته في ٢٣ كانون الأول ١٦٥٦.

إنّ تأثير المطران جبرائيل إبن القلاعي في صاحب المديحة لا شكّ فيه، وكما كان عنوان منظومة إبن القلاعي «مديحة على جبل لبنان» كان عنوان منظومة الغزيري «مديحة تلاميذ رومية». والمديحتان على وزن الأفراميّات السريانيّة، وهما ترويان أخبار التاريخ بشكل موقّع منغّم، وتستلهمان في نظمهما روح الجبل المقدّس.

وكما ابتدأ إبن القلاعي مديحته «باسم الله الرحمان»، استهلّها الغزيري «على اسم الآب الأبويّه». ومهما يكن أسلوب مديحته مترجرجاً، فإنّه يتبنّى اللغة العربيّة ويضعها على طريق التطوّر، ويسهّل انتشارها في ملّته، وفي بني وطنه. والشعر، بسهولته ونغمه المحبّب المألوف، أوقع في القلوب. وألصق بالأذهان. ومع الشعر، يعمّ الجوّ الأدبيّ، ويتطوّر الأسلوب، وتتبلور اللغة. أما لفظة «زجليّة» التي وُسمت بها منظومة الغزيري، فتعود الى سهولتها، وتوقيعها، ونغمها، ولإعدادها للتلحين والإنشاد. وهي أقرب الى اللغة الفصيحة منها الى الشعر الزجليّ الذي يستغرب كل لفظة فصيحة. وقولنا هذا لا يفكّ ارتباط الزجل اللبنانيّ الحديث بتلك الجذور البعيدة. فربّما كان الانفصال بين العاميّ والفصيح في الزجل تطوّراً ومزيداً من الاستقلاليّة، والاختصاص، والتمييز بين فرعين مهمّين من فروع الآداب.

خاتمة

بعد بحثنا المطوّل، يحسن بنا أن نوجز في نقاط بارزة أهمّ الفوائد التي قدّمها تلاميذ المدرسة المارونيّة الى اللغة والآداب العربيّة، مبيّنين فضلهم على النهضة العربيّة الحديثة.

أولاً: كان الكثير من الرسائل والتآليف يُوجَّه الى مستشرقين من غير أبناء اللغة العربيّة، ومن خلالها كان هؤلاء يتعلّمون اللغة العربيّة، ويطّلعون على أساليبها، وعلى أنماطٍ منوّعةٍ من آدابها.

ثانياً: إذا حكمنا على الرسائل بمقاييس زمانها، كما ينبغي للنقد الحقيقيّ، رأيناها تتميّز باهتمام خاصّ باللغة العربيّة التي حرص التلاميذ أنفسهم على أن يزيدوا التعرّف بقواعدها وأساليبها الصحيحة. والدليل على ذلك كثرة تصانيفهم اللغويّة.

ثالثاً: إذا علمنا بتفشّي الأميّة، آنذاك، في العالم العربيّ كلّه، قلّ تزمّتنا في الحكم على لغة تلاميذ المدرسة وأساليبهم.

رابعاً: كان تلاميذ المدرسة المارونيّة مهيَّئين الى مثل هذا الدور اللغويّ والأدبيّ بسبب تهيُّئتهم أساساً ليكونوا رجال دين. وكانت مدارس النهضة الأدبيّة العربيّة عِيالاً على رجال الدين من كل الطوائف، بل إنّ عملهم الدينيّ والكنسيّ شكّل مصدراً من مصادر إغناء اللغة العربيّة وآدابها. قال الدكتور أنطون غطّاس كرم: «إنّ طرازاً أدبيًّا طفِق يتولّد في حيّز النتاج الكنسيّ. ولعلّ مدينة حلب، في عهد جرمانوس فرحات (١٦٧٠ - ١٧٣٢) وبعيده، تمثّل تمثيلاً نموذجيًّا بواكير الثمرات الأدبيّة التي تكوّنت في هذي المراكز الكنسيّة. فيستوقفنا، في رأس ما يستوقفنا من هذا الطراز الأدبيّ، أنّ نفحة دينيّة قد تخلّلته، أتته من الكتاب المقدّس ومن طبيعة الطقوس الكنسيّة والمارونيّة في لبنان على الأخص»[١].

خامساً: إنّ اطلاع التلاميذ على الآداب الأجنبيّة، وعلى الكتب الدينيّة والانسانيّة أغنى موضوعاتهم، وغزّر ثقافتهم، وهو أكثر مايحتاج إليه عصرهم القابع في أغلال التقليد والاجترار بشكل عام.

(١) ملامح الأدب العربي الحديث، ص ١٨.

سادساً: أجبرتهم كتابة الرسائل على التعبير عن شؤون ذاتيّة، وموضوعات حديثة، وعلى تبنّي مصطلحات افتقدتها المجتمعات العربيّة السالفة.

سابعاً: إنّ التزام تلاميذ المدرسة المارونيّة باللغة العربيّة يكاد يضاهي التزامهم باللغة السريانيّة، وقد أصبحت اللغة العربيّة لغةً أساسيّة لديهم، إلاّ ما كان من استعمالهم الحرف الكرشوني.

ثامناً: كثرت ترجمات التلاميذ للكتب اللغويّة والعلميّة والأدبيّة والدينيّة، فأفاد منها الشرق والغرب، ونقلوا القوانين من اللاتينيّة والايطاليّة الى العربيّة والسريانيّة.

تاسعاً: أسهم العالم المارونيّ جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ - ١٦٤٨) مع العالم الفرنسيّ سافاري دي براف Savary de Brèves (١٦٠٨ - ١٦٦٠) في إدخال الحروف الشرقيّة إلى أوروبة صبًّا وطباعةً[1]، فضلاً عن قاموس الصهيوني العربيّ اللاتينيّ، وكتاب الغراماطيق العربيّ باللاتينيّة وبمشاركة يوحنّا الحصروني (ت ١٦٢٦).

عاشراً: كان لميخائيل الغزيري (١٧١٠ - ١٧٩١) في إسبانية، التي انتقل اليها عام ١٧٤٨، الفضل الأكبر في تعليم اللغة العربيّة وقواعدها. وقد ضبط المخطوطات العربية في مكتبة الإسكوريال، وألّف كتاب «مكتبة الإسكوريال العربيّة - الإسبانيّة» المطبوع في مجلّدين. وهو يُعد واضع أسس الثقافة العربيّة في إسبانية[2].

حادي عشر: أسهم تلاميذ المدرسة إسهاماً فعّالاً في إدخال الأساليب الدقيقة لكتابة القوانين والعقود الى المجتمع اللبنانيّ، والمجتمع العربيّ عموماً.

(١) مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ١١٥ - ١١٦.

(٢) ناصر الجميّل في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

ثاني عشر: طوّروا الكتابة التاريخيّة ومنهجيّتها، وحرصوا على تشذيبها وتنقيتها من الأساليب البيانيّة الخياليّة، نازلين معها الى واقع الأحداث.

ثالث عشر: أطلقوا الشعر معبّراً عن وجدانهم الخاص، ومخفّفاً اللغة العربيّة من أثقال الزخرفة والتنميق، ومطوّراً لها ولأساليبها التعبيريّة.

رابعاً: جبل عامل

ألف ـ حدوده

نهر الأوّلي شمالاً. ونهر القرن الجاري شمالي قرية طَيْرشِيْحا جَنوباً. والبحر غرباً. ومن الشرق الحولة ووادي التَّيْم والبقاع[1].

باء ـ نهضته

لم تنقطع الحركة الأدبيّة والفكريّة في جبل عامل منذ عهد عبد المحسن الصوريّ الذي عاش مخضرماً بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديَّين (٩٥٠ ـ ١٠٢٨). ومنذ أواخر القرن الرابع عشر راحت المدارس تنتشر في جزّين (١٣٧٠) التي عرفت نهضة فكريّة وعلميّة ودينيّة قبل هذا التاريخ، إذ قال الشاعر العامليّ ابن الحُسام في القرن الثالث عشر:

عَــرِّج بجــزّينَ يــا مُسْتَبْعِــدَ النَّجَفِ   فَفَضْلُ مَنْ حَلَّها يا صاحِ غَيْرُ خَفِي[2]

وقد أسّس مدرسة جزّين الشهيد الأوّل محمّد بن مكّي الجزّيني (١٣٣٤ ـ ١٣٨٤). كما انتشرت المدارس في مَيْس الجبل التي بلغ عدد تلاميذها الأربعمئة، وشَقْراء، والكَوثريّة، وجَبَع، وحَنَوَيْه، وبنت جبيل، وغيرها.

---

(١) محمّد كاظم مكّي: الحركة الفكريّة والأدبيّة في جبل عامل، ص ١١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٩.

كيف كانت مناهج التعليم في هذه المدارس؟

جاء في كتاب «الحركة الفكريّة» والأدبيّة في جبل عامل»[1]: «بعد حفظ القرآن وتعلُّم الكتابة، ينتقل الطالب لدراسة النحو، فيحفظ متن الآجرُّميّة غيباً، ثم ينتقل إلى كتاب «قَطْر النَّدى» لابن هشام الأنصاري، وهو كتاب في النحو أرقى من الآجرّوميّة. ثم ينتقل إلى ألفيّة ابن مالك وغيرها من الكتب المتعلّقة بالنحو والصرف والإعراب. وهذه المرحلة مخصَّصة لدراسة اللغة ونحوها. ثم يُوجَّه إلى دراسة البيان والبلاغة والبديع، فيقرأ «المطوَّل في المعاني والبيان»[2]. ويقرأ معه حاشية اليَزدي[3]. ثم «الشمسيّة» في علم المنطق للشيرازيّ[4]. . . ثم ينتقل إلى أصول الفقه. . . وكان يُدَرّس في هذه المدارس علم الكلام بقسمَيه الجواهر والعروض، والإلّهيّات؛ وعلم التفسير، وعلم الحساب، وفنّ الأدب. ويقتصرون في الأدب على حفظ الأشعار، وخصوصاً لاميّة العرب، فإنّها تعلّمهم مكارم الأخلاق».

أمّا آل صفا في «تاريخ جبل عامل» فقد كان أكثر حماسةً وأشمل تعبيراً إذ كتب: «وكانت هذه المدارس أشبه بالكليّات منها بالمدارس العاديّة، ويُدَرّس فيها الفقه والأصول، والحكمة الإشراقيّة، والكلام والتوحيد، والمنطق والفلسفة القديمة، عدا العلوم العربيّة كالنحو والصرف والبيان واللغة. وكان بعضهم يدرّس علم الهيئة والحساب والجبر والطبّ والهندسة، وبعضهم يدرس الفقه والأصول على المذاهب الخمسة. وكانت حلقات التدريس محبوكة بطلّاب الشيعة والسنّة، دائبين على الاشتغال وارتشاف مناهل العلم والهداية بروح التساهل والإخاء، بينما كانت عوامل البغضاء والتفرقة تلعب دورها في خارج تلك المجالس المباركة»[5].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٩؛ عن خطط جبل عامل للسيّد محسن الأمين ١/١٥٣ ـ ١٥٥.
(٢) للتّفتازاني (سعد الدين، ١٣١٢ ـ ١٣٩٠).
(٣) شرف الدين، علي (ت ١٤٥٤): مؤرّخ وشاعر إيرانيّ.
(٤) الملاّ صدر الدين (ت ١٠٥٠ هـ/ ١٦٤٠ م): فيلسوف شيعيّ.
(٥) محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل، ص ٢٣٢.

وهذا الوصف لمدارس جبل عامل يقرّبها، إلى حدّ كبير، من مدرسة «عين ورقة» الشهيرة في جبل لبنان، مع الاختلاف الطبيعيّ في المواد الدينيّة. وممّا يلفت في مناهج جبل عامل أن «الآجروميّة» و «قطر الندى»، و«المطوّل في المعاني والبيان»، و «الشمسيّة»، كانت هي نفسها مقرَّرة في مدارس النجف الأشرف بالعراق. وكان لأساتذة النجف انتشار وتأثير في المشرق العربيّ عموماً، نذكر منهم على سبيل المثال الشيوخ: جعفر كاشف الغطاء الشاعر والناثر والفقيه؛ ومحمّد حسن صاحب «الجواهر»، ومرتضى الأنصاري؛ وحسن الشيرازي؛ وآل القزويني والطباطبائي[1].

وعمّت المكتبات الخاصّة والعامة في جبل عامل، وكانت مكتظّةً بالكتب والمخطوطات العائدة إلى علماء العامليّين وأدبائهم ولغويّيهم. وكان لأهل الجبل رحلات منتظمة ومتّصلة إلى العراق وإيران وسورية، ينهلون منها العلم والشرع، ويصدّرون إليها مواهبهم وخبراتهم ونتاجهم. ورد في «تاريخ جبل عامل» لمحمد جابر آل صفا عن «أعيان الشيعة» للسيّد محسن الأمين (١٨٦٥ ـ ١٩٥٢): «وقد سمعت من بعض مشائخنا أنّه اجتمع في جنازة في قرية من قرى جبل عامل سبعون مجتهداً في عصر الشهيد الثاني»[2].

وبعد ما مرّ بنا من نهضة جبل عامل التربويّة والأدبيّة والعلميّة، ومن تحرّك أدبائه وعلمائه وسفرهم في سبيل العلم والمعرفة، لا تعود تخفى علينا أسبابُ تفوّقهم في الآداب والعلوم. وقد كثرت الدراسات الحديثة حولهم، وبيّنت فضلهم الرائد. وإن كان علينا أن نقدّم مثالاً على شعرهم فخير من نصطفي لذلك **الشهيد الأوّل محمّد بن مكّي** الذي يقول في شعرٍ ابتهاليّ تَوَسُّلِيّ:

عَــظُمَتْ مُصِيبَــةُ عَبْـدِكَ المِسْكِينِ   فـي نَـومِـهِ عَنْ مَـهْـرِ حُــورِ العِيْنِ

(١) حسن عبّاس نصر الله: **الحركة الأدبيّة في النهضة العراقيّة**، ص ٣٨ ـ ٣٩. وعن مدارس جبل عامل والتدريس فيها يحسن مراجعة المرجع السابق، ص ٢٣٣ وما بعدها.

(٢) محمد جابر آل صفا: **تاريخ جبل عامل**، ص ٢٣١، عن **أمل الآمل في تراجم علماء جبل عامل**، للشيخ محمد بن حسين الحرّ العاملي. والشهيد الثاني هو زين الدين بن علي بن أحمد الجَبْعي (١٥٠٥ ـ ١٥٥٩). ترك ما يقرب من أربعة وعشرين مؤلّفاً وتلاميذ كثيرين (محمد كاظم مكّي: **الحركة الفكريّة والأدبيّة في جبل عامل**، ص ٧٦ ـ ٧٧).

الأَوْلِيــاءُ تَمَتَّعُــوا بِــكَ فـي الـدُّجَى مِـتَـهَـجِّـداً بِتَـخَـشُّـعٍ وحَـنِـيـنِ
فَطَرَدْتَنِي عَنْ قَـرْعِ بـابِـكَ دُونَهُمْ أَتُـرَى لِعِـظْمِ جَـرائِمي سَبَقُـوني؟
إنْ لم يَكُنْ للعَفْـوِ عِنْـدَكَ مَـوضِـعٌ لِلْمُـذْنِبينَ فَـأَيْنَ حُسْنُ ظُنُـوني؟[1]

فهذه الأبيات الأربعة تعطي فكرةً عن جوٍّ فسيحٍ كان سائداً، يومذاك، بين أدباء الشيعة إذْ كان جُلُّهم من الشيوخ المتصوِّفين المنقطعين إلى المعرفة والعلم والتأليف.

جيم ـ بهاء الدين العامليّ

لَمّا أردنا اختيار شخصيّة تمثّل النهضة العامليّة بمختلف جوانبها في مرحلة بحثنا، لم نجد أفضل من **البهاء محمّد العامليّ الملقّب ببهاء الدين**[2]، ولا يقلّل من صفته التمثيليّة كونه عاش رَدَحاً طويلاً في إيران وألّف فيها إذْ إنّ الصلة بين شيعة لبنان المتعلّمين ومناجع العلم والدين الإيرانيّة كانت دوماً في خطٍّ موصول جيئةً وذهاباً.

١ ـ شخصيّته

ولد بهاء الدين في بعلبكّ عام ١٥٤٦. وانتقل به والده عز الدين حسين عام ١٥٥٣ إلى بلاد العجم[3] حيث درس عليه وعلى غيره من العلماء حتى اشتهر بمعرفته. وقد تضلّع بالعلوم والآداب، وتمكّن من اللغة الفارسيّة، وكتب بها ونظم فأجاد. وأمّ مصر واجتمع بالدراويش متّخذاً زيّهم. ثم اعتزل في بيت المقدس. وغادرها إلى دمشق، فحلب، فالنجف في العراق حيث زار مشهد الإمام موسى الكاظم وغيره من الأئمّة الكبار. وكان أهل جبل عامل يتوافدون عليه للأخذ من علمه. ثم عاد إلى أصفهان حيث اتّصل بالشاه عبّاس الصفويّ الذي رفع مقامه وعهد إليه بمشيخة الإسلام. وكانت وفاته بأصفهان

---

(١) محمّد كاظم مكّي: المرجع نفسه، ص ٨٥.
(٢) للتوسّع في حياة بهاء الدين وآثاره العربيّة والفارسيّة، راجع: دلال عبّاس: بهاء الدين العامليّ أديباً وفقيهاً وعالماً، أطروحة دكتوراه في الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٩١.
(٣) أقام ثلاث سنوات في أصفهان وسبعاً في قزوين (دلال عبّاس: بهاء الدين العامليّ، ص ٧٣).

عام ١٦٢١[١]. ودُفن في طوس قرب حضرة الإمام الرضا عملاً بوصيّته، وقبره فيها مشهور يزوره الناس للتبرُّك[٢].

اشتُهر البهاء العامليّ في العالم العربيّ بمؤلّفه «الكشكول»، ومعناه جراب الفقير، أو وعاء من المعدن أو الخشب يعلّقه الدرويش بكتفه ويجمع فيه الصدقات. «وقد جرت العادة أن يُكتب على ظهر الجراب أشعار الدراويش وعباراتهم وشعاراتهم». بدأ تأليفه بمصر عام ١٥٨٤ وأتمّه عام ١٥٩٩[٣]. وفيه تفسير آيات، وسرد أخبار، وعرض مسائل هندسيّة، وأبيات من الشعر قديمة ومعاصرة، وقضايا فقهيّة وفلسفيّة، وألغاز لامتحان الذكاء، وشروح طبّية، وطرائف تجدّد نشاط القارىء[٤].

ويلفتنا نشاط بهاء الدين العلميّ وقيمته بحيث نبغ في الحساب والجبر والمقابلة (الاختزال) والهندسة، والفلك. . . وقد وطّأت له دلال عبّاس بقولها: «كان متعدّد جوانب المعرفة، فيلسوفاً حكيماً وفقيهاً مفسّراً، وعالماً رياضيًّا ومهندساً، وأديباً شاعراً، حاز مكانة فكريّة متميِّزة، ونال شهرة في حياته أهّلته لأن يخترق الحدود التي أقفلتها مطامع الساسة في عصره، وأن يترك في إيران والعالم الإسلاميّ أثراً لا يزال حتّى الآن باقياً تتناقله الأجيال»[٥].

ويشهد لقيمة هذا الأديب اللبنانيّ العالِم وتطوّره أنَّ بعض كتبه تُرجم إلى اللغات الأوروبيّة، ومنها «خلاصة الحساب والهندسة» الذي نقله نسلمان

---

(١) إن المصادر التي أوردت تاريخ ولادة بهاء الدين ووفاته أثبتت التاريخ الهجريّ ولم تثبت التاريخ الميلادي. وعام ولادته ٩٥٣ هـ. يبتدىء في ٤ آذار ١٥٤٦ م. وعام وفاته ١٠٣٠ هـ (توفّي في شوّال، الشهر القمريّ العاشر) يبتدىء في ٢٦ تشرين الثاني ١٦٢٠. لذلك يكون تاريخ الولادة والوفاة الميلاديّ الأقرب إلى التاريخ الهجريّ: ١٥٤٦ ـ ١٦٢١.

(٢) دلال عبّاس: المرجع السابق، ص ٤٩ ـ ١٢٦؛ ومحمّد كاظم مكّي: **الحركة الفكريّة**، ص ٩٧ ـ ١٠٠.

(٣) الموسوعة العربيّة الميسّرة، ص ١٤٦٥؛ ودلال عبّاس: المرجع السابق، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

(٤) بهاء الدين العامليّ: **الكشكول**، تحقيق طاهر الزاوي، جزآن، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦١. وللكشكول طبعات أخرى كثيرة في إيران (١٨٥٠) ومصر (١٨٧١، ١٩٠٧، ١٩٦٨) والعراق (١٩٣١) ولبنان (١٩٨٣). . .

(٥) دلال عبّاس: **بهاء الدين العامليّ**، ص أ و ٥١٣ وما بعدها.

Nesselman إلى الألمانيّة وطبع في برلين عام ١٨٤٣، كما تُرجم هذا الكتاب إلى الفارسيّة، ثم إلى الفرنسيّة عام ١٨٦٤(١).

وترك البهاء نتاجاً غزيراً، واختلف المؤرّخون في عدد مؤلّفاته، فمنهم من جعلها ستّين، ومنهم سبعة وسبعين، ومنهم فوق المئة. إلّا أنّ دلال عبّاس أحصت في أطروحتها من مؤلّفاته المخطوطة والمطبوعة في العربيّة والفارسيّة حوالى ثلاثة وخمسين مؤلَّفاً بين كبير وصغير وشرح وحواشٍ وتعليق وتفسير وشعر وعلوم وفلسفة. وشكّكت في نسبة عددٍ من الكتبِ إليه، ومنها كتاب «المِخْلاة» الذي قيل إنّه ألّف قبل الكشكول ومهّد له، وأعطت أسباباً علميّة مقنعة تؤيّد زعمها(٢).

٢ ـ شعره

من قصيدة له في المهديّ المُنْتَظَر:

سَرَى البَرْقُ مِنْ نَجْدٍ فجدَّد تَـذكاري ... عُهـوداً بِحُزْوَى والعُـذَيْبِ وذي قـارِ
وَهَـيَّـجَ مِنْ أَشْـواقِـنـا كُـلَّ كـامِنٍ ... وأَصْبَـحَ في أَحْشـائِنـا لاعِـجُ النَّـارِ
وَمُـعْضِـلةٍ دهمـاءَ لا يَـهْتَـدِي لَـهـا ... طَرِيقٌ ولا يُهْدَى إلى ضَـوئِها السـاري
أَجَلْتُ جيـادَ الفِكْـرِ في حَلَبـاتِـهـا ... وَوَجَّهْتُ تِلقـاهـا صَـوائِبَ أَنْـظاري
إذاً لا وَرَى زَنْـدِي ولا عَـزَّ جـانِـبي ... ولا بَـزَغَتْ فِي قِمَّـةِ المجْـدِ أَقْمَـاري
ولا انْتَشَـرَتْ في الخـافِقَيْنِ فضـائِلي ... ولا كـانَ في المَهْـدِيِّ رائِقُ أَشْعـاري
خَـلِيفَـةُ رَبِّ الـعـالـمِـيـنَ فَـظِلُّهُ ... على سَـاكِنِ الغَبْـراءِ من كـلِّ دَيّـارِ
فَلَو زَارَ أفـلاطـونُ أَعْتَـابَ قُـدْسِـهِ ... وَلَمْ يُغْشِـهِ عنـهـا سَـواطِـعُ أَنْـوارِ
رَأى حِكْمَـةً قُـدْسِيَّـةً لا يَشُـوبُـهـا ... شَـوائِـبُ أَنْـظارٍ وأدنـاسُ أفـكـارِ
أيـا حُجَّـةَ اللّهِ الـذي ليسَ جـاريـاً ... بِغَيْـرِ الـذي يَـرْضـاهُ سَـابقُ أَقْـدارِ
أَغِثْ حَـوْزَةَ الإيمـانِ واعْمُـرْ رُبُـوعَـهُ ... فَـلَمْ يَبْـقَ مِنْـهـا غَـيْـرُ دارسِ آثـار
وَأَنْعِشْ قُلوبـاً في انْتِـظارِكَ قُـرِّحَـتْ ... وَأَضْجَـرَهـا الأَعْـداءُ أَيَّـةَ إضْجـارِ(٣)

(١) محمّد كاظم مكّي: الحركة الفكريّة، ص ١٠١.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٠ ـ ١٠٢؛ والمرجع السابق، ص ١٩٥ ـ ٢٢٥؛ وجرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربيّة، ٢/٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٣) محمد كاظم مكّي: الحركة الفكريّة، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

نرى في هذه القصيدة ميزات عامّة تنسحبُ على الشعر العربيّ عموماً، وميزات خاصّة ترتبط بالشاعر الشيعيّ العالم. فإنّ الشعراء العرب، حتّى أيّامنا، ما زالوا يتغنّون في شعرهم بمعاهد أجدادهم ومآثرهم. وهل يتنكّر لتاريخه وأصله، أو يتعمّد الخروج على جوّهما غير كُلِّ مكابرٍ جاحد؟ وليس من التكلُّف في شيء أن يفور وجدان الشاعر بمآثر أسلافه وأمجادهم.

ولم يكن الشعر، آنذاك، قد خرج عن خصائص النظم القديم، بل كان يرى في الأجداد النموذج الأمثل، فنلحظ في الشاهد مطلعاً غزليًّا، يليه الفخر، فالتوجُّه إلى المهديّ. ومتى كانت الهيكليّة وحدها سمة الشعر الناجح؟ بل هي العبقريّة التي تتخطّى كل قاعدة أو نظام ثابت في الإخراج والمضمون. ولا أعني أنّني أعدّ هذا الشعر من ذَراري العبقريّة الخلاّقة، وإنّما أُريد أن أرفع عنه مهانة العموديّة الشعريّة المزعومة لدى كثيرٍ من شعرائنا المُحْدَثين.

وما ذكاء الشاعر وعلمه، المتجلّيان في شعره، سوى سِمة بارزة من سِمات شعراء جبل عامل المجتهدين العلماء. وقد كانوا، كما لا يزال الكثيرون منهم، صفوة مجتمعهم وقادته. والذكاء والعلم يؤثّران تأثيراً سلبيًّا في الغموض الفنّي والخيال الجامح والعاطفة الهوجاء. وتبقى الطرافة والجدة والإبداع في المعاني المبتكرة اللافتة.

ولا يتطلّب طرحنا ملاحقة ما طَعَّم به البَهاءُ شعره من مصطلحات الفقه والفلسفة والفلك وغيرها من العلوم، كما لا يستدعي الحديث عن فنون شعره جميعاً، وقد تابعت المسيرة العربيّة في المدح والغزل والرثاء والوصف والعتاب وحتّى الخمر(١). إلاّ أن لزوم إشارتنا إلى عدم انتفاء الوجدان من شعره يحدونا على إيراد بعض أبياتٍ غزليّة غنائيّة من قصيدة أخرى في مدح صاحب الزمان المهديّ المنتظَر:

لا تَلُومُوني على فَرْطِ الضَجَرْ لَيْسَ قَلْبِي مِنْ حَدِيدٍ أو حَجَرْ
فاتَ مَطْلُوبي ومَحْبُوبي هَجَرْ والحَشا في كلِّ آنٍ في اشْتِعالْ

(١) أمّا الهجاء، فقد تجنّبه الشاعر. (دلال عبّاس: بهاء الدين العامليّ، ص ٢٩١).

مَنْ رَأى وَجْدِي لِسُكّانِ الحُجُونْ | قالَ ما هذا هوًى هذا جُنونْ
أيُّها اللُّوّامُ ماذا تَبْتَغُون | قَلْبِيَ المُضْنَى وَعَقْلي ذو اعْتِقالْ
يا نُزولاً بينَ جَمْعٍ والصَّفا | يا كِرَامَ الحَيِّ يا أهْلَ الوَفا
كانَ لِيْ قَلْبٌ حَمُولٌ لِلْجَفا | ضاعَ مِنّي بَيْنَ هاتيكَ التِّلالْ
يا رَعاكَ اللّهُ يا ريحَ الصَّبا | إنْ تَجُزْ يَوماً على وادي قُبا
سَلْ أُهَيْلَ الحَيِّ في تلكَ الرُّبَى | هَجْرُهُمْ هذا دلالٌ أم مَلالْ[1]

أخرج الشاعر قصيدته على بحر الرَّمَل وهو أصلح البحور العربيّة للغناء، ونوّع في إخراجها متأثّراً بالموشّح العربيّ والدُوبيت[2] الفارسي. وليست القصيدة الوحيدة على هذا الوزن، فقد أكثر الشاعر من انتهاج الدُوبيت، كما أكثر من المثنويّات أو الثُّنائيّات[3]، وهي أيضاً من أوزان الشعر الفارسيّ. فكان لبهاء الدين فضل على الشعر الفارسيّ الذي أدخل فيه الأوزان العربيّة وخصوصاً وزن الخَبَب الذي لم يكن معروفاً فيه قبله، وعلى الشعر العربي الذي استعمل فيه أوزاناً فارسيّة. ولم يكن لعمود الشعر العربيّ سلطة مطلقة على الشاعر وإنْ حافظ عليه إجمالاً. وكثيراً ما جرى مع طبعه فعدّل ونوّع. ونظم المخمّسات، والألغاز، والقصّة الشعريّة التي جاءت، أحياناً، كالحديث العاديّ الموقّع:

جاءَ البريدُ مُبَشِّرا | مِنْ بعدِ ما طالَ المَدَى
باللّهِ خبِّرني بما | قَدْ قالَ جيرانُ الحِمَى
يا أيُّها السّاقي أدِرْ | كَأسَ المُدامِ فَإنَّها
مِفتاحُ أبْوابِ النُّهَى | مِشْكاةُ أنْوارِ الهُدَى
قد ذابَ قَلْبي يا بُنَيْ | شَوقاً إلى أهلِ الحِمَى
هذا الرَّبيعُ إذا أتَى | يا شَيْخُ قُلْ حَتّى مَتَى؟
قُمْ يا غُلامُ وقُلْ لنا | الدَّيْرُ أيْنَ طَريقُهُ؟

---

(١) دلال عبّاس: بهاء الدين العامليّ، ص ٣٠٩ - ٣١٠. وتمام القصيدة في سبعة وسبعين بيتاً، وعنوانها الكامل: «وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان» (المرجع نفسه، ص ٢٩٦).
(٢) نظمٌ يأتي بيتَين بيتَين على قافية واحدة.
(٣) كلّ بيتٍ في المثنويّ على رَوِيّ واحد في مِصْراعَيه.

فــالــقــلْــبُ ضَــيَّــعَ رُشْــدَهُ ومِـنَ الـمــدارسِ مــا اهْــتَــدَى
قــلْ لِــلْبَهــائــي الــمُــمْـتَـحَـنْ داوِ الــفُــؤادَ مِــنَ الــمِــحَــنْ
بــمُــدامــةٍ أنــوارُهــا تَــجْـلُو عَــنِ الــقَــلْــبِ الــصَّــدَا[1]

ويلفت في هذه الأبيات، عدا الأسلوب النثريّ، السؤالُ عن طريق الدير سَعْياً للخمر الجيّدة، على ما كان يفعل أبو مِحْجَن الثَّقفي (ت نحو ٦٥٠) وأبو نواس (٧٥٧ ـ ٨١٤) وغيرهما من شعراء الخمر.

ومن ثُنائيّاته ما يُذَكِّر ببديعيّات الأمير الشاعر أبي العبّاس عبدِ الله بن المعتزّ (٨٦١ ـ ٩٠٨) والتي لا تزال مطروقةً في العالم العربي. وهي تدلّ على جِدّة الرؤية والمهارة والذكاء:

ومــايِسَــةِ الأَعْــطافِ تَسْتُــرُ وَجْهَهــا بِمِعْصَمِهــا، للَّهِ كَــمْ هَتَــكَتْ سِتْــرا
أرادتْ لتُخْفيْ فِتْنَــةً مـن جَمــالِهــا بِمِعْصَمِهَــا فَاسْتَــأنَفَت فِتْنَةً أُخْــرَى

* * *

يــا سَــاحِــراً بِــطَرْفِــهِ وظــالِــمــاً لا يَــعْــدِلُ
أَخْــرَبْــتَ قــلبــي عَــامِــداً كَــذَا يُــراعَــى الــمَــنْــزِلُ؟

* * *

لِــعَــيْــنَــيْــكَ فَــضْــلٌ جَــزِيْــلٌ عَــلَيْ وَذَاكَ لأَنِّــيَ يــا قــاتِــلِي
تَــعَلَّمْــتُ مِــنْ سِــحْــرِهــا فَــعَــقَــدْتُ لِــسَــانَ الــرَّقِــيــبِ مــع الــعــاذِلِ[2]

وتبقى ملاحظة مهمّة بالنسبة إلى عصره المأخوذ بالمُحَسِّنات البيانية/ البديعيّة. فإنّ ما طالعناه من شعره يشهد على أنّه لم يتكلّف فيه، ولم يستعمل من المحسِّنات إلا ما وافق طبعه وبيانه الذاتي.

٣ ـ نثره

يعطي كتاب «الكشكول» فكرةً واضحة عن نثر بهاء الدين وهو كثير،

---

(١) دلال عباس: بهاء الدين العاملي، ص ٣٤٠ ـ ٣٦٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٣٨.

متعدّد الموضوعات. نختار منه قطعةً من «سوانحه»[1] حيث يقول: «قد تهبّ من عالم القدس نفحةٌ من النفحات، على قلوب أصحاب العلائق الدينيّة والعوائق الدنيويّة، فتتعطّر بذلك مشامّ أرواحهم، وتجري روح الحقيقة في رميم أشباحهم، فيدركون قبح الانغماس في الأدناس الجسمانيّة، ويذعنون بخساسة الانتكاس في مهاوي القيود الهيولانيّة، فيميلون إلى سلوك مسالك الرشاد، وينتبهون من نوم الغفلة عن المبدأ والمعاد، لكنّ هذا التنبُّه سريع الزوال، ووحيُّ الاضمحلال. فيا ليتَهُ يبقى إلى حصول جذبة إلّهيّة تميط عنهم أدناس عالم الزُّور وتطهّرهم من أرجاس دار الغرور. ثمّ إنّهم عند زوال تلك النفحة القدسيّة، وانقضاء هاتيك النسمة الأنسيّة، يعودون إلى الانتكاس، في تلك الأدناس، فيتأسَّفون على ذلك الحال الرفيع المنال، وينادي لسانُ حالهم بهذا المقال، وإن كانوا من أصحاب الكمال»[2].

يدلّ هذا النموذج على جمال أسلوب الكاتب وانسياقه مع الطبع، إلى ما فيه من سجع لا يصدم تكلُّفه، بل يرفد موسيقى الجملة ويعزّز تأثيرها. فاللغة متينة سليمة، والبيان راقٍ لا ترهقه العبارة، بل يعبّر عن فكرة جديدة في كل فاصلة من فواصله. والمؤلّف دقيق في الموازنة بين المبنى والمعنى، منقاداً بخلفيّته الرياضية الفكريّة، فترد في نثره مصطلحات فلسفيّة (القيود الهيولانيّة) وفقهيّة (المبدأ والمعاد) وصوفيّة (جذبة إلّهيّة) وغيرها.

وإلى طول باع الإمام في اللغة العربيّة، لا يتقعّر في أسلوبه، ولا يستعمل الألفاظ الحوشيّة المهملة، بل يلتزم الاسترسال العذب والوضوح، محافظاً على الجزالة وشدّة الأسر، ومتأثّراً بخصائص الشعر الذي طُبع عليه. وهو تأثير نجد صداه في نثر الشعراء عموماً. ولم يكن أسلوبه واحداً في كلّ ما كتب، بل يتنوّع مجاراةً للموضوع. فأسلوب التقريظ غير أسلوب القصّة، والتأريخ، ونقد الشعر، وبسط العلم، وتفسير القرآن. . . .

---

(1) سوانح جمع سانحة: ما عَرَض أو تَيَسَّرَ. وهي تسمية من وحي رحلة الحجّ ابتكرها البهائيّ نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

خامساً: نافذة على الكتابة العربيّة في الخارج

رأينا النهضة الأدبيّة المبكّرة تشعّ في لبنان، من ثلاث منائر على الأخصّ: جبل لبنان وسواحله ومدنه، والمدرسة المارونيّة، وجبل عامل. ولا يتّسع طرحنا للتوقّف مليًّا في خارج لبنان، وإنّما يحسن بنا أن نفتح نافذة، ولو ضيّقة، ننظر من خلالها إلى نموذج نثريّ تجري فيه الكتابة على مدًى أوسع وأكثر لصوقاً بالواقع المعيوش من الصياغة الشعريّة المتأنّية المتصنّعة.

ولم تكن الأحوال في الخارج على الحالة المزرية المظلمة التي وصفها بها المؤرّخون التوابع. ففي مصر، مثلاً، يصف الرحّالة ابن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٧٧)[١] الوضع التربويّ بقوله: «وأمّا المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها»، عدا المساجد والأديرة والزوايا الصوفيّة[٢].

ونختار نموذجاً للنثر، آنذاك، من «رحلة ابن بطوطة» التي أملاها في فاس على كاتب السلطان أبي عنان من أمراء بني مَرين، محمّد بن جُزيّ الكلبيّ:

«ويقال إنّ دار العلم والملك بمصر مدينة مَنَف، وهي على بريد من الفسطاط. فلمّا بُنيت الاسكندريّة انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الإسلام، فاختطّ عمرو بن العاص، رضي الله عنه، مدينة الفسطاط، فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد[٣]؟

والأهرام بناء بالحجر الصّلد المنحوت متناهي السموّ، مستدير، متّسع الأسفل، ضيّقُ الأعلى، كالشكل المخروط، ولا أبواب لها، ولا تُعلم كيفيّة بنائها. وممّا يُذكر في شأنها أنّ ملكاً من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده أنّه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربيّ من النيل لتكون مستودعاً للعلوم ولِجُثّة الملوك، وأنّه سأل المنجّمين: هل يُفتح منها موضع؟ فأخبروه أنّها

---

(١) لقّبه المستشرق الهولنديّ رينهارت دوزي بـ «الرحّالة الأمين» (رحلة ابن بطوطة، ص ٦).

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٣٧.

(٣) هنا خطأ تاريخيّ لأنّ جوهراً الصقليّ، القائد الفاطميّ، بنى القاهرة شماليّ الفسطاط عام ٩٦٩ م. لتكون عاصمة مصر بعد عواصمها القديمة: الفسطاط، العسكر، القطائع. وقد أصبحت القاهرة عاصمة الفاطميّين منذ ٩٧٣. (Dict. Encycl. Quillet, II/1000).

تُفتَح من الجانب الشماليّ، وعيَّنوا له الموضع الذي تُفْتَح منه، ومبلغ الإنفاق في فتحه، فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنّه يُنفق في فتحه، واشتدَّ في البناء فأتمّه في ستّين سنة. فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة، فإنّ الهدمَ أيسرُ من البناء.

فلمّا أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها. فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل، فلجّ في ذلك، وأمر أن تفتح من الجانب الشماليّ. فكانوا يوقدون عليها النار، ثم يرشّونها بالخلّ، ويرمونها بالمنجنيق حتّى فُتحت الثلمة التي بها إلى اليوم، ووجدوا بإزاء النقب مالاً أمر أمير المؤمنين بوزنه، فحُصِر ما أُنفق في النقب، فوجدهما سواء، فطال عجبه من ذلك، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً»[1].

إنّ ثقافة ابن بطّوطة العربيّة الإسلاميّة وتجواله من مدينة طنجة المغربيّة على جبل طارق، إلى مصر وسورية وجزيرة العرب والأندلس والسودان، جامعاً بين المشرق والمغرب، جعله نموذجاً مناسباً لأسلوب الكتابة العربيّة في أيّامه. ولا يقلّل من ذاتيّة أسلوبه أنّ ابن جُزَيّ دوّن رحلاته. فابن بطوطة تولّى القضاء، والقضاة يستعملون الكتّاب وينصّون عليهم. وكان قد سجّل مذكّراته، فسلبها منه الهنود، فأملى عن ظهر قلبه ما تذكّره على كاتب السلطان محمّد بن جُزَيّ الكلبي[2]. والمقارنة بين مقدّمة الرحلة لابن جُزَيّ وأخبار الرحّالة تظهر الفرق الشاسع بين الكاتب المقلِّد، المسجِّع، المتحذلق، الحريص على حسن صياغته؛ وبين المُخبر المُسْتَرسِل الجاري على سليقته، مُؤْثِرًا المعنى على اللفظ، ومهتمًّا بما في أخباره من غرابة وطرافة وتشويق. والمقارنة تبلور المدروس. وإن لم يكن هذا الرحّالة من البلغاء المتقنين، فإنّه يمثّل الطبقة الوسطى من الكتّاب، بل أواسط ما كانت عليه الكتابة في عصره.

يبدو نصّ ابن بطوطة سليم الأسلوب، صحيح اللغة، حيًّا، بعيداً عن

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥ ـ ٧، المقدّمة بقلم كرم البستاني.

الصناعتين اللفظيّة والمعنويّة، ينتقي موضوعه من غير الشائع أو المعروف، ويهتمّ بالتفاصيل، ويميل إلى السؤال والتحدّي والمبالغة التي ترضي العامة خصوصاً.

إنّ الكثير ممّا جاء في نصّه الآنف يستدعي فضول العرب المسلمين: عمرو بن العاص فاتح عظيم عزّز الإسلام ودانت له الحصون والقلاع. وأعمى الرحّالة هواه، فتعدّى التاريخ المُحَقَّق وسحب «الفسطاط» على عهده (القرن الرابع عشر) مكانَ القاهرة. والأهرام تُحْفَةُ ملوكٍ جبابرة، فراعنة عاشوا قبل الطوفان وانقادوا لأحلامهم ومنجِّميهم، وربما كان نكرانهم للإلّه الواحد، بل تألُّههم، ومضاهاتهم الخالق في عظمة خلقه، من أسباب الغَرَق الشامل. ويتحدّى المُخْبر أيّ إنسان تسوّل له نفسه هَدْم الأهرام التي بُنيت في ستّين سنةً أن يهدمها في ستمائة سنة، ملاحظاً أنّ الهدم أسهل من البناء... وجاء المأمون أمير المؤمنين وخليفة الله المسلم، فقبل التحدّي ونهض لهدمها وهو قادر. إلاّ أنّه بناءً على إشارة بعض مستشاريه، اكتفى بفتح ثلمةٍ فيها، رافعاً التحدّي وكاشفاً عن خفايا منشآت العمالقة الهالكين، بطريقة علميّة شائقة تليق بثقافته وعلمه و «بيت حكمته».

إنّ إخراج النصّ وأخباره وروحه صورة معبِّرة عن زمان إنشائه، فهي تعرّف بمجتمع القرن الرابع عشر وبطريقته في الكتابة والتفكير والتعبير.

الفصل الثاني

الحركة الأدبيّة والفكريّة في لبنان خلال القرن الثامن عشر

بعد معركة عين داره (١٧١١)، وطّد الشهابيّون القيسيّون حكمهم الإقطاعيّ على لبنان، وتركّزت الطوائف في المناطق التي نعرفها لها اليوم. وكان من جرّاء اختلاط السكّان ومن ازدياد اتّصال اللبنانيّين بالمناطق السوريّة الداخليّة، أن ازدادت اللغة العربيّة قوّةً وانتشاراً على حساب السريانيّة التي قضت عليها قضاءً تاماً أو شبه تام في مجالَي الآداب والتاريخ. وقنعت السريانيّة بما بقي لها من نفوذ في الشؤون الدينيّة لدى الطائفة المارونيّة. يؤيّد هذا الواقع قول جان دو لاروك Jean de la Roque (١٦٦١ ـ ١٧٤٥) في «رحلته إلى سورية وجبل لبنان»، وقد أقام سنتين في بلدنا (١٦٨٨ ـ ١٦٩٠): «ما زالت مجموعة من السكّان، رجالاً ونساءً، تتكلّم السريانيّة أو الكلدانيّة. ترى ذلك خصوصاً في بشرّي وحصرون وفي كثير من الأمكنة المجاورة، وإن تكن العربيّة العاميّة منتشرة في لبنان بأكمله، ولم يبق استعمال السريانيّة إلاّ في رتبة قدّاس الموارنة»[١].

---

(١) Jean de la Roque: *Voyage de Syrie et du Mont - Liban*, p. 68: «Quantité d'habitants, hommes et femmes, parlent encore le syriaque ou le chaldéen. Cela se voit particulièrement à Bécharré, à Hasroun, et dans plusieurs lieux des environs, quoique l'arabe soit la langue vulgaire de tout le Liban, et que le syriaque ne soit en usage chez les maronites que dans le service divin».

ومنذ أوائل القرن السابع عشر، كانت الأفواج الأولى من خرّيجي المدرسة المارونيّة قد ابتدأت تعود إلى لبنان وتهتمّ بشؤون التربية والتعليم. واطّرد أثرها في هذا المجال بعد مجمع اللّويزة المنعقد عام ١٧٣٦ بإدارة المطران يوسف شمعون السمعاني، موفد البابا إلى هذا المجمع، وإشرافه(١).

ويعود فضل كبير إلى الدكتور اسامة عانوتي(٢) الذي محض هذا القرن عنايته وأعاد إليه بعض حقّه بدراسة مطوّلة في منشورات الجامعة اللبنانيّة (١٩٧١) بعنوان: «الحركة الأدبيّة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر». لقد نفى الدكتور عانوتي القحط والجدب اللذين اتّهم بهما هذا القرن، وقال في المقدّمة إنّ الحركة الأدبيّة فيه «أجنّت كثيراً من بذور النهضة التي شهد القرن التاسع عشر انبلاج فجرها»(٣).

كانت الدراسة لدى المسلمين آنذاك تتمّ في حلقات، وتتناول العربيّة وعلومها من قواعد وبيان وبلاغة وعروض وفقه وقضاء شرعيّ ومنطق ومبادىء الرياضيّات والتصوّف. وكان الذين يعدّون أنفسهم لأن يكونوا كَتَبَة في إدارات الدولة يعتنون بتجويد خطّهم.

أمّا المسيحيّون فكانت الإرساليّات الغربيّة قد بدأت تفعل فعلها في بلادهم. ونشأت إلى جانب المدارس الصغيرة في القرى والأديرة، تلك التي تُعنى خصوصاً بالقراءة والكتابة والدين، مدارس كبيرة مهمّة. وأولى هذه المدارس مدرسة عينطورة التي نتحدّث عنها ضمن مقرّرات المجمع اللبنانيّ.

أوّلاً: الطباعة

ألف ـ المطابع الأولى

تمّت المحاولة الأولى لإدخال المطبعة إلى البلاد العربيّة بلبنان في دير

(١) المجمع الإقليمي، ص ٦ وما بعدها؛ ويأتي الحديث مفصّلاً عن هذا المجمع فيما بعد.
(٢) أستاذ بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في الجامعة اللبنانيّة.
(٣) ص يز.

مار قزحيّا في أواخر القرن السادس عشر (١٥٨٥)[١]. وكانت حروفها سريانيّة، وطُبعت فيها اللغة العربيّة بالكرشوني، ولايُعرف لها سوى كتاب واحد هو «كتاب المزامير» الذي ظهر عام ١٦١٠ في قطع كبير بعمودين: سريانيّ وكرشونيّ، في ٢٦٠ صفحة.

والمطبعة الأولى التي استخدمت الحرف العربيّ هي **مطبعة حلب** (١٧٠٢) التي أسّسها بطريرك أنطاكية الملكي أثناسيوس الرابع دبّاس (١٦٨٥ - ١٧٢٤)[٢] الذي نشر مع جرمانوس فرحات «مواعظ القدّيس يوحنّا فم الذهب».

رحل البطريرك إلى بوخارست عاصمة رومانية عام ١٦٩٨، وحمل الحروف منها أو سعى إلى سكبها في حلب. واستقدم معه رجلاً عارفاً بالطباعة. وصدرت عن المطبعة مصنّفات دينيّة لم يبق منها سوى القليل: «كتاب المزامير» (١٧٠٦)، وفي السنة نفسها «كتاب الإنجيل». أمّا كتاب «الدرّ المنتخب من مقالات القدّيس يوحنّا فم الذهب» فنقله البطريرك عن اليونانيّة ونشره عام ١٧٠٧. وظلّت مطبعة دبّاس ناشطة حتى وفاة منشئها.

ثم أُنشئت **مطبعة الشوير**[٣] لعبد الله زاخر (١٦٨٠ - ١٧٤٨) الذي طبع عليها «مزامير داود» عام ١٧٣٣ في مجلّد واحد. وإذا كانت المطبعة أبرز ما أثر عن هذا الشمّاس، فلقد كان له، إلى جانبها إنتاج أدبيّ وفلسفيّ، ما حدا الأب لويس شيخو على القول فيه: «لم يُشتهر عبد الله زاخر بنظم الشعر، وإنّما كان أحد أدباء الشهباء الذين ساعدوا بنفوذهم وقلمهم على النهضة الجديدة التي نشأت بين نصارى حلب لتعزيز اللغة العربيّة وإعلاء منارها»[٤].

(١) جريدة النهار، ٨٥/٣/١٧، ص ١١ (جوزف نعمه).
(٢) خرج عن الروم الأرثوذكس عام ١٧٢٠ ومال إلى الكثلكة.
(٣) حالياً في الخنشارة - قضاء المتن، دير ماريوحنا الصابغ (المعمدان).
(٤) الأب لويس شيخو: شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ص ٤٩٧. وفؤاد أفرام البستاني: عبد الله زاخر (أعلام النهضة الحديثة، ١/ ٢٤١ - ٢٤٩، عن مجلة «الكتاب» المصريّة، ج ٦ (١٩٤٨)، ص ٣٨٦ - ٣٩٨).

وبعدها **مطبعة القدّيس جاورجيوس** في بيروت لطائفة الروم الأرثوذكس، والتي أنشئت بمسعى يونس نقولا الجبيلي المعروف بأبي عسكر. وأوّل ما نشر فيها «كتاب المزامير» عام ١٧٥١. وطبع فيها البطريرك دبّاس كتابه «صخرة الشك» الذي ينفي بعض العقائد التي تعلّمها الكنيسة الرومانيّة. وقد صدر عن هذه المطبعة كثير من الكتب الدينيّة المماثلة[١].

باء ـ النساخة

كان نسخ الكتب على قدم وساق، وقد اشتُهر بالنساخة بعض الأُسَر كآل الصبّاغ والبحري واليازجي وغيرهم[٢]. وكانت النساخة في العهود السالفة تتداول الكتب الدينيّة ككتاب المزامير على يد القساوسة خصوصاً[٣]. وعانى النسّاخ في بعض العهود كثيراً من الصعوبات والقهر والويلات لطبيعة عملهم ودقّته، ولنفوذهم وتدخّلهم في حياة القصور وما يُدبَّر فيها من مكائد ومؤامرات. وربّما كان عهد الجزّار أكلح تلك العهود وأشدّها هولاً على الكتّاب، إذ قليلاً ما سلم من يده أحدهم تعذيباً وحبساً وتجديعاً وبتراً وقطعاً وسملاً وقتلاً، كما أصاب آل السكروج وحبيب بن إبراهيم الصبّاغ وغيرهم. أمّا الياس إدّه ويوسف القرداحي ففرّا من وجهه بعد خدمته. الأوّل إلى الأمير يوسف شهاب في جبل لبنان، والثاني إلى بلاد الإفرنج. وقبل الجزّار شنق حسن باشا قبودان في عكّا الكاتب إبراهيم الصبّاغ على صاري سفينة بعد أن أذاقه مرّ العذاب. وأكثر ما كان يتأتّى سوء العاقبة من غاية الولاة والحكّام في مصادرة الكتّاب على أموالهم بعد ازدهار أعمالهم وبُعَيد حظوتهم عندهم[٤].

---

(١) دستور مجمع اللويزة؛ محاضرات الدكتور جبور عبد النور؛ الأباتي بطرس فهد: **بطاركة الموارنة وأساقفتهم في القرن السابع عشر**، ص ٧١؛ والمؤلّف نفسه: **مجموعة المجامع الطائفيّة المارونيّة عبر التاريخ**، ص ١٠٢ ـ ١١٨؛ كمال الصليبي: **تاريخ لبنان الحديث**، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، جريدة الأنوار: السبت ٢٦ أيار ١٩٨٤، ص ٧؛ فيليب حتي: **لبنان في التاريخ**، ص ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

(٢) الأب لويس شيخو: **الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر**، ١/٧ ـ ٨ و ٣٢.

(٣) إسطفان الدويهي: **تاريخ الأزمنة**، ص ٣٦٦، ٣٨٠، ٣٨٣.

(٤) نقولا الترك: **حياة أحمد الجزّار**، ص ٢٦ ـ ٤٠ و ٦١.

وتوقّف مارون عبّود عند كتاب «السنكسار» الخاص بسِيَر القدّيسين، فقال إنّ النسّاخ تباروا في نسخه، وأضافوا إليه ما يروق لهم من العجائب[١]. ولا يفوتنا ما يعتور هذه الصناعة من أخطاء وتحريف وتصحيف مقصود وغير مقصود.

وبقيت النساخة رائجة حتى آخر القرن التاسع عشر، وكان من ممتهنيها الرائد الكبير أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧)، بعد أن تُوفّي والده، وأخذ على عاتقه إعالة والدته[٢].

ثانياً: الشعر

كان للشاعر مركز مرموق في المجتمع، والشعر يوجب له «العزّ والشرف» وإن لم يتّسع مداه وينبغ مريدوه كما عبّر أحمد البربير[٣] الذي قال عن الأدب عموماً: «فإنّ الأدب في عصرنا هذا قد يبست رياضه، ونضبت حياضه، حتى خرست بلابله السواجع، وتجاوبت بومه ونقّت فيه الضفادع، كيف لا وقد ركد نسيمه وتحرّك سَمومُه[٤]، ولا سيّما روض الشعر الذي طالما طالت أفنانه، وتهدّلت أغصانه. . . وذلك لفقد من كانت لُهاتهم تَفْتَحُ به اللُّهى[٥]. فَخَلَفَ

---

(١) مارون عبود: روّاد النهضة الحديثة، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق، ص ٢٩، ٤٢، ٤٤.

(٣) ولد أحمد البربير في دمياط بمصر عام ١٧٤٧ حيث كان أبوه يمارس التجارة. ثم عاد إلى موطنه الأصلي بيروت، وتولّى القضاء، وفتح مدرسة. تُوفّي في دمشق عام ١٨١١. لم يعقب أبناء (أحمد البربير: كتاب الشرح الجليّ على بيتي الموصليّ، ص هـ ـ ز ـ ء). شعره متفرّق في المراجع. وله كتاب: «عقد الجمان وشذور الياقوت والمرجان في المزايا التي يدل عليها اسم سليمان» (سليمان باشا والي دمشق). مخطوط في مئة وصفحة واحدة متوسّطة الحجم، نُسخ سنة ١٢٢٦ هـ/ ١٨١١ م، جامعة القديس يوسف، المكتبة الشرقية، رقم ١١٤. ذكر فيه كلّ من عرف من سَميّي الباشا منذ الملك سليمان الحكيم، وكتبه سنة وفاته. وفيه حكم ومواعظ وفرائد وألغاز وأحجيات وطرائف قصيرة له ولغيره من الشعراء، أكثرها من بيتين أو أكثر بقليل.

(٤) ريحه الحارة.

(٥) اللُّهى بضمّ اللام: العطايا، وبفتحها: اللّحم المُشْرف على الحلق. أي أنّ العطايا تعلّم النطق.

من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الأدب[1]، وهربوا منه هروب العرب من الجرب، لا يشعرون بلطف الأشعار، مستيقظين إلى نهيق حميرهم، وتنام أعينهم عن الأوتار...»[2].

ألف ـ الفنون المستحدثة السبعة

إلى جانب الأغراض التقليديّة، أخذ الشعراء منذ العهد المملوكي في أنماط من التجديد سمّاها الدارسون بعدهم «الفنون السبعة»[3] وهي: المواليا، والكان وكان، والقوما، والدوبيت، والسِّلسلة، والموشّح، والزجل.

المواليا نوع من النظم الغنائي سُمّي بذلك نسبةً إلى عبارة «يا مولاي» التي تُقال في آخر كلّ مقطع منه. بعضه معرب وبعضه الآخر عاميّ متحرّر من الإعراب. ويُنظم الفصيح منه عادة كلّ بيتين على قافية واحدة، وبعدهما على قافية أخرى، إلى آخر المنظومة. ووزنه شبيه جداً بوزن البحر البسيط.

الكان وكان شعر شعبيّ أصله من بغداد وإيران. لكلّ شطرٍ منه رويّ خاص، وهو متحرّر من قيود القافية ومن بعض قواعد الإعراب. سُمّي بذلك نسبةً إلى عبارة «كان وكان» الكثيرة الورود فيه. نُظمت به أوّلاً الحكايات والخرافات، ثمّ استعمل في المواعظ والمدائح والمراثي. وزنه قريب من «المجتثّ».

القوما شعر فصيح متأثّر بالعاميّة نشأ في العراق بالقرن الثاني عشر الميلاديّ لإيقاظ الناس للسحور في رمضان. سُمّي بذلك لكثرة ورود لفظة «قوما» فيه، وهي فعل أمر من قام والألف للتوكيد. ووزنه شبيه بوزن الكان وكان.

الدوبيت مصطلح عروضيّ مركّب من «دو» الفارسيّة بمعنى اثنين،

---

(١) تعبير قرآني. راجع سورة الأعراف، الآية ١٦٩. وسورة مريم، الآية ٥٩: ﴿فخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة﴾.

(٢) أحمد البربير: كتاب الشرح الجليّ على بيتي الموصليّ، ص ٣ ـ ٤.

(٣) منى كرم: الإبداع ومعالمه في الفنون والصناعات الشعريّة المستحدثة في العصر المملوكي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية، ١٩٩٠.

و «بيت» العربيّة بمعنى بيت الشعر. إنّه شعر موزون لكنّه خارج عن بحور الخليل، وهو يتألّف من بيتين يتّفقان في الوزن والقافية وفي العروض والضرب. وإن نُظم الدوبيت على ثلاث قوافٍ سُمّي «الأعرج». وقد يأتي مجزوءًا، منوّع القوافي.

السِّلْسِلة شعر موزون يُنظم عادةً بيتين بيتين على قافية واحدة في الشطر الأوّل والثاني والرابع، وتسقط حركة الإعراب في آخر كلماته. وكثيراً ما يأتي هذا الشعر متأثّراً بالعاميّة.

أمّا الموشّح والزجل فغرضان شعريّان معروفان شائعان لا يحتاجان إلى الاستفاضة فيهما[1]. وينحدر الموشّح من الشعر الأندلسيّ خصوصاً، أمّا الزجل فمصطلح قديم دلّ منذ البدء على الشعر المنظوم باللهجات المحكيّة أو اللغات العاميّة المتداوَلة في الحياة اليوميّة وفي البيئات الشعبيّة بعد بروز ظاهرة الثنائيّة اللغويّة وازدواج اللسان العربيّ الأصوليّ بين فصحى وعاميّات.

وفي نظرة إجماليّة إلى أوزان «الفنون السبعة» نرى أنّ الشعراء لم يخرجوا عن عمود الشعر في الموشّح والدوبيت والسِّلسلة على الإجمال، واختلطت عاميّتهم بالمواليا، وشملت الزجل والكان وكان والقوما. ويلحظ المراقب المتتبِّع لفنون المواليا، والزجل، والكان وكان، والقوما، أنّ منشئيها تلاعبوا بالأوزان وشذّوا عن معهودها في كثير من الأحيان. والناظر في المصادر والمراجع التي عالجت هذه الأغراض الشعريّة يجد صعوبةً كبيرة في تحديد أوزانها تحديداً نهائيًّا واحداً، إذ تختلف المعاجم والدراسات في وصف هذه الأوزان، وهذا ناتج، ولا ريب، عن تناول العامة لهذه الأغراض. والشعر العاميّ، حتى أيّامنا، لم يحظَ بعد بضوابط مستقرّة ثابتة. ويمكن أن نعزوَ شذوذه هذا، خصوصاً، إلى تعرُّضه للإنشاد والتنغيم والغناء.

(١) جبور عبد النور: **المعجم الأدبيّ**، ص١١٢، ١٤٢، ٢٠٣ ـ ٢٠٤، ٢١٦، ٢٧٠؛ وميشال عاصي وإميل بديع يعقوب: **المعجم المفصّل في اللغة والأدب**، ٦٣٧/١، ٧٢٠/٢، ٩٦٣/٢، ٩٩٧/٢، ١٠٠٨/٢، ١٢١٥/٢ ـ ١٢١٦.

باء - المعلّم الياس إدّه

اشتهر المعلّم الياس ابن الشيخ يوسف إدّه[1]، وتطلّعت إليه الأبصار، وسارت في طلبه الرُّكبان راغبةً في قلمه البليغ، وخطّه الجميل، وحسن إدارته، وعلمه الواسع، من عكّا إلى بيروت فجبل لبنان وحلب، من الجزّار إلى فخر الدين المعنيّ، فالأميرين الشهابيّين يوسف وبشير، فمطران حلب جبرائيل كْنَيدِر. وحيثما حلّ كان مدار احترام وإعجاب، ودرّ له شعره المال الوفير.

عام ١٧٨٧، إذ فرّ من وجه الجزّار إلى حلب، نظم قصيدة يمدح فيها مطران الموارنة جبرائيل كْنَيدر، ومطلعها:

أَمُــنْـذِرٌ مَـلَكٌ قــد جــاءَ لـلبَشَــرِ ... أَمْ طـالعُ السَّعـدِ وافى داحضَ الكَـدَرِ
أَمْ ضـوءُ صُبْحٍ يُـلاشي ظلمـةً دَهَمَتْ ... أم الـبشـيــرُ أتى فـي أَطْيَـبِ الخَـبَــرِ
أَمْ ذا طَـبيـبٌ دَنـا يَشـفـي لِعِـلَّتِـنـا ... أَمْ أَقْبَـلَ الحَبْـرُ جبـرائيـلُ بـالـظَفَـرِ
العـالمُ العامـلُ الفـردُ الـذي سَـطَعَتْ ... فيــهِ فضــائـلُ مــا جُمِّعْنَ في بَشَــرِ
... حــلاّلُ مُشْكِلَةٍ كشّــافُ مُعْضِلَةٍ ... نَقّــادُ عــاطِلَةٍ بــالــذَّوقِ والــنـظرِ[2]

وبقي في حلب بضع سنوات وصف خلالها بعض القصور عام ١٧٩٠. ومن أبياته الوصفيّة:

---

(١) ولد المعلّم الياس إدّه في قرية إدّه/ قضاء جبيل عام ١٧٤١، وتوفّي في بعبدا عام ١٨٢٨ ودُفن فيها. اسم أبيه الشيخ يوسف إدّه، واسم أمّه قمرة من الأسرة نفسها. وفي مجلّة المشرق ١٨٩٩، ٢/ ٦٩٤ حاشية للأب لويس شيخو تقول: «وجاء في تاريخ الجزّار (ص ٣٦) أنّ اسم والده ابراهيم والصواب ما ذكرنا. وإنّما إبراهيم كان أخاً للمعلّم الياس كما تحقّقنا ذلك بخطّ المعلّم الياس نفسه».

(٢) المشرق ١٨٩٩، ٢/ ٦٩٦. ونقولا الترك: **حياة أحمد الجزّار**، ص ٣٩ - ٤٠. والبيتان الأخيران بتتابع الصفات في الأول، وتوقيع المبالغات في الثاني يذكّران برثاء الخنساء (٥٧٥؟ - ٦٦٤؟) لأخيها صخر إذ قالتْ فيه:

جَلْدٌ، جميـلُ المحيّـا، كـاملٌ، وَرِعٌ؛ ... ولـلحـروب غـداةَ الـرَوع مِسْـعـارُ
حَـمّـالُ ألـويـةٍ، هـبّـاطُ أوديـةٍ، ... شـهّـادُ أنـديـةٍ، لـلجـيش جـرّارُ!

(**المجاني الحديثة**، ج ٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٢، ص ٢٦٩).

قصـرٌ بَـدَا رَوضُ الحُبُـورِ أخـاهُ ... نَسَبـاً ومَـعْمـورُ السُّـرورِ أبـاهُ
زُرْنـاهُ نَجْلي للصَـدا أو نَجْتَـدي ... أُنْسَ التهـاني مِن رِحـابِ فنـاهُ
وَلِـذاكَ لمّـا أنْ شَكَى قَلْبي الضَّنَـا ... أَرَّخْتُ «إيـوانُ الخلاصِ شَفـاهُ»(1)

وقال في الأمير بشير لمّا أطلق لحيته عام ١٨١٢:

فـريـدُ العَصْـرِ مَـولانـا المُفَـدَّى ... بَـشِيـرُ الأمـنِ زَيَّنَـهُ الجَمـالُ
وجُـمِّعـتِ المَحَـامِـدُ فيـهِ حتّـى ... لِنُـورِ شِهـابِـهِ سَجَـدَ الهِـلالُ
ومُـذْ أَبْـدَى مُحَـيَّـاهُ عِـذاراً ... فنـادَى أَرِّخـوا «ظَهَـرَ الكمـالُ»(2)

وقال يمدحُ الأميرَ نفسَه:

بُشْـراكَ قـد وافى البشيـرُ بمَجْـدِهِ ... في أَبْتَـرٍ مَلَكَ الـوَغَى بِفِـرِنْـدِهِ(3)
يَحـكي فِـراسَـةَ عَنْـتَـرٍ وَجَـوادُهُ ... يُنْبِيـكَ عَنْ قَهْـرِ العَـدُوِّ وصَـدِّهِ
بِـلِواهُ سَـعْـدٌ بـاهِـرٌ وبِـكَـفِّـهِ ... نَهْـجُ العُلَى وَنَـوالُ غـايـةِ قَصْـدِهِ
مـا كـلُّ مَنْ رامَ العُلَى نـالَ المُنَى ... شتّـانَ ما بَيْنَ الحُسَـامِ وَغِمْـدِهِ(4)

وعند وفاة الجزّار (٢٩ نيسان ١٨٠٤)، قام المعلّم يهجوه مع غيره من الشعراء، وممّا قاله فيه:

وافى السُّـرورُ وَصَـحَّ تَرْجِيحُ الأَمَـلْ ... بِهَـلاكِ عِلْجٍ (5) لا يُعـادِلُـهُ مَثَـلْ
عينُ المَظالمِ والمَـآثمِ والـرَّدَى ... شـرُّ العـوالمِ إنْ تـفكَّـرَ أو عَمِـلْ
أحمـدٌ ولكنْ لَيْسَ يُحْمَدُ في الـوَرَى ... مَلْعُونٌ في ثوبِ المَسَاوي قد رَفَلْ(6)

---

(١) المشرق، ١٨٩٩، ٢/٦٩٧. والتاريخ الشعريّ يوازي عام ١٢٠٦ هـ.
(٢) المشرق ١٨٩٩، ٢/٧٤١ ـ ٧٤٢. والتاريخ الشعري يوازي عام ١٢٢٧ هـ.
(٣) جوهر السيف وَوَشْيُه؛ والسيفُ الفِرِنْد هو الذي لا مثيل له.
(٤) المشرق، ١٨٩٩، ٢/٧٣٧.
(٥) وردت «بهلاك غاشِمْ» في كتاب نقولا الترك: حياة أحمد الجزّار، ص ٩٦.
(٦) المشرق، ١٨٩٩، ٢/٧٣٨؛ ونقولا الترك: حياة أحمد الجزّار، ص ٩٦.

وإن لم يكن شعره من أرفع طبقات الشعر بحسب نظرتنا الجديدة، فإنّه يدلّ على تضلّعٍ من اللغة والبيان والعَروض، وعلى اطّلاع وافٍ على الشعر العربيّ القديم، وعلى ثقافةٍ وذكاءٍ وذوقٍ في اختيار المعاني المناسبة وصياغتها، وعلى تفاعله مع الأحداث بحيث جاء شعره معبّراً عن أماني الناس وتطلّعاتهم. ولقد اختطّ النهج الشعريّ السائر في عهده، وطوّع موهبته الأدبيّة للمقاييس الرائجة، فذاعت شهرته الشعريّة، كما شاعت شهرتاه الكتابيّة والحسابيّة، وبقي شعره محطّة يتوقّف عندها الدارس لحركة التطوّر في تراث لبنان الحضاريّ. وممّن وصفوا شعره وصفاً إيجابيًّا الدكتور كمال اليازجي الذي قال فيه: «وقد خلّف المعلّم الياس إدّه شعراً كثيراً لا يخلو من عذوبةٍ ورقّة»[١]. ولم يتلكّأ اليازجي عن أن يشهد له بالجودة في رثائه لسعيد الخوري عام ١٧٨٥، إذ قال:

لقد غبت يا شمسَ الكمالِ فأُرعدتْ ... فـرائصُنـا والحـزنُ للقـلبِ فـاطـرُ

وفـاضتْ ميـاهُ الـدَّمـعِ منّـا، فمـا لنـا ... وَحَقِّـكَ قلبٌ بعـد فقـدِكَ صـابـرُ

لِتَبْـكِ المعـالي بعـد بُعْدِكَ حَسْـرَةً ... كما لَبِسَتْ ثوبَ الحِدادِ المـفاخرُ...[٢]

جيم ـ القسّ حنانيا المنيّر

احتلّ القسّ حنانيا المنيّر[٣] مركزاً بارزاً، وذاعت له شهرة واسعة في الشعر، وإن لم يكن نظمه «من النمط العالي» كما عبّر الأب لويس شيخو الذي قال عنه في الوقت نفسه إنّه «رقيق، منسجم العبارة، بليغ المعاني»[٤]. ولكي نتّصل بشعره اتّصالاً مباشراً وتتّضح لنا منزلته، نورد باختصار بعض نماذجه المعبِّرة في مختلف الأغراض.

---

(١) روّاد النهضة الأدبيّة، ص ٤٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(٣) ولد في زوق مصبح (١٧٥٧ ـ ١٨٢٠) وهو راهب شويريّ من رهبان مار يوحنّا الصابغ. تآليفه: الدرُّ المرصوف في حوادث الشوف (١٦٢٧ ـ ١٨٠٧) ـ تاريخ الرهبانيّة الحناويّة ـ مختصر البيان في مَجرَى الزمان ـ مقامات ـ مجموعة أمثال تبلغ بضعة آلاف (٤٠٠٠ مثل؛ المشرق، ٤/١٩٠١، ص ٩٧٣) ـ قصائد متفرّقة ومنها زجليّات باللغة العاميّة (الأب لويس شيخو: كتاب المخطوطات العربيّة لكتبة النصرانيّة، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٤) المشرق، ٤/١٩٠١، ص ٩٦٩.

من قولٍ دبّج به مقدّمة كتابٍ له:

الـمـوتُ سُمٌّ قـاتـلٌ فـيـنـا سَـرَى ... حُكْمٌ مِنَ البـارِي على كُـلِّ الـوَرَى
هَـلْ يَعْلَمُ الإنسَـانُ يـومَ وُقـوعِـهِ ... أمْ كَيْفَ أمْ أيْنَ الـوَقِيعَـةُ يـا تُـرَى
لـو كُنْتُ أبْـصِـرُهُ مَنَعْتُ قُـدومَـهُ ... لـكـنَّـهُ لِصٌّ خـفـيٌّ لا يُـرَى... (١)

ومن شعره في وفاة أحمد باشا الجزّار سنة ١٨٠٤:

ظهـرَ الحُبُـورُ فـلاحَ فينـا وَانْتَشَـرْ ... وَقَـدِ اضْمَحَـلَّ الغَمُّ عَنّـا والكَـدَرْ(٢)

وقال يُهنّىء سليمان باشا يوم دخل عكّا ليتولّى أمرها بعد الجزّار:

لَهَـوَى الأحبَّـةِ فـي الفُـؤادِ مُخَيِّـمُ ... نيـرانُـهُ بَيْنَ الجـوانـحِ تُضْـرَمُ
رُوحـي تُعـانـي مِنْ معـاني حُبِّهـم ... عِـلَلاً ولـي جِسْـمٌ يُعَـلُّ ويَسْـقَـمُ
شُغْلِي وشَـوْقي والحَـديثُ ومِحْنَتي ... فـيـهـمْ إليـهـمْ ثُمَّ عَنْهُـمْ مِنْهُـمُ
... يـا مَنْ سَكَنْتُمْ في الفؤادِ تَرَفَّقـوا ... وَلَـكُـمْ عـلـيـنـا مِـنَّـةٌ وَتَـكَـرُّمُ
أنْـتُـمْ أحـبَّـتُـنـا الـكـرامُ وإنّـمـا ... أعْـدَى الـعِـدَى مِنْكُمْ أرَقُّ وأرْحَـمُ
... لا تَسْلُكوا طُرُقَ التعسُّفِ واقْتَفُوا ... آثـارَ مـولًـى مِـثْـلُهُ مَـنْ يَـرْحَـمُ
أعْـنـي سُـلَيمـانَ الـسَّـلامـةِ مَنْ لَـهُ ... فـي أمَّـةِ الإسْـلامِ عَـدْلٌ يُـعْـلَـمُ
مَنْ قَدْ غَدَا بَحْرَ النّدَى رَيَّ الصّـدَى ... نَهْـجَ الهُـدَى قَهْـرَ العِـدَى إذ يَهْجُمُ

والبيت الأخير:

وإذا انْتَهَى شِعْـرِي بِمَـدْحِـكَ مَـرَّةً ... أرَّخـتُ يُبْـدَأُ مَـدْحُـكُمْ لا يُـخْـتَـمُ(٣)

يمتاز شعر حنانيا المنيَّر، بوجه عام، بسهولة إخراجه وحسن مساغه، فهو ينظم كما يتكلّم، وكأنّه أبو العتاهية (٧٤٨ ـ ٨٢٥) الذي قال: «لو شئتُ أن

(١) المشرق، ٤/١٩٠١، ص ٩٧٠.
(٢) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
(٣) المرجع نفسه، ص ٩٧٠ ـ ٩٧٢. والتاريخ الشعريّ يوازي عام ١٢١٩ هـ (١٩٠٤ م).

أجعل كلامي كلّه شعراً لفعلت»[1]. ومن نوادر ما جاء فيه تقريظ عبد الله اليازجي والد الشيخ ناصيف (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) لديوانه[2] بأبيات لم يحفظ منها حفيده الشيخ إبراهيم سوى بيتين هما:

عِشْ بـالهَنـا والـخَيـرِ والـرِضْـوانِ   يـا مَنْ عُنيتَ بِنَـظْمِ ذا الـدِّيْـوَانِ
إنّـي لَـقَـدْ طَـالَـعْـتُـهُ فَـوَجَـدْتُـهُ   نَـظْماً فَـرِيداً مـا لَـهُ مِنْ ثـانِ[3]

تجنّب القسّ المنيّر ما يثقل الشعر من تصنّع وتكلّف وتزويق لا يتطلّبه المعنى، ونظم شعراً سويًّا قريب المتناول بغير تشذيب ولا إجهاد، فكان بذلك نهضويًّا مجدِّداً في العهد العثماني، ولا يقلّل مدحه للوالي من قيمة شعره لأنه سلك فيه مسلك عصره.

دال ـ دِيـده كوز Didacus بن أنطون فرنجيّة

ليس لنا، ونحن ندرس تباشير النهضة الأدبيّة في لبنان خلال القرن الثامن عشر، أن نُغْفِل شاعراً حلبيّ المولد والمنشأ؛ والأرجح، كما يقول الأب لويس شيخو، أنّ أسرته المارونيّة التي اقتبست اسمها من الصليبيّين في القرون الوسطى، انتقلت من لبنان إلى حلب في أواسط القرن السادس عشر على عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤)[4]. وأسرة فرنجيّة معروفة في بلدة إهدن. وقد ذكرنا سابقاً ما قدّمته مدينة حلب وحركتها الثقافيّة الناشطة في القسم الثاني من القرن السادس عشر من فوائد أدبيّة ودينيّة للبنان دفعت نهضته قُدُماً إلى الأمام. والتفاعل بين لبنان وحلب، وبين لبنان وسورية عموماً وانتقال الأسر والتزاوج بينهما لم يخمد يوماً منذ نشوء الدولتين الجارتين.

وصل إلى لبنان من آثار ديده كوز فرنجيّة كتابٌ مخطوط بعنوان:

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصريّة بالقاهرة، ١٩٣١، ٤/١٣.
(٢) يبدو أنّه جمع شعره في ديوان فُقد من بعده.
(٣) ديوان الشيخ ناصيف اليازجي، دار مارون عبّود، ١٩٨٣، ص١٧ ـ ١٨؛ والأب لويس شيخو: الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر، ٢/٢٧؛ وأعلام النهضة الحديثة، دار الحمراء للطباعة والنشر، ١٩٩١/٢، ص٢٨٣.
(٤) الأب لويس شيخو: شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ٤/٥٠٧.

«**المجموع المنتظم من فرائد الكلم**» الصادر عام ١٧٨٠، وحُفظ في مكتبة عيسى اسكندر المعلوف في مدينة زحلة، وفيه حكم، وأمثال، ونوادر، وفكاهات، ومنتخبات شعريّة على طريقة التأليف آنذاك[١].

وعنوان كتابه المخطوط هذا يدلّ على نهجه وعلى فحواه، إذ حرص المؤلّف فيه على الجدة في الأسلوب والغرابة والتشويق في العرض؛ فالكلام فيه فريد من نوعه، خصوصاً في الإخراج الذي يدلّ على طبع صاحبه الجانح إلى الظريف المعجب والشائق الممتع. ويفصح العنوان عن أنّ الكتاب مجموع متجانس من الكلام الشبيه باللآلىء الكبيرة، وهو تشبيه شائع معروف. وقد تأتي اللطافة عنده من طرافة تشبيه التمثيل ومفاجأته:

لا تَـعْـجَـبَـنَّ بـطالـبٍ نـال الـعُـلى ... كَهْـلاً وأُخْفِضَ فـي الـزَّمـانِ الأوّلِ
فـالخمرُ تحكمُ في العُقـولِ مُسِنَّـةً ... وتُـداسُ أوّلَ عَصْـرِهـا بـالأَرْجُـلِ

وكما اعتمد الطرافة في الأسلوب التزم التنويع في الموضوعات، بحيث لا يملّ القارىء. واستلّ موضوعاته من الأغراض الشعريّة الذائعة في زمانه كالإخوانيّات والوصف والهجاء والموشّح والزجل والبديعيّات. ومن ظريف أقواله على لسان قهوة الخمر تهجو قهوة البُنِّ:

سَمِعْتُ لسـانَ الحالِ من قَهْـوَةِ الطِّلا ... تقـولُ هَلُمُّـوا وَاسْمَعـوا نَصَّ أَخْبـاري
فبـاْسمِي تَسَمَّتْ قهـوةُ البُنِّ في المَـلا ... ولكِنّهـا لم تحْكِ بـالفضـلِ أَخْمـاري
فَمِنْ كَـذْبها قـد سـوَّدَ اللّهُ وَجْهَهـا ... وعَـذَّبَهـا بَعْـدَ الإهـانـةِ بـالنّـارِ[٢]

ولم يفته إظهار مقدرته وتفنّنه على غرار أهل زمانه في التزام شعر يُقرأ طَرْداً وعَكْساً، ويذكّر بما درج عليه الشعراء حتى أواخر القرن التاسع عشر، وخصوصاً ما قرأناه في «مجمع البحرين» للشيخ ناصيف اليازجيّ. قال ديده كوز:

(١) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
(٢) الأب لويس شيخو: شعراء النصرانيّة بعد الإسلام: ٥٠٨/٤ ـ ٥٠٩؛ والمشرق ١٨٩٩، ٤٤٦/٢.

عَـدَلُـوا فـمـا ظُلِمَت بـهِـمْ دُوَلٌ   سَـعِـدوا فـمـا زلَّـت بِـهِـمْ قَـدَمْ
بـذلـوا فـمـا شَـحَّـتْ لَـهـم شِـيَـمٌ   رَشَـدوا فـمـا زَالَـتْ لَـهُـمْ نِـعَـمُ

وإذا عُكِسَ هذا الشعر المدحيّ انقلب هجاءً على الوجه التالي:

قَـدَمٌ بِـهِـمْ زَلَّـتْ فـمـا سَـعِـدوا   دُوَلٌ بِـهِـمْ ظُـلِـمَـتْ فـمـا عَـدَلـوا
نِـعَـمٌ لَـهُـمْ زالـتْ فـمـا رَشَـدوا   شِـيَـمٌ لَـهـم شَـحَّـتْ فـمـا بَـذَلُـوا

وله مناظرة في الشعر العاميّ بين التبغ والقهوة، أوّلها:

قِـصَّـةٌ جَـرَتْ بيـن التُّتْنِ والـقَهْـوَهْ   وَتَـفَـاخَـرَ الاثـنـانْ وزادا بـرهـانْ

وفي آخرها:

قـال الـعَـرَقُ نـحـنُ رفـاقُ جُـمْـلَه   في جَمْعِنا نَخْدُمُ أهـلَ الكَيْفْ...[1]

فتبدو غايته في انتهاج هذا المجرى ترفيهيّة صِرْفاً، ولا تقصد الفنّ الشعريّ بحدّ ذاته.

وفي مجلّة المشرق[2] دائرتان تتضمّنان قصيدتين، قافيّة وعينيّة، تأنّق في تصويرهما بحبرين أسود وأحمر. وكلٌّ بيتٍ يبتدىء من مركز الدائرة وينتهي إليه بعد استدارته على شكل عجيب[3]. الدائرة الأولى تبتدىء بقوله:

قَـرَعْتُ لِبابٍ قـد حَـوَى أبْحُـرَ النَّدَى   وأُقـسِمَ لـي في كـلِّ بَـحْـرٍ تَـعَـمُّـقُ

ومطلع أبياتِ الثانية:

عَبَرْتُ لِمَدْحِ التـاجِ في النظْمِ أرتـعُ   وَقُلْتُ لِقَلْبي أنْـتَ لا شَـكَّ مُـوْجَـعُ

وقوامهما، كما ترى، ثنائيّات مركّبة تركيباً لكي ترضي أهل زمانه. ولا شكّ في أنّه أرق الليالي في صناعتهما، على ما حباه الله من موهبة، وسلّح

(١) المرجعان أنفسهما: ٤/٥٠٩؛ و٢/٤٤٧.
(٢) المشرق ١٨٩٩، ٢/٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(٣) الأب لويس شيخو: شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ٤/٥١٠.

به نفسه من مهارةٍ وعلم. وهو لا يتواضع في إخفاء قُدُراته، بل يقسم لمن يشكّ في عمق معارفه، كما جاء في الشطر الثاني من مطلع قافيّته.

وبعد اطلاعنا على شعر دِيدّه كوز وألاعيبه ومهاراته الأسلوبيّة التقليديّة، نبدي ملاحظة عامةً انتظمت الشعراء عموماً، آنذاك، إذ وجّهوا تفكيرهم وبنوا مخطّطاتهم ليس لأدبيّة النص، لكنْ لبراعة التقليد وطرافة الإخراج.

هاء ـ شعراء جبل عامل

كثر شعراء جبل عامل في القرن الثامن عشر، وساء بعضهم ما نظمه المتصوّفون وادّعوا فيه الحلوليّة، كما ادّعاها الشيخ عبد الغني النابلسي (١٦٤١ ـ ١٧٣٠) المقيم في دمشق[1]، وكان مُتَألِّهاً، فقام الشيخان ابراهيم وأحمد الحرّ يردّان عليه عام ١٧٢٣، وقد تخلّلت شعرهما نزعة فكريّة متحدّرة من الفلسفة العربيّة القديمة، وتبنّيها الجدل والعقل في تفسير المعاني الوجوديّة والروحيّة، ومجابهتها البدع الطارئة بأصوليّة الشرع. ومطلع قصيدة الشيخ إبراهيم:

وجـودي جـلّ عَـنْ إسْـمـي ... وعَـنْ رُوحي وعَـنْ عَـقْـلي
وَعَـنْ شَـرحي وتَـكْـليـفـي ... وعَـنْ حُـكْـمي وعَـنْ نَـقْـلي
وَأَمْـري مُـطْلَقٌ حـتـى ... عَـنِ الإطـلاق يَـسْـتَـعْـلي
وَعَـنْ ذاتٍ وعَـنْ وَصْـفٍ ... وعَنْ بَعْضٍ وعَـنْ كُـلِّ...[2]

ومطلع قصيدة الشيخ أحمد:

رُوَيـداً يـا أخـا الـفـضـلِ ... مَـزَجْـتَ الشَـهْـدَ بـالـخـلِّ
أَذَعْـتَ الـشـرَّ يـا هـذا ... شَـرَيْـتَ الـجَـورَ بـالـعَـدْلِ

---

(١) من أعظم الوجوه الصوفيّة التي شغلت بشخصيّتها وتآليفها العالم الإسلاميّ وبخاصة بلاد الشام في القرن الثامن عشر. رحل إلى البقاع وبعلبك وجبل لبنان وكتب «الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز»، وإلى طرابلس الشام وكتب «التحفة النابلسيّة في الرحلة الطرابلسيّة». وله أكثر من ثلاثمئة مؤلّف يحتلّ التصوّف المكان الأوّل فيها. وديوان شعرٍ بعنوان: «ديوان الحقائق ومجموع الرقائق». وله شعر كثير متفرّق في معظم كتبه.

(٢) حيدر الشهابيّ: **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين**، ١/١٨.

فَتَحْتَ القُفْلَ يا شامي فَقَدْتَ العِلْمَ بالجَهْلِ
تعالى ذاتُ ذي الفَضْلِ عَنِ الأشباهِ والمثلِ
وَعَنْ كَيْفٍ وَعَنْ أَيْنٍ وَعَنْ إدْراكِ ذي عَقْلِ...[1]

وكان لأحوال الشيخ عبد الغني النابلسيّ الصوفيّة تأثير واسع في لبنان. قال فيه الأمير حيدر الشهابي (١٧٦١ ـ ١٨٣٥): «وكان شاعراً فصيحاً. له أشعار حسنة. وصنّف ديوان غزل افتخر على الشعرا به. وخمّس القصيدة الخمريّة الذي إلى الشيخ عمر الفارض. وكان الإسلام تعتقد به أنّه وليّ عظيم. وهو كان يعتقد على مذهب الصوفيّة الذي اعتقادهم أن الله عزّ وجلّ موجود في كلّ إنسان متّحداً بذاته وصفته الربّانيّة...»[2]، ونعته «بصاحب المقام القدسيّ»[3].

ونستطيع أن نتفهّم موقف الشاعرين الشيخين إبراهيم وأحمد الحرّ من مذهب الشيخ عبد الغني النابلسي الصوفيّ الحُلُولي، على ضوء ما مرّ بنا سابقاً في دراسة نهضة جبل عامل وشيوع المدارس والعلوم النقليّة والعقليّة فيه، ما جعل شيوخ العامليّين وعلماءَهم يتقيّدون بالشرع مجتهدين متذرّعين بعلوم الفقه والمنطق، غير منجرفين بشطحات المتصوّفين وتألّههم.

ولن نطيل الوقوف عند شعراء جبل عامل في القرن الثامن عشر لكثرة عددهم وتوافر الأبحاث المختصّة بهم.

واو ـ نماذج مختارة وتحليل

رأينا أن نتوقف توقُّفاً وافياً عند نماذج شعريّة من القرن الثامن عشر فنذهب فيها تفصيلاً وعمقاً مبيِّنين، من خلالها، أساليب الشعراء وثقافتهم، إذ إنّ الإطالة في درس الأعلام واستيعابهم جملةً يخرج عن إطار دراستنا الموسومة بتباشير النهضة الأدبيّة، والمتعقّبة لأبرز منائرها. وانتقينا منتخبات للشاعر **أحمد**

(١) المصدر نفسه: ١/٢٠.
(٢) المصدر نفسه: ١/١٨.
(٣) المصدر نفسه: ١/٨.

البربير لذيوع شهرته، بل لاتخاذه مدرسةً لها تلاميذها، ومنهم المفتي الشاعر **عبد اللطيف فتح الله**[1] الذي اخترنا له مقطّعات تنبىء عن ميزته.

أحمد البربير

كأنّنا ونحن نصطفي البربير نموذجاً لشعراء القرن الثامن عشر، محلّلين شعره، مستنتجين منه خصائص بارزة، نستوحي خطّ الشاعر نفسه وقد وصلنا منه تعليق وشرح وتوسيع مُسهب لبيتين من الشعر أعجباه من ديوان الشاعر الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرحمن... بن ناصر الميداني، الصوفيّ المعروف بالمَوصليّ الذي عاش في آخر القرن السابع عشر بحيث تكوَّن له مُصَنَّف كامل بعنوان «كتاب الشرح الجليّ على بيتي المَوصليّ». والبيتان هما:

إنْ مـرَّ والـمـرآةُ يـومـاً فـي يَـدي   مِنْ خَلْفِـهِ ذو اللُّطفِ أسْمَى مَنْ سَمَـا
دَارَتْ تمـاثيـلُ الـزُّجاجِ ولم تَـزلْ   تَـقْفُـوهُ عَـدْواً حيثُ سـارَ ويَـمَّمَـا

فأراد البربير حلّ رمزهما وفتح كنزهما ورفع لثامهما. ولم يتوصّل إلى جوهره، كما قال، إلاّ بمقدّمات تكون أمامهما كالنجوم ليهتدي بها إليهما كلّ ضالٍّ عنهما وهائم. وهكذا كان كتابٌ في حوالَى خمسمائة وخمسين صفحة في اللغة والبيان والعلوم المعروفة على أنواعها، مرصَّعةً بشواهد شعريّة كثيرة[2].

قال أحمد البربير في طبيب:

رأيـتُ طَـبًّـا لَـهُ نِـفـارٌ   يَـتـيـهُ فـي مَـشْـيِـهِ دَلالا

---

(١) ولد في بيروت (١٧٦٦ - ١٨٤٤) في بيت علم. والده العلاّمة المفتي الشيخ علي أفندي فتح الله. مال إلى الشعر فتعهّده قريبه (ابن خال جدّته) الشيخ أحمد البربير. نظم الشعر صغيراً (١٣ سنة). انتقل إلى دمشق بعد عام ١٧٨٨ حيث انصرف إلى طلب العلوم العقليّة والنقليّة. عاد إلى بيروت بعد ستّة أعوام تقريباً إذ تولّى منصب الإفتاء حوالى ١٧٩٤. له ديوان شعر في جزأين، تحقيق زهير فتح الله ومراجعة محمّد الحُجيري، دار النشر فرانْتس شتايْنر بفيسبادن، بيروت ١٩٨٤.

(٢) في آخر الكتاب خاتمة الطبعة الأولى لإبراهيم الأحدب الطرابلسي (١٨٢٦ - ١٨٩١) الذي ندبه الشيخ محمد بن عمر البربير (طابع الكتاب على نفقته) إلى تصحيحه وتهذيبه وتنقيحه... (ص ٥٤٤).

فقلتُ مَنْ أنْتَ يا حَبيبي   هل راحِمي أنْتَ قالَ لا لا

وفي التوحيد:

لقدْ آمنْتُ باللَّهِ   وأصْبحْتُ بِهِ آمِنْ
هُو الأوّلُ والآخِرُ   والظاهرُ والباطِنْ

وفي التقشّف والاستسلام:

خرجْتُ من سجنِ نفْسي   ومن حُظوظيَ والجاهْ
وفي جميعِ أمُوري   أسْلَمْتُ وجهي لِلَّهْ

وفي كبح الشهوات:

إنّ الذين يُجاهِدُو   نَ النَّفْسَ شبّاناً وشيبا
منَ الإلهُ بِنصْرِهِمْ   وأثابَهُمْ فتْحاً قريبا

وفي تاجرٍ سها عن الآخرة:

يا تاجِراً لا يزالُ يَرْجُو   رِبْحاً وَيَخْشَى مِنَ الخسارةْ
عبادةُ اللّهِ كلَّ حين   خيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ والتجارةْ

وقال يصف دار أسعد باشا وكان حَلّها أبو السعود محمّد بن عليّ:

يا دارَ أسْعَدَ باشا   لكِ النَّعيمُ المُخَلَّدْ
بِطَلْعَةِ ابنِ عليٍّ   أبي السُّعودِ مُحَمَّدْ
بَدْرٌ يزيدُ كمالاً   مِنَ النجومِ تولَّدْ
ذو هِمَّةٍ غار منها   حَدُّ الحُسامِ المُجَرَّدْ
أماترى السَّيْفَ مِنْها   في جَفْنِهِ بَات مُغْمَدْ
ولُطْفُهُ في البَرايا   مِمّا فَشا وتَأكّدْ
حَتّى غدا كُلُّ شَخصٍ   بهِ يُقِرُّ وَيَشْهَدْ
كأنَّهُ من نَسيمِ الـ   ـقَبولِ باتَ مُجَسَّدْ
أمَا ترى وَرْدَ خَدِّ الـ   ـرياضِ مِنْهُ تورَّدْ
والبَحْرُ لمّا رَآهُ   يجودُ أرْغى وأزْبَدْ
والدَّهْرُ باتَ غُلاماً   لِمَنْ عليهِ تردَّدْ
فتىً لَهُ ابْيَضَّ حَظّي   من بعدِ ما كان أسْوَدْ
يا سيِّدي عِشْ سَعيداً   فإنَّ جَدَّكَ أسْعَدْ
وسوفَ تَرْقَى لأوجٍ   مِنَ الكواكبِ أبْعَدْ
فاحْفَظْ بشارَةَ عَدْلٍ   بها الفِراسةُ تَشْهَدْ
واسْلَمْ وَدُمْ في سُرورٍ   ما طائرُ الصُّبْحِ غرَّدْ

ومن مراثيه قوله في الأمير منصور الشهابيّ[1] لمّا تُوُفّي عام ١٧٧٤:

سَقَى هـذا الضريحَ سَحابُ فَضْلٍ ... وعَمَّمَ بالرِّضى مَنْ في ثَراهُ
أميراً كان في الدنيا شهاباً ... ومنصوراً على قومٍ عَصاهُ
فإنْ يَكُ مِنْ عُيُوني قد توارَى ... فَحَسْبي أنَّ قلبي قد حواهُ
فلمّا سارَ للفردوسِ فوراً ... وقَرَّبَهُ المُهَيمِنُ واصطفاهُ
أتى تاريخُهُ في بيتِ شِعْرٍ ... يَوَدُّ البَدْرُ أن يُعْطَى سَناهُ
فمُهْمَلُهُ ومُعْجَمُهُ وكُلٌّ ... مِنَ الشَطْرَيْنِ تاريخاً تراهُ
شهابُ الرَّحْمَةِ المولى عليهِ ... هوى لِلتُّرابِ بَدْرٌ من رُباهُ[2]

في نظرة عامّة يبدو لنا هذا الشعر قريباً من الحياة الاجتماعيّة ونابعاً منها، صحيح الأسلوب، متينه، يدلّ على مقدرة لغويّة وبيانيّة، وفيه تلاعب مقصود في التعبير والمعاني. إنّه ردّة فعل على العاميّة والركاكة المتفشّيَين في الأمّيين وأشباههم من المتأدّبين والمترسِّلين.

يستعمل الشاعر في الشاهد الأوّل لفظتَي «طَبّ» و«نِفَار». والطَبُّ في «محيط المحيط» و«أساس البلاغة» هو الماهر الحاذق بعمله، وهو البعيرُ يتعهّد مواطىءَ خُفّه أين يضعه، والفحل الحاذق بالضراب، والعالم بالطِبّ. قال عنترة:

إنْ تُغْدِفي دوني القِناعَ فإنّني ... طَبٌّ بِأَخْذِ الفارسِ المُسْتَلْئِمِ

---

(١) هو الأمير منصور حيدر. حكم لبنان بعد تنازل أخيه ملحم بالاشتراك مع أخيه أحمد (١٧٥٣ - ١٧٦٣) ثم وحده (١٧٦٣ - ١٧٧٠). تنازل لابن أخيه الأمير يوسف بعد غزو محمد أبي الذهب(*) لسورية. تزعّم الحزب الجنبلاطي. توفّي في بيروت (كمال الصليبي: **تاريخ لبنان الحديث**، ص ٤٠، ٤١ - ٤٩، ١٧١).

(*) محمد أبو الذهب (ت ١٧٧٥): مملوك علي بك الكبير وصهره وابنه بالتبنّي. فتح الحجاز واحتلّ دمشق وتولّى حكم يافا وصيدا. انقلب على سيّده وتغلّب عليه وحكم مصر. أحرق دير الكرمل وقتل رهبانه. حاصر ظاهر العمر في عكا. مات مسموماً (المرجع نفسه، ص ٤٥؛ وفيليب حتّى: **لبنان في التاريخ**، ص ٤٧٩).

(٢) لويس شيخو: **الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر**، ١/٢٦ - ٢٧.

وقال آخر بمعنى العِلم:

لا يَرِبْكِ الذي تَرَيْنَ فـإنَّ الـ ـلَّهَ طَبٌّ بمـا تَـرَيْنَ عَليمُ[1]

والنِّفار مثل الجِران. يُقال في الدابة نِفارٌ، ونفر القوم عن كذا: أعرضوا وصدُّوا.

إنّه يصف هذا الطبيب الشامخ الأنف بما توصَف به الدواب، بالنِّفار، بعد أن وصفه بالحذق تهكُّماً. وفي تكراره معنى التفاخر (يتيه دلالا) تأكيد لطبعه وإغراق بصورته. ثمّ يتعهّده باللطف والحسنى ويدانيه بحبّه، لكنْ من غير طائل. يُقابل الطبيب عاطفته بالرفض المكرّر، حتّى إنّه يستكثر عليه الرحمة لا المحبّة والعدل. وكأنّ الشاعر مجرم أمام حكم القاضي[2]. وماذا يجدي مع هذا الكائن الفاقد لكلّ رحمة؟ ألا نجد في هذين البيتيـن عمقاً فكريًّا ومعرفةً نفسيّة بالإنسان؟ ومع ذلك، ينقصهما ليكونا من الشعر الرائع العاطفة الوهّاجة والتوتّر والخيال. إنّهما يمثّلان صورة واقعيّة، وتأمُّلاً أمامها. والصورة اجتماعية، والتأمُّلُ عميق، والتأثّر حاصل، والحوار يمدّ الشعر بالحركة والحياة، ولكنّه يطبعه بطابع الجدل. والجدل من الفكر. وتجاهل العارف في السؤال محاولةٌ لإعادة الأمور إلى نصابها. ويبقى شيءٌ آخر يهزّ ويطرب ولا يتوفّر إلاّ في الشعر الرائع.

وفي الشاهد الثاني إيجاز لكثير من المعاني: يؤكّد الشاعر فيه إيمانه بالله (لقد)، والشطر الثاني دليل راحة واطمئنان. والجناس يوحّد بين الإيمان والأمان. والمدّتان على ألفي آمنت وآمن يطيلان التوقُّف عند اللفظتين، ويطيلان، بالتالي، الشعور بالراحة ويعمّقان الإيمان. وأمان الشاعر متأتٍّ من إيمانه، ولولا إيمانه الراسخ لما كان أمانه وطيداً. وإيمان الشاعر والقاضي، آنذاك، يجعل منهما موضع ثقة في مجتمع يشكّل الدين أسمى قيمه ويتسلّط

---

(١) الزمخشري: أساس البلاغة، دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦٥، ص ٣٨٢.

(٢) نُذكّر بأنّ الشاعر تولّى القضاء في بيروت. حمله عليه يوسف الشهابيّ، فتولاّه ونهض بأعبائه ثمّ استعفى منه وَرَعاً وتقوى (الشرح الجليّ على بيتي الموصليّ، ص هـ).

على تقاليده وأعرافه. ولله كل تجلّة وإكرام يُشيعهما ضمير الشأن (هو) مكان اسم الجلالة. و «الأوّل والآخِر» كناية عن كامل الوجود. أمّا معناهما الحرفيّ، فلا ينطبق على الله السرمد الذي لا بداية له ولا نهاية. والشطر الأخير يدلّ على اطّلاع الشاعر على مسائل اللغة والفلسفة العربيّة القديمة التي تتحدّث عن ظواهر الأشياء وبواطنها. والظاهر خلاف الباطن ومن أسماء الله الحُسنى. إنّه هو الذي ظهر فوق كلّ شيء وعلا عليه. قال الراغب الأصفهاني[1]: «الظاهر والباطن في صفة الله تعالى، ولا يُقالان إلّا مزدوجين كالأوّل والآخر. فالظاهر إشارة إلى معرفتنا البديهيّة، فإنّ الفطرة تُفضي في كلّ ما نظر إليه الإنسان إلى أنه تعالى موجود. والباطن إشارة إلى معرفته الحقيقيّة. وقيل ظاهر بآياته باطن بذاته»[2]. وهذه المعاني النقليّة المحفوظة دليل على تعمّق الشاعر بالمسائل الدينيّة، ولا غروَ، فالفقه مفتاح القضاء. ويأتي الطباق كالجناس فيشفي غلّة الشاعر من المحسِّنات اللفظيّة. وبذلك نرى أن الشعراء الكبار، آنذك، ما كانوا يستسهلون صناعة الشعر، بل كانوا يسكبون فيه كلّ درايتهم.

وفي الشاهد الثالث دليل آخر على اطّلاع الشاعر على الفلسفة العربيّة القديمة والأفلاطونية المستحدثة التي شاهدنا أثرها في قصيدة ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) العينيّة[3] حيث يصف النفس وهي تحاول التفلّت من سجنها الماديّ لتتّصل بالملأ الأعلى. وإنّما الحظوظ والجاه سجن للنفس، أَوَلَمْ يقل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١):

والحرُّ في الأَرْضِ يَبْني من مَنازِعِهِ سِجْناً لـه وَهْـوَ لا يَـدْري فيُؤتَسَـرُ؟[4]

---

(١) الحسين بن محمّد (ت ١١٠٨ م) إمام اشتُهر بالتفسير واللغة. أصله من أصفهان وأقام في بغداد. له «الذريعة إلى مكارم الشريعة»، و«جامع التفاسير»، و«مفردات ألفاظ القرآن»، و«محاضرات الأدباء».

(٢) المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان ١٩٨٣، ص ٥٦٨. وجاء في «سورة الحديد»، الآية ٣ ﴿هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن﴾.

(٣) مطلعها:
هَبَـطَتْ إليـكَ مِنَ المَحَـلِّ الأرْفَـعِ وَرْقـاءُ ذاتُ تَـعَـزُّزٍ وتَـمَـنُّـعِ
(عبده الشمالي: تاريخ الفلسفة العربيّة الإسلاميّة، دار صادر، بيروت، ط ٥، ١٩٧٩، ص ٣٨٧).

(٤) المجموعة الكاملة، مكتبة صادر - دار جبران، بيروت ١٩٨١، المواكب، ١/ ٨.

وهل يعني هذا عند البربير أنّ النَفس طاهرة في كلّ الأحوال وسجنها الماديّ عبءٌ عليها وهوالمتشبّع من القرآن الكريم، الحافظ لآياته، والآية الثالثة والخمسون من سورة يوسف تدين النفس بقولها: ﴿إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوء﴾؟ ولا يلبث الشاعر أن يؤكّد إسلامه التام وعدم مماراته في شؤون الدين، سنداً للآية العشرين من سورة آل عمران وفيها: ﴿فإنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وجهيَ لله﴾. وهو يستعمل بحر المجتَثّ القصير الذي يوصل شهادته بسرعة وثبات. وأكّد إرادته بقرار نهائيّ لا يقبل التراجع. والتأكيد والثبات واضحان في التشديد على معاني السجن والارتهان الكامنين في الإغراء الماديّ والمعنويّ، وفي تقديم الجار والمجرور على العامل (فعل أسلمت). وكأنّ الشاعر يُنهض ذاته من أسفل إلى أعلى وهو ينتقل من الياء في آخر الصدر إلى الألف والهاء الساكنة في آخر العَجُز، مع ما في الهاء الساكنة من نَفَسٍ مديد يخرج من الأعماق.

وكأنّما الشاهد الرابع تابع للثالث، إذ ليس الخروج من سجن النفس بهيّن. وعلى المرء أن يصبر وأن يجاهد نفسه ويحاول دوماً التغلّب عليها. وفي هذين البيتين تأثّر واضح بالقرآن الكريم. فالآية الأربعون من سورة النازعات تقول: ﴿وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى، فإنّ الجنّة هي المأوى﴾. والآية الحادية عشرة من سورة الرعد تقول: ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾. أمّا النصر والثواب والفتح، ففي كتاب الله وعود كثيرة بها للذين آمنوا وعملوا الصالحات. والآية الثامنة عشرة من سورة الفتح تنصّ على عَجُز البيت الثاني كاملاً: ﴿فأنزل السكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾. وفي الشعر وعظ ظاهر، ومقام السيّد أحمد البربير الحَسَنيّ[1] المعلّم القاضي يفرض عليه مثل هذا المقال. وهو يؤكّد بـ «أنّ» في أوّل شعره، ويتّبع أسلوباً شبيهاً بأسلوب القرآن، وينبّه إلى أنّ الجهل والسَّفَه لا يقتصران على الشبّان وإنّما على الشّيب أيضاً أن يجاهدوا نفوسهم. ويأتي شعره عفويًّا، منساقاً انسياق النثر بغير تكلُّفٍ أو شِقّ نفس.

(١) المتنامي إلى الحَسَن وعليّ.

ويأتي عَجُز الشاهد الخامس من القرآن على غرار العَجُز السابق. ففي الآية الحادية عشرة من سورة الجُمُعَة: ﴿قُلْ ما عند الله خيرٌ من اللَّهْوِ ومِنَ التجارة﴾. ولكنّ الشاعر حذف «مِن» قبل التجارة إقامةً للوزن. ولفظة تاجر هنا مُنادى غير مقصود بالنداء للتعميم، وهو يتابع سعيه في سبيل الربح الماديّ، وهاجس الخسارة يمنعه من الصلاة والعبادة. ويلفت الشاعر إلى أنّ العبادة المتّصلة المستمرّة هي الربح الحقيقيّ والخير الموصل إلى السعادة الدائمة. أمّا الأسلوب، فهو، كأسلوب الشاهد السابق، يجري على الطبع والسليقة، وترصّعه الآيات القرآنية كما في الكثير من نظم الشاعر ونثره.

وفي الشاهد السادس قصيدتان أو أكثر في قصيدة واحدة، وهو ضرب من التخليع[1] ندخل به في صميم الصناعة الشعريّة الرائجة في القرن الثامن عشر. فإنّ الأبيات الثمانية منظومة على نمطٍ من التسميط والتشطير، وهو نمط مستحدثٌ في هيكليّة القصيدة العربيّة التقليديّة. ويستحسن أن نلج مربّعات الشاهد كاسرين مغالقها، ومستنطقين كوامنها:

في المُربَّع الأوّل أربعة أعلام محبّبة، لها وقعها العذب في النفوس: أسعد، عليّ، أبو السعود، محمّد. إنّها توحي بالتفاؤل والسعادة والخلاص؛ بل كأنّ القصر برمّته يسبح في أجواء الحظّ السعيد. وكيف لا تكون هذه الدار من دور الجنّة؟ ويخاطب الشاعر سُكّان الدار باسمها مجازاً. وهو مطلع القصيدة، والطلعة قريبة من المطلع. والشاعر يعتني، مثل الأوائل، بمطلع قصيدته، فهو عنوانها ورتاجها. والإنسان يرتاح ويعتزّ بنظرة الناس إليه على أنّه ذو فأل حسن وذو وجه مشرق. وبهاء الوجه مقدَّم عند الله والرسول، ومن صفات الأخيار والأطهار وأهل الجنّة. ألا ترى أنّهم يغسلون الميت، كما كان كبار الصحابة يتوخّون حسن المظهر ويتسمون ويتطيّبون.

نعت الشاعر النعيم بالمخلّد مبالغاً ومبشّراً بُشرى تتّصل من العالم

(١) المُخَلَّعات تعني المتفكّكات، إشارة إلى ما يمكن أن يصيب القصيدة من تفكُّك أو انحلال (بكري شيخ أمين: **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، ص ١٩٧ - ١٩٨).

السُّفليّ إلى العالم العُلويّ. وأبو السعود يربو فألاً على أسعد، فلئن كان صاحب الدار أسعد فالضيف العزيز أبو السعود. وهو محمّد سَمِيّ النبيّ الأعظم. وذكر النسب والكنية من دواعي التشريف عند العرب. ولم يُغمط صاحب الدار حقّه، فهو باشا، والباشا لقب يمنحه السلطان كبار العسكريّين وذوي المناصب المدنيّة إلى أعلى رتب الدولة(١).

وفي المُرَبَّع الثاني استعارة عزيزة على شعراء تلك المرحلة. إنّ الممدوح بدرٌ مرشّح بالنجوم؛ إنّه ابن النجوم، والزيادة والكمال من صفاته. وليس الحُسام فقط يغار منه، لكنْ حدّ الحُسام، بل حدُّ الحُسام المجرّد الذي يعلو الهمم، ويقطع كلّ غاية. إنّها التشابيه والصفات القديمة مردَّدة، لكنْ بصورة تعبيريّة جديدة، متقطّعة، متدافعة، متدفّقة موجة إثر موجة. والبدر، تحديداً، هو القمر الممتلىء التام، غير أنّ بدر الشاعر في حركة مستديمة تزيده كمالاً. وولادة بدره من النجوم ممكنة ما دام إنساناً متميّزاً آباؤه النجوم.

وفي المربّع الثالث ترى السيف يتهيّب من همّته وينكفىء إلى غمده. إنّها همّة قعساء تنحسر دونها السيوف. وكأنّ الشاعر أشفق أن يرى السامع أو القارىء نفسه أمام جبّار عتيّ، فتحدّث في المربّع عينه عن لطفه الشائع في الناس. وأكّد الشائعة لئلاّ تُظنّ لَغْواً. والسؤال الإنكاريّ يثبت المعنى، ويقدّم الدليل القاطع عليه حتّى التعجُّب من المُنْكِر لهذه الحقيقة الساطعة.

وفي المربّع الرابع جديد، فيه نوع من الابتكار اللطيف في شطريه الأخيرين: «كأنّه من نسيم القَبول بات مُجَسَّد». إنّه تشبيه جديد موحٍ يبثُّ بريقاً زاهياً في قصيدة تقليديّة المعاني. والقَبول هنا تقابل الدَّبور، وهي ريح شرقيّة لطيفة.

ويتابع الشاعر في المربّع نفسه التأكيد على لطف ممدوحه حتّى يجعل كلّ إنسانٍ يُقرُّ به، يُقِرُّ بهذا اللطف المجسّد لنسيم الصَّبَا المنعش، وهو

---

(١) باشا لفظة فارسيّة تركيّة مركّبة من «با»: قَدَم أو رِجل، و «شا»: مَلِك؛ أي رِجل الملك. وفي «غرائب اللغة العربيّة» للأب رفائيل نخله اليسوعي (ص ٢١٨) أنّ باشا تساوي بادشا الفارسيّة أي ملك. ومثنّاه باشان وباشاوان، وجمعه باشات وباشاوات، وباؤه مفخّمة.

تشخيص معكوس إذ اعتاد الشعراء أن يعيروا الطبيعة أعضاءً وصفاتٍ إنسانيّة ليُحيوها، لا أن يجسِّد الإنسان خصائص الطبيعة.

ويقترب الشاعر في المربَّع الخامس من جوّه وبيئته، من جوّ الطبيعة اللبنانيّة الخضراء المنوِّرة، ومن جبال لبنان المتدرِّجة على البحر. ومهما قيل من تضمُّن الشعر القديم لهذه المعاني تبقَ أقرب إلى نفس الشاعر البلديّ من معاني الصحراء، والجوّ العربيّ المهجور. وهنا تشخيص للرياض، إذ أمدّها بخدٍّ يحمرّ حسداً وغيرةً من لطف الممدوح وجماله. وفي هذا التعبير البيانيّ، عدا الاستعارة، حسن التعليل وقد تخيّل للشاعر في الورد علّةٌ غير العلّة المعهودة له في لونه الأحمر الطبيعيّ. وشخّص البحر الذي هاج غاضباً ساعةَ قصَّر عن مجاراة كرم الممدوح، وهو الذي يوصف به الكرم. وما بين الورد المحمرّ حياءً والبحر المهتاج الصاخب، ومع حيويّة الطباق المعنويّ، إذا الممدوح يحرّك البرّ والبحر معاً.

والمربُع السادس يعطي النتيجة. وماذا عساها أنْ تكون نتيجة وجود مثل هذا الكائن الفذّ البهيّ القادر؟ إنّ الدهر، ذاك الذي يرهبه الإنسان منذ وجوده وفي سبيل قهره قامت المنشآت العظام، من الأهرام إلى برج بابل، إلى هياكل بعلبك والأكروبول، إلى عجائب الدنيا السبع، إلى المسرح والأدب والفنّ، ذاك الدهر الفتّاك يرتدّ غلاماً قاصراً في حضرته. إنّه فتًى مشرق الوجه، حسن الفأل، ينشر الحظّ والسعادة حيثما حلّ. وقد أصاب الشّاعرُ منه خيراً كثيراً، وكان السببَ في انكشاف غمّه وطلوع سعده بعد طول غياب.

والمربّعان الأخيران يستنزلان الخير والبركات على أبي السعود، ويبشِّرانه بحسن المآل، ويطلبان له دوام السلامة والسعادة. وما هذا التفاؤل بمستقبله كلام يُلقى على عواهنه، وإنّما بشارة الشاعر قائمة على فراسة وحدس لا يحتملان الخطأ. وكأن الشاعر تلبّس بصفته القديمة فانقلب نبيًّا أو كاهناً يرى المستقبل أمام عينيه. وفعلا الأمر في بدء كلٍّ من المُرَبّعين ينبئان بسلطته على الناس ومستقبلهم. يأمر بالسعادة، ويبشِّر بثقةٍ تبشيرَ العالم المطمئنّ. واطمئنانه هذا يمتدُّ إلى من تنزل عليه طلباته.

والمربَّعات عموماً تسير في تموُّجات متنامية يُرَقِّصها وزنُ المجتثّ، ويمدّها رويّ الدال المقيَّد بقوّةٍ وثبات، ويغدو الشاعر فارساً ماهراً على جواد أصيل يمسك زمامه، ويشدّ لجامه، قاطعاً به أرضاً صخريّةً كأداء. وإن لم يكن هذا الشعر في ذروة الشاعريّة، تبقَ له فرادته وطريقته الخاصة المستقيمة في التصوُّر والتعبير. وقد يقال: هذا الشعر صناعة. وأي أدبٍ يخلو من الصناعة وإعادة النظر. والصناعة غير التصنُّع، والاحتراف غير التطفُّل.

وفي الشاهد السابع يأتي الشاعر بغرض شعريّ معروف منذ الجاهليّة. إنّه رثاء الميت، وهو موضوع لا يزال يُنظم فيه الشعر حتّى أيّامنا ما دام الموت سنّة الحياة الدنيا. إنّه موضوع تقليديّ يكثر فيه التوكُّؤ على الماضي، لأنّ الشاعر، في هذا المجال، مقيّدٌ بالتقاليد والأعراف، خصوصاً أنّه يرثي أميراً أمام حفلٍ من الناس، وفي هاجسٍ ممّن سوف ينتشر بينهم. والانتقاد في هذه المناسبات شائع معروف.

إنّ سُقيا ضريح الميت ما زالت تتردّد منذ آمن الجاهليّون العرب بأنّ الميت إذا عطش خرج من رأسه طير هو الهامة أي البومة، وراح يصرخ اسقوني اسقوني حتّى يُسْقَى قبره فيرتاح. وقد يُسْقَى قبره بدم الثأر، إن مات موتوراً.

وأخرج الشّاعر السُّقيا من ابتذالها حين سقى الضريح بسحاب الفضل، وليس بسحاب الغيث، وهو تشبيه معكوس. فالسحاب، هنا، صِنْوُ الفضل والكرم. وبتلك السُّقيا يعمّ الرِّضا وتطمئنّ الروح. واستعمال «مَنْ» الموصوليّة تنكير للإجلال والتعظيم.

وفي البيت الثاني استغلال بيانيّ، ومراعاة نظير، وتجانُس. فإنّ الشاعر استغلّ اسم الأمير وجرّد منه صفتين مناسبتين. وتذكير القوم دليل على مقدرة الشاعر اللغويّة. ثمّ يبيّن عاطفته نحو الميت، ويؤكّد خلاصه، كما يفعل الرائون في كلّ زمان ومكان.

واللاّفت في هذا الرثاء ورود التأريخ[1] في آخره. وقصد الشاعر التعقيد

---

(١) التاريخ الشعريّ من ابتداع روّاد النهضة. ولمارون عبّود في كتابه **روّاد النهضة الحديثة**، =

فيه لإظهار براعته وتكبّده المشقّة في سبيل توفية الميت العظيم ما يستحقّ من تكريم واحتفال. فلو أخذتَ البيت الأخير وحسبت مهمل حروفه، أو معجمها، أو صدره، أو عجزه، لَتكوّن لك تاريخ وفاة الأمير منصور شهاب عام ١١٨٧ هـ[١].

والأبيات التأريخيّة بطبيعتها شديدة التكلُّف حتّى لتكاد تلامس، أحياناً، المعمّيات والألغاز، خصوصاً عندما يكون حساب التاريخ الواحد في عدّة أشكال من التشطير والتقسيم. وقد يختلف الحساب بين القارىء والشاعر، خصوصاً بالنسبة إلى اعتبار بعض الأحرف غير الملفوظة أو إهمالها.

أمّا سائر أبيات الرثاء فسائغة، يمدُّها الوافر بالسلاسة وعذوبة الإيقاع، ويوفّر لهاالإرداف[٢] نَفَساً مديداً يتصاعد من قلبٍ جريحٍ موجَع.

وإتماماً لميزات أحمد البربير نسوق له خاطراً فنّيًا ذكيًا، وأبياتاً وصفيّة وجدانيّة نابضة تدلّ على ما كان يُنبىء به عهده من نهضة أدبيّة آتية، وتُثبّت قيمته التي نوّه بها المؤرّخون والنقّاد، مثلما شهد له مارون عبود: «والبربير هذا شاعر بليغ إذا قسناه بشعراء عصره والذين سبقوه»[٣].

= ص ٦١ ـ ٧٠، بحث طريف وافٍ في هذا الموضوع. وكان للشيخ عبد الغني النابلسي تلميذ يُقال له محمد عبد الرحمن بن محمّد الشاكر النحلاوي نظم قصيدة يمدح بها أستاذه في تسعين بيتاً تحتوي على ٢٧٠ تاريخاً لسنة ١١٣٦ هـ. والقصيدة مع مقدّمتها النثريّة في كتاب الأمير حيدر الشهابيّ: **لبنان في عهد الأمراء الشهابيّين**، ١/٢٢ ـ ٢٨.

(١) والجدير بالذكر أنّنا، ونحن نحسب التاريخ من البيت الأخير، تبيّن لنا خطأ وقع فيه الأب لويس شيخو في كتابه **الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر**، ١/٢٧، حيث أثبت تاريخ وفاة الأمير منصور الشهابيّ سنة ١١٨١ هـ. (١٧٦٧ م). والصحيح هو تاريخ الشاعر المؤيّد بكتاب **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، ١/٥٠، للشيخ طنّوس الشدياق، والمنجد في الأعلام، ص ٣٩٣. ويمكننا، بعد حساب البيت الأخير أن نصحّح تحويل ١٧٧٤ الميلادية إلى ١١٨٨ الهجريّة في كتاب الدكتور أسامة عانوتي **الحركة الأدبيّة في بلاد الشام** بحيث تصبح ١١٨٧ لأنّ الشاعر عايش الحدث. وفي **جدول السنين الهجريّة وما يوافقها من السنين الميلاديّة** لأنطون قيقانو أنّ العام ١١٨٨ هـ. يبتدىء في ١٤ آذار ١٧٧٤ م.

(٢) الرِدْف هو أحد حروف المدّ واللين، ويكون قبل حرف الرويّ، ويُحرَّك ما قبله بما يناسبه.

(٣) **روّاد النهضة الحديثة**، ص ٥٤.

قال متذاكياً متظارفاً:

وَيومٍ تَبَسَّمُ أَنْوارُهُ ... وَدَمْعُ السَّحابِ عَلَيْهِ انْسَكَبْ
رَأَتْ سُحْبُهُ كأسَهُ مُتْرَعَهْ ... فَصارَتْ تُنَقِّطُها بالحَبَبْ

وقال يصف نهراً متفاعلاً وخيراته، منشرحاً بجماله:

وَنَهْرٍ يَبُوحُ بِأَسْرارِهِ ... وَيَجْري لِضائِعِ أَزْهارِهِ
تَرَى ماءَهُ أَبَداً راقِصاً ... لِتَصْفيقِ أَنْواعِ أَطْيارِهِ
فَكَمْ شَكَرَتْهُ الرِّياضُ التي ... أَزْهارُها بَعْضُ آثارِهِ
جَلَبْتُ المَسَرَّةَ مِنْ صَفْوِهِ ... وأَلْقَيْتُ هَمِّي بِتَيّارِهِ[1]

عبد اللطيف فتح الله

تلميذ نسيبه الشيخ أحمد البربير. أخذ عنه وتأثّر بجوّه وتوجيهه، وعاش بعده ثلاثةً وثلاثين عاماً. فهو شاعر مخضرم صرف ٣٤ عاماً في القرن الثامن عشر و ٤٤ في التاسع عشر. وإنّما بقي شعره شاهداً للقرن الأوّل. وفضلاً عن أنّنا اخترنا له ما نظمه في الحقبة الأولى من الجزء الأول من ديوانه، فالمعروف أنّ الانبعاث الحقيقيّ الظاهر بدأ بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ أثمرت البواعث التي ظهرت بعد حملة بونابرت، وإنجازات محمّد علي باشا، وازدياد المدارس وتطوّرها مع البعثات الأجنبيّة، ونشوء وسائل الإعلام، وغيرها.

صادفنا في شعر فتح الله الموضوعات المعتمدة لدى معلّمه وسابقيه، ومنها الغزل والزهديّات والابتهالات والموشّحات والأدعية والتضرّعات إلى الله والأنبياء والرسل والصالحين[2]، إلى جانب التاريخ الشعريّ والثنائيّات والمخمّسات[3].

---

(١) المشرق، ١٩٠١، ٤/٣٩٦ و٣٩٧؛ وكمال اليازجي: روّاد النهضة الأدبيّة، ص٦٣.
(٢) عبد اللطيف فتح الله: ديوانه، ١/٢٨.
(٣) المصدر نفسه، ١/١٠، ١٠٨، ٤٧١.

قال في تخميس بيتين أرسلهما إليه صديقه الحاج علي آغا:

.... قـالـوا حَبيبُـك محمـومٌ فَقُلْتُ لَهُمْ
أنـا الـذي كـان في جِمّائِـهِ سَبَبـا

لا تعجبوا فَلَظَى كـالجُزْءِ مِنْ خَلَدي وإنَّ نـارَ الدُّنى كـالبَعْضِ من جَسَدِي
مُذْ زارَني بَعْدَ أنْ أفْنَى الهَـوَى جَلَدي عـانَقْتُـهُ وَلَهيبُ النـارِ في كَبِـدِي
فـأثَّـرَتْ فيـهِ تلك النـارُ فـالتَهَبـا

فقال له قائل: إنّ هذين البيتين اللذَيْن هما: «قالوا حبيبُك محمومٌ... الخ...» لا يمكن أن يُؤتى بأبلغ من معناهما، فردَّ قوله متحدّياً بقوله:

قـالـوا عَلِمْتَ بِحُمَّى الحِبِّ قُلْتُ لَهُمْ نَعَمْ وَقَـدْ صِـرْتُ مِنْ حُمّـاهُ مَغْمـومـا
تَنَفُّسِي مِنْ لَـظَى قَلْبي وَقَـدْ بَعُـدَتْ مِنّـا الدِّيـارُ بِـهِ قَـدْ صَـار مَحْمُـوما[1]

فأظهر بذلك سرعة خاطره وبراعته العروضيّة، وأعطانا نموذجاً من اهتمام الشعراء في عهده.

أمّا شعره الذي نلمس فيه لواعج من وجدانه، ونأنس تبشيراً بالنهضة المتدرِّجة، فنجده في مثل قوله يحنّ إلى بلده بيروت:

هـلّا من السـاحِـلِ البحـريِّ أنبـاءُ يَحْصُـلُ بهـا لِبعيـدِ الـدّارِ إنْبـاءُ
وَهَـلْ أَشُـمُّ شَـذاهُ حِيـنَ تُـرْسِلُهُ مَـعَ النَّسيـمِ لـنـا سلْمَى وأسْمـاءُ
... فَهَـلْ أعودُ وما عَودي لـهُ عَجَباً ولـي فـؤادٌ بِـهِ حَـقًّـا وأحْشـاءُ
... سَقَى الإلَهُ رُبُوعـاً طابَ رَوْنَقُهـا ونـالَهـا مِنْ مِيَـاهِ اللُّطفِ إحْيَـاءُ[2]

وفي ديوانه غزل كثير منه:

إنّي طُبِعْتُ على الصَّبـابَـةِ والهَـوَى مِـنْـهُ وُجِـدْتُ فَـغَـيْـرُهُ لا أعْـرِفُ
وبِـهِ وُلِـدتُ وَقَـدْ رَضَعْـتُ لِبَـاءَهُ وأنـا بِـهِ مُـذْ كُنْتُ حَمْـلًا مُـدْنَفُ
يَهْـوِي الهَوَى بي في الجِبالِ مُهَيِّماً مِنْ شـاهِقٍ أُلْقَى لِآخَرَ أحْـذَفُ[3]

(١) عبد اللطيف فتح الله: ديوانه، ١/٤٧١ ـ ٤٧٢.
(٢) المصدر نفسه، ١/٢٠ و٨١ ـ ٨٢.
(٣) المصدر نفسه، ١/٢٨.

وليس في شعره هذا خيال بعيد ولا صُوَر جديدة خلّاقة، وإنّما شاهدنا فيه خُلوُّه من الصناعتين اللفظيّة والمعنويّة، وتضمّنه ملامح من السليقة والوجدان.

زاي ـ التعمية والتلغيز والأحاجي

لمّا تغلّبت النظرة التعبيريّة على النظرة الوجدانيّة في شعر ذلك العهد، لجأ الشعراء إلى أنواع من التعمية والتلغيز والأحاجي، مظهرين باعهم ومقدرتهم وطرافتهم وظرفهم، وممتحنين ذكاء أقرانهم. ولم يكن هذا الشعر من مبتكرات عهدهم بل التزمت به عهود سابقة، إذ كانت الحياة الاجتماعيّة مواسم تتوافق ومواسم الطبيعة، والعمل مرتهنٌ بأوقاته وملابساته المعيشيّة، والشعب بعيد عن الشؤون السياسيّة والإداريّة وعن هموم العالم الإنسانيّ الواسع، وقطار الحياة يسير بخطواتٍ وئيدة.

قال أحمد البربير مُعَمِّياً:

رأتْ لونَ شَيْبِي فاشْمَأزَّتْ فَلُمْتُها ... فقالتْ وَقَدْ غَضَّتْ لواحِظَها عَنّي
أميلُ بقلبٍ مَزَّقَتْهُ يَدُ الهَوَى ... إذا كانَ في سِنٍّ تُقارِبُهُ سِنّي

وأردف الشاعر البيتين مفسِّراً:

أردتُ بقولي «أميل بقلبٍ» قلبَ لفظ «أميل»، فإذا قُلِبَ كان «ليما»، فإذا وُضع لفظ «ليما» في لفظ «سن» صار «سليمان»(١).

وقال الشاعر نفسه في الأُحجية (عن نملة):

يا فاضلاً أمْسَتْ تُقِـ ... ـرُّ جميعُ أصحابي بِفَضْلِهْ
ما مِثْلُ قولِكَ لِلَّذي ... حاجَيْتَهُ أُرْقُدْ لأَجْلِهْ

وجاء تفسيره لها كالآتي: فقولي «أُرْقُدْ» أردتُ رديفه وهو لفظ «نَم»،

(١) أحمد البربير: عقد الجمان وشذور الياقوت والمرجان في المزايا التي يدلّ عليها اسم سليمان، ص ١١.

وأردتُ بقولي «لِأجْلِهِ» لفظ «لَهُ»، فيصير الكلُّ «نملة»(١).

وقال الخوري نيقولاوس الصائغ مُلغزاً في آب:

وما آسْمٌ على حَرفينِ جاء ثَلاثَـةً   لِتَعْريفِهِ ألْ لا لِتَعْريفِ عَدِّهِ
وفي قَلْبِهِ فِعْلٌ وحرفٌ كلاهُما   لَهُ عَمَلٌ فيهِ بإلزامِ حَدِّهِ
يُجانِسُهُ آسْمٌ خُصَّ بالمَدِّ رُتْبَةً   فَمَيَّزَهُ عمّا سِواهُ بِمَدِّهِ
فَأَعْجِبْ بِهِ آسْماً وهو فِعْلٌ لَقَدْ خَلا   وَحَرْفاً ومَعْنًى عَكْسُهُ مِثلُ طَرْدِهِ(٢)

ويلفت لدى الصائغ شدّة اهتمامه بالأحاجي، ففي آخر ديوانه ٦٤ أحجية نختار منها في «عناقيد»:

يا مَنْ لَهُ بَيْنَ البَرِيَّةِ ساعِدٌ   عَنْ كُلِّ طَولٍ في التَّحاجي مُنحَسِرْ
بَيِّنْ لنا يا صاحبَ التبيانِ ما   تَعَبٌ لَهُ غِلٌّ حَشاهُ مُنْكَسِرْ

وفي «صهباء»:

يا مَنْ أضاعَ سُهاهُ في   كَأْسٍ وحازَ بها الوَجَعْ
ما مِثْلُ قَولي يا أُخَيَّ   مُحاجِياً أُسْكُتْ رَجَعْ

وفي «قناطِر»:

يا مَنْ لَهُ حِكَمٌ لَقَدْ عَزَّتْ وَجَلَّتْ   ماذا يُماثِلُ قَولَنا للرُّمحِ أقْلِتْ

وفي «غزاله»:

يا خائضاً بَحْرَ عِلْمٍ   خِلْتُ التحاجيَ فُلْكَهْ

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٢) نيقولاوس الصائغ: ديوانه، ص ٨٤. س والتلغيز معروف منذ عهد اليونان، وقد عرّفه أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) بقوله: «إنّ ماهيّة اللغز هي أن تُرَكَّب ألفاظ لا يتّفق بعضها مع بعض تؤدّي معنىً صحيحاً» (أرسطو: فنّ الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٣، ص ٢٧).

أجِـبْ مِـثـالَ مَـقـالـي　　ما مِثْـلُ حـارَبَ مُلْكَـهْ[1]

والتساؤل عن قيمة هذا الشعر يشبه السؤال عن قيمة الشعر العاميّ. ليس فيه من الأدب عمقه وخياله وإيحاؤه ودهشته، وإنّما أهمّيته نابعة من قربه من نفوس العامة، وسعة جمهوره، وتداوله في أوقات الفراغ والتسلية، إذ كان الناس يلجأون إلى المعمّيات والألغاز والأحاجي في سهراتهم وأوقات فراغهم متلهّين متبارين، كما يلجأون إلى لعب الورق والطاولة والمنقلة والداما والدومينو وغيرها من الألعاب والهوايات قبل أن تملأ المنازل الاختراعات الحديثة الآسرة.

حاء ـ الإخوانيّات وصور أخرى

ومن شعر ذلك العهد «المراسلات والمساجلات والمعارضات والعتاب»[2]. ومنه الشعر الهندسيّ المرصوف ضمن دوائر وخطوط هندسيّة وأقواس[3]. واحتلّت الإخوانيّات مقاماً متميّزاً، فكثر التراسل الشعريّ بين الشعراء، واتّخذ طابعاً وجدانيًّا حميماً، وتناول خصوصيّات الأصحاب والخلّان، وكثرت فيه المداورات البيانيّة والمصانعات التودّديّة، وتبارى الشعراء في الإغراق بإظهار عواطفهم وأشواقهم وتعلّقهم بإخوانهم.

كتب ديده كوز فرنجيّة إلى صديق كان عزّاه في نكبة:

لـمّـا أتـاني كـتـابٌ مِنْـكَ مُبْتَسِمٌ　　عَنْ كُلِّ فَضْلٍ وَجُودٍ غيرِ مَحْدودِ
حَكَتْ مَعـانيـهِ فـي أَثْنـاءِ أسْطُرِهِ　　آثـارَكَ البيضَ في أحـواليَ السُّـودِ

وقال في جارٍ انتقل عنه:

تـنـاءَتْ دارُهُ عَـنِّـي ولـكـنْ　　خَيـالُ جمـالـه فـي القَلْبِ سَـاكِنْ
إذا امْـتَـلأ الـفُـؤادُ بِـهِ فـمـاذا　　يَـضُـرُّ إذا خَلَتْ مِنْـهُ المَسَـاكِنْ[4]

(١) المصدر نفسه، ص ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١١.
(٢) أسامة عانوتي: الحركة الأدبيّة في بلاد الشام، ص ٧٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٧٢ ـ ٧٤.
(٤) المشرق ١٨٩٩، ٢/٤٤٦.

فداني كلامه في جاره، كما ترى، التغزُّل الفاحش بالذُّكور، وهو من سِمات مغالاتهم في هذا الغرض الشعريّ.

وقال ميخائيل البحري (... ـ ١٧٩٩)[١] في أحمد البربير من قصيدة طويلة:

أحمدُ البَرْبيرُ مَنْ أنْشا الأدَبْ — وعُلوماً بَيْنَ عُجْمٍ وعَرَبْ
وَحَوى فَخْراً سَمَا أسْمَى الرُّتَبْ — قَدْرُهُ، ثمّ السِماكينِ آرْتَقَى

فردّ البربيرُ عليه، والبحريّ حمصيّ الأصل:

كَمْ بيانٍ مِنْ مَعانيهِ بديْعْ — قَدْ رَفَعْناهُ على نَظْمِ البَديْع
في مَبانٍ مِثْلِ أزْهارِ الرَّبيعْ — ناظراً تَشْبيكَ أو مُنْتَشِقا
فَطِنٌ مِنْ بَعْدِهِ «العاصي» بَكَى — وبأصْواتِ النَواعيرِ شَكَا
ودَجَتْ حِمْصُ وكانتْ فَلَكاً — لِمُحَيّاهُ فَعَادَتْ غَسَقا[٢]

ولا يخلو بيان البربير في هذه الأبيات الأربعة من الومضات الشعريّة الأصيلة.

ويُرْوَى عن عبد اللطيف فتح الله في مدح ميخائيل البحري لمّا جاء بيروت في أيام الجزّار:

لما أتَى البحريُّ بيروتَ زائراً — إلينا فَكَمْ أهْدَى عُقوداً مِنَ الشِّعْرِ
فلا بِدْعَ أنْ أُهدي لَهُ الدُرَّ ناظِماً — فناهِيكَ أنَّ الدُرَّ يَبْدُو مِنَ البَحْرِ

فأجابه البحري بأبيات[٣].

ومن مراسلاته لصديق:

عندي أزاهرُ وُدٍّ طابَ مَغْرِسُها — من كَفِّ حُبِّكُمُ في قَلْبِ مَنْ حَرَسا

---

(١) ورد تاريخ وفاته في بيت لبطرس كرامة:
وفي المَلَكُوتِ أرِّخْ نَاطَ فَوزاً — بميخائيلَ تَبْتَهِجُ الملائِكْ
(لويس شيخو: **الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر**، ١/٣٢).

(٢) المشرق ١٩٠٠، ٣/١٧ ـ ١٨؛ ومارون عبّود: **روّاد النهضة الحديثة**، ص ٥٤.

(٣) المرجع الأول نفسه والصفحتان أنفسهما.

أصـــابَهـــا ظَمَـــأٌ مِنْ حَـــرِّ هَجْرِكُـمُ   فكـــادَ يَسْلُبُ مِنْهـــا الـــرُّوحَ والنَفَســـا
فَـأَدْرِكوهـا بمـاءِ الـوصْـلِ مِنْ عَـطَبٍ   فمـا تَعُـودُ حَيـاةُ الـزَهْـرِ لـو يَبِسـا[1]

ففي هذا الشعر روى الشاعر ظمأه من المحسِّنات البيانيّة التقليديّة، واستطاع إخراجها بشكلٍ لبقٍ سائغ، وبغير توكُّؤ على ألفاظ نافلة تقيم الوزن الشعريّ، بحيث يمكن القول إنّها صناعة ناجحة.

وقد خصصنا الإخوانيّات بشواهد من دون غيرها من الصور الشعريّة تحت هذا العنوان لما تتميّز به من دَرَجَة متقدّمةٍ في شاعريّتها.

طاء ـ الشعر الصوفيّ

رأينا أن نأخذ تحديد الصوفيّة من كتاب عبده الشمالي (١٩٠٥ ـ ١٩٨٩) «دراسات في تاريخ الفلسفة العربيّة الإسلاميّة وآثار رجالها» لما فيه من شمول ومن نظرة مدرسيّة عامّة إلى الموضوع. وقد جاء فيه:

«الصوفيّة نزعة روحيّة عامّة تقدّمت الأديان السماويّة المعروفة، ثمّ عاصرتها مستقلّة عنها، ترمي إلى قهر الجسد وإذلاله، وفرض الحرمان عليه، وتعزيز النفس، وتحريرها من تحكُّم المادة لتستعيد نقاءها الأوّل وطهارتها، وتسمو فوق مغريات الدنيا لتتّصل بالله وتعرف الحقّ بالمكاشفة، من دون لجوء إلى برهان عقليّ، ولا استعانة بأساليب المنطق، فتذوب في الوجود الحقيقيّ المطلق، وتتّحد به في هذه الحياة اتّحاداً تفنى معه كلّ رغبة شخصيّة»[2]. وإنْ يُرد الصوفيّ أن يعبّر عن دراسة أو بحث أو شرح يستعمل لفظة «التَّعَرُّف»، وهو يدعو نفسه ومن سار على مذهبه أهل التصوّف وليس الصوفيّة، ولا ينقاد للجدل والمنطق والاستدلال، بل للتجربة والشعور، والفرق واضح بين الطريقتين كالفرق بين الظاهر أو الشكل والباطن[3].

(١) عبد اللطيف فتح الله: ديوانه، ١/١٢٢.
(٢) عبده الشمالي: دراسات في تاريخ الفلسفة العربيّة الإسلاميّة وآثار رجالها، دار صادر، بيروت، ط ٥، ١٩٧٩، ص ٤٤٢.
(٣) أبو بكر محمّد الكلاباذي: التعرّف لمذاهب أهل التصوُّف، ص ٨ ـ ١١.

ترافق هذه النزعة عموماً، المجتمعات الفقيرة[1] المضطهدة، والتي لا تسمح لها السلطة الفرديّة باتّخاذ منافذ أرضيّة لتحسين واقعها المزري، فتتّجه نحو السماء، نحو «الإله الخفيّ» الذي جعله الناقد الروماني لوسيان غولدمان Lucien Goldmann (١٩١٣ ـ ١٩٧٠) المحور الأساسيّ في دراسته حول الرؤية المأسويّة في خطرات باسكال ومسرح راسين[2].

والصوفيّة، بالتالي، نزعة تعويضيّة لا تغني من فقر، ولا تعتق من عبوديّة، ولا ترفع من ظلم. وبقي الصوفيّ «رجلاً أحبَّ الله فآثره، وكره الدنيا فزهد فيها»[3].

ولا يعنينا ههنا، عرض النظريّات الفلسفيّة الحديثة التي تغوص على خلفيّات الصوفيّة الوجدانيّة وأسبابها، كأن نقول مثلاً: «إنّ التصوّف هو إرضاء الأنا الأعلى في نداء المجهول».

نما شعر التصوّف مغتذياً بحلقات الذكر، وشعائر الدين واحتفالاته، وبلغ في القرن الثامن عشر مبلغاً مرموقاً، وقد جاء لبنان عن طريق دمشق مع محيي الدين بن عربي[4]، وعبد الغني النابلسي (١٦٤١ ـ ١٧٣٠)[5] وأمثالهما؛ وعن طريق مصر مع عمر بن الفارض[6]؛ وعن طريق إيران مع

---

(١) ليس ضروريًّا، بل قد يكون عائقاً أنْ يكون المتصوّف فقيراً مُعْوِزاً، فإنّ الفقر هنا هو، خصوصاً فقر روحيّ في النفس العاملة الرضيّة المتواضعة. وقديماً أُثِر عن الصحابيّ أبي ذرّ الغفاري (ت ٣٢ هـ ٦٥٢ م) قوله: «ما دخل الفقر قرية إلّا وسبقه إليها الكفر».

(٢) لوسيان غولدمان: **الإله الخفي**، دراسة حول الرؤية المأسوية في خطرات باسكال ومسرح راسين، منشورات غاليمار، باريس ١٩٥٥، وطبعة ثانية في سلسلة تيل Tel، ١٩٧٦

(٣) المرجع السابق، ص ٤٥٠.

(٤) ويقال له ابن العربي أيضاً. ولد بمرسية Murcie في الأندلس، وتوفّي في دمشق (١١٦٥ ـ ١٢٤٠). للتوسّع في حياته وتصوّفه راجع: جبّور عبد النور: **التصوّف عند العرب**، ١١٨ ـ ١٤٥؛ ومحمّد زغلول سلام: **الأدب في العصر المملوكي**، ١/١٩٣ ـ ٢٧٤.

(٥) ڤيكتور باسيل: **وحدة الوجود عند ابن عربي وعبد الغني النابلسي**، أطروحة دكتوراه في الآداب/ فئة أولى (الفلسفة)، جامعة القدّيس يوسف، ١٩٨٧.

(٦) ولد في القاهرة وتوفّي فيها (١١٨١ ـ ١٢٣٥). للتوسّع في حياته وتصوّفه: المرجع نفسه، ص ١٤٦ ـ ١٧٠.

السُّهْرَوَرْديّ[١]، وجلال الدين الروميّ[٢] بنوع خاص.

ولم تخل الجزيرة العربيّة من شعراء متصوّفين كابدوا معاناة العرب، وتأثّروا بمشاغلهم وأحوالهم في مختلف الأنحاء، نذكر منه عبد الرحيم بن أحمد البُرَعيّ اليمانيّ (٧٤٥ ـ ٨٠٣ هـ/ ١٣٤٤؟ ـ ١٤٠٠ م) الذي عبّر في شعره عن الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة السائدة في أرجاء الحكم المملوكيّ المهيمن خصوصاً على مصر والشام[٣]، وهو القائل في المناجاة الإلّهيّة في مطلع قصيدة:

سَيّدي أنتَ مقْصَدي ومُرادي　　أنتَ حَسبي وأنْتَ نِعْمَ الوكيلُ
أحْيِ قَلْبي بِمَوْتِ نَفْسي وصِلْني　　وأَنِلْني إنّ الكريمَ يُنيلُ...

(١) هو شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن حبش (١١٥٣ ـ ١١٩١). ولد في سُهْرَوَرْد بإيران وأقام في مراغة وأصفهان وبغداد وحلب حيث قُتل بأمر السلطان صلاح الدين، ولُقّب بالشيخ المقتول. حكيم إشراقي متصوّف.
من مصنّفاته: التلويحات اللوحيّة والعرشيّة، المقاومات، المشارع والمطارحات، هياكل النور، حكمة الإشراق. أسّس مذهباً إشراقيًا سمّاه «علم الأنوار». ومن شعره متغزّلاً بالعزّة الإلّهيّة:

أبداً تحِنّ إليكم الأرواحُ　　ووِصالُكُمْ رَيْحانُها والراحُ
وارَحْمَتا للعاشقين تَكَلّفوا　　سَتْرَ المحبّةِ والهَوى فضّاحُ
بالسرّ إنْ باحُوا تُباحُ دماؤُهُمْ　　وكذا دماءُ العاشقين تُباحُ

الموسوعة العربيّة الميسّرة، ص ١٠٢٦، والمنجد في الأدب والعلوم للأب فردينان توتل، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٦، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧. للتوسّع في حياته وفلسفته وصوفيّته:
- إبراهيم مدكور: شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي في الذكرى المئويّة الثامنة لوفاته ٥٨٧ هـ/ ١١٩٠ م؟، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.
- أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوّف الإسلاميّ، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٣٤ وما بعدها.
- Henry Corbin: *Œuvres Philosophiques et Mystiques de Shihabaddin Yahya Sohrawardi*, Téhéran/ Paris, 1952.

(٢) ولد في بَلْخ (إيران)، وتُوفّي في قونية (تركية)، ودفن فيها (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣). شاعر فارسيّ متصوّف. سافر إلى بغداد ومكّة ودمشق. له ديوان يقع في نحو عشرين ألف بيت. وهو من أهمّ كتّاب التصوّف الإيرانيّ. من مؤلّفاته «المَثْنوي» في تفسير المذاهب الصوفيّة. قال بالتناسخ ووحدة الوجود. (المنجد في الأدب والعلوم، ص ١٣٩).

(٣) توفيق يوسف خضر: المدائح الربّانية والنبويّة والشعر الصوفيّ عند البُرَعيّ، ص ١٢ ـ ٣٤.

ومن أقواله:

كَـلِفْتُ بِـكُمْ فـفـاضَ دَمي دمـوعـاً   وبتُّ سميـرَ مَنْ هَجَرَ الهُجُـوعـا[1]
رَحَـلْتُـمْ يَـومَ ذاتِ الـبـيـنِ عَـنّـي   فهـا أنـا بَعْـدَكُمْ أبْكي الـرُّبـوعـا[2]

وكثرت طرق هذا الشعر وحلقاته في المجتمعات الإسلاميّة المتلهّفة إلى منابع الروح[3]. وتغنّى به المتصوّفون مصحوباً بالموسيقى الإيقاعية[4]. ومن خير من يمثّل هذا المذهب الشاعر الحلبيّ **محمّد أبو الوفاء الرفاعي** (١٧٦٥ ـ ١٨٤٧)[5]. وقد أتقن الرفاعي فنّ الموسيقى، ونظم القدود والموشّحات. ومن أدواره المردّدة في حلقات الذكر:

مُلْجِمَ البَحْـرِ مِنْـكَ بـالقُـدْرَهْ   أنْـتَ نِـعْـمَ الـعَـتـادْ
أَلْجِمِ الضِـدَّ واكْفِني شَـرَّهْ   واقْضِ لـي بـالـمـرادْ
رَبِّ واجْعَـلْ هَـلاكَـهُ عِبْـرَهْ   لِـجَـمـيـعِ الـعِـبـادْ
وأذِقْـهُ العَـذابَ بـالهـونِ   وارْمِـهِ بـالـدَّمـارْ

---

(١) الهُجوع: النوم ليلاً، أو النوم مطلقاً.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠. وللبُرَعيّ ديوان شعر صدر في منشورات مكتبة القاهرة لصاحبها علي يوسف سليمان، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م.

(٣) Encycl. de l'Islam, IV/ 718. انتشرت الطرق الصوفيّة بعد تصوّف «حجّة الإسلام» أبي حامد محمّد الغزالي (ت ١١١١) في القرن الثاني عشر (أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: **مدخل إلى التصوّف الإسلامي**، ص ٢٨٥ ـ ٣٠٠). وفي أثناء معالجة الدكتور بكري شيخ أمين لشعر العهدين المملوكين والعثماني لفت نظره «كثرة المؤلّفات في الموضوعات الدينيّة كثرة بالغة، حتّى ليمكن أن يقال، مع شيء من التسامح، إنّ جميع المؤلّفات كانت في الشؤون الدينيّة ـ الإسلامية على اختلاف موضوعاتها وفنونها (ص ٢٣٣). وقد احتلّ الشعر الصوفي في كتابه ٤٣ صفحة (٢٣٧ ـ ٢٧٩). وعموماً، لا يمكن لمؤلّف عن ذلك العصر أن يغفل التصوّف منه، وهو يشكّل طابعه الأبرز.

(٤) زكي مبارك: **التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق**، ١/ ٢٦١ وما بعدها. وجاء في كتاب الدكتور محمّد زغلول سلام «**الأدب في العصر المملوكي**»: «وانتشرت الطرق الصوفيّة في هذا العصر انتشاراً عريضاً، وتغلغلت في أوساط الشعب والخاصة على السواء» (١/ ١٩٣)، حتّى أنّ «الملك الظاهر بيبرس اعتنق الصوفيّة عن أحد شيوخها الشيخ خضر الذي أصبح له نفوذ كبير في البلاط» (١/ ٢٢، عن ابن شاكر الكتبي «**فوات الوفيات**»، ١/ ٢٩٩).

(٥) اخترناه وإنْ حلبيًا لاتّصال المجتمع الحلبيّ، آنذاك، بالمجتمع اللبنانيّ.

رُبَّ باغٍ في الناسِ مفتونٍ في خرابِ الديارْ[1]

وربّما تشدّد النقد في حكمه على قيمة هذا الشعر من الناحية البلاغيّة الفنيّة، غير أنّ شهرته على ألسنة المتصوّفين في حلقاتهم تجعل منه صلاةً محبَّبة. وقصرُ نفسه، وتموّجُ بحره وسجوُه، ولجمُ عروضه، وإرداف ضربه المقيّد، يوافق الإيقاع. والنغم يسبغ عليه حلّةً زاهية، ويطرب منشديه وسامعيه، فينسجمون ويتمايلون مع حركته وإيقاعه. وهو يتوافق ومشاعر القوم وغاياتهم في مناهضة العدوّ، وتجميده، والقضاء عليه بلا شفقة أو رحمة. والتصوّف، أصلاً، انقطاع عن المجتمع الماديّ وردّة فعل عليه وعلى ما يتخلّله من جور وظلم وطبقيّة، وإرضاء للنفس، وإمدادها بارتواء روحيّ ما ورائيّ يفوق شهوات البشر وخيراتهم.

ولم يُعدم لبنان متصوّفيه. ومن المسلمين نختار العالم الشاعر **يوسف بن عمر الشهير بالذوق**[2] الذي قال في التصوّف:

تَجَلَّتْ فَجَلَّتْ عَنْ شبيهٍ صفاتُها وعَزَّت علاءً أنْ تُري لكَ ذاتُها
فريدةُ حُسْنٍ مَهْرُها النَّفْسُ هكذا رَوَى عَنْ عُلاها في التَّجَلّي رُواتُها
فَمَنْ لم يَجُدْ بالنفسِ لم يَدْرِ ما اللِّقا ولا عَبِقَتْ في أنْفِهِ نَفَحاتُها
بِروضِ تَجَلِّيها لَدَى سُحْبِ جُودِها بكى مُزنُها فاسْتَضْحَكَتْ زَهَراتُها
... بها عَيْنُ تَسْنيمِ الحقائقِ مُفْردُ وَعَنْ ذوقِها يَرْوي شَذاها ثِقاتُها
فلا تَخْشَ بأساً إنْ سَكِرْتَ بِخَمْرِها فَقَدْ حَكَمَتْ بالحَلِّ فيه قُضاتُها[3]

إنّه نصّ مشبع بالفلسفة الحلوليّة وبرموز التصوّف الروحيّة، يتعدّى سُنّة الإسلام ويوافقها في آن. يتعدّاها في الانتشاء بالخمر، ويشابهها في تنزيه النفس عن الأرجاس، والعزّة الإلّهيّة عن كل شبيه أو قرين. وعمق هذا الشعر

(١) أسامة عانوتي: الحركة الأدبيّة في بلاد الشام، ص ٧٨.
(٢) ولد عام ١٧١٨ في طرابلس، وتعلّم فيها. ثمّ رحل إلى الأزهر فالقسطنطينيّة. ثمّ عاد إلى بلده. رفض القضاء وكان كثير النظم.
(٣) عبد الله نوفل: كتاب تراجم علماء طرابلس وأدبائها، ص ٣٣.

يتوافق ولغته الصحيحة وأسلوبه السليم. وهو، إلى التزامه ومنطقه ونصاعة وصفه، لا يخلو من النفحة الشاعريّة المحلِّقة.

وقد أنشأ بهاء الدين العاملي شعراً كثيراً يدخل في باب التصوّف، خصوصاً ما كان منه باللغة الفارسيّة[1].

ونعود في دراستنا الشعر الصوفيّ في لبنان إلى القرن السابع عشر، مخالفين منهجنا التاريخيّ، لكي نعالج شعر **الشيخ الفاضل محمد أبي هلال** (١٥٧٩؟ - ١٦٤٠)، وذلك لأسباب جوهريّة أهمّها أنّنا أردنا للشعر الصوفيّ عنواناً مستقلاًّ جامعاً، وأنّ الشاعر من بني معروف الذين يتناغم مذهبهم ورؤيتهم للكون وروح التصوّف، وأنّ شعره يتخطّى زمانه بفنّه وسلامته، وأنّ حياته الشخصيّة كانت مثالاً للمتصوّف التقيّ العامل.

نظم في المحبّة الإلّهيّة والشوق إلى وصاله تعالى، مفتتحاً قصيدته ببيت لرابعة العدويّة (ت ١٣٥ هـ/ ٧٥٢ م)[2]، ما يدلّ على أنّه كان يعي تماماً مذهبه الصوفيّ. ويقول بعد المطلع:

مَــنْ ذاقَ حــبَّــكَ لا يــريــدُ زيــادةً ... أنْتَ الحبيبُ ومــا سِــوَاكَ مَـحــالُ
وجَــمــالُ نــورِكَ بــاهــرٌ مــتــألّــقٌ ... مــا لا يُعــادِلُــهُ سِــواكَ جَمــالُ...
يــا مَنْ تفــرَّدَ بــالكمــالِ كمــالُــهُ ... يــا لَيْتَ لي بــالقُــرْبِ مِنْكَ وِصــالُ
يــا ليتَ نفسي في هَــواكَ مُـطيعــةٌ ... فهَــواكَ صَفْــوٌ للنفــوسِ صِقــالُ...
مَنْ مــاتَ جَهْـداً في هَــواكَ وطــاعــةً ... فــالمَــوْتُ في رُؤيــا سَنــاك حــلالُ...
فــالقُـرْبُ مِنْــكَ حيــاتُنــا ونجــاتُنــا ... والبُعْــدُ مِنْــكَ متيهــةٌ وضَــلالُ...
يــا لَـيْتَـني جــارٌ بـقــربِــكَ قــاطِـنٌ ... أحْـظَى بـعِــزٍّ لـيسَ فــيــه زَوالُ[3]

(١) دلال عبّاس: بهاء الدين العامليّ، ص ٢٩٣ وما بعدها، وص ٣١٥ - ٣١٦، وص ٤٠١ وما بعدها.

(٢) البيت هو:

يــا مُــؤْنِسَ الأبــرارِ فــي خَـلَواتِـهِــمْ ... يــا خَـيْـرَ مَــنْ حَــلَّتْ بِــهِ الــنُّـزّالُ

(فؤاد أبو زكي: ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف، ص ١٩٦، عن «شهيدة العشق الإلّهي» للدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٧٣).

(٣) المرجع نفسه، ص ١٩٦.

وله، غير هذه، قصائد وأبيات كثيرة في التغزّل والشوق إليه تعالى، نذكر منها أيضاً «حبيب القلوب»:

مكـانُـكَ في عيني وقلبي كِلَيهمـا ... مـكـانَ السُّوَيْـدا والسَّـوادِ وأقْـربُ
وحُـبُّـكَ في أقْصَـى فُـؤادي ثـابتٌ ... فـإنْ زالَ إنَّ الـروحَ لا شـكَّ تُسْلَبُ
وسِـرُّكَ فـي طيِّ الأضـالـعِ مـودَعٌ ... على صَفَحـاتِ القَلْبِ كـالخَطِّ يُكْتَبُ
وأنْـتَ حَـبيـبٌ لـلقلوبِ ومَـقْـصَـدٌ ... وكـلُّ حبيـبٍ بـالـولا يـتَـقَـرَّبُ
فَجُـدْ بِعَفْـوٍ مِنْـكَ يـا مـالـكَ الـوَرَى ... فَـأنْتَ مـلاذي سيِّـدي والـمُهَـذَّبُ
فمـا ليَ في الكـونَينِ غيـرُكَ مَلْجَـأٌ ... ولا لِيْ إلى أكنـافِ غيـرِكَ مَـهْـرَبُ
إلـيـكَ هُـروبي مـن ذُنـوبي وزَلَّـتي ... فكُنْ لِيْ مُجيـراً لا خَصيمـاً يُعَـذِّبُ
فَجـودُكَ يـا مـولايَ كـالبَحْـرِ زاخِـرٌ ... ولـكـنَّـهُ أشْـهَـى وأحْـلَى وأعْـذَبُ
ولِـلْمُصْـطَفَـى شُـكْـرٌ سَنِيٌّ وآلِـهِ ... وَمَنْ مِنْ دُعـاةِ الـحَقِّ لـلحَقِّ يُـنْسَـبُ
عَلَيْهِمْ صَـلاةٌ مِنْـكَ في كـلِّ بُكْـرَةٍ ... ومـا دامَتِ الأنْـوارُ تَبْـدُو وتَغْـرُبُ(١)

وله في الاختلاء والذّكر والوجد والغياب قصيدة «أهل المحبّة»، مطلعها:

أهْـلُ المحبّـةِ مـا نـالـوا الـذي طَلَبُـوا ... حتّى لـربِّهِمُ في الخَلْوَةِ انْفَرَدُوا...

ومنها:

فـالـذِّكْـرُ مَـطْعَمُهُمْ والشُّكْـرُ مَشْـرَبُهُمْ ... والوَجْدُ مَرْكَبُهُمْ مِنْ أجْلِ ذا سَعِدُوا...
نـاجُوهُ في القُـرْبِ بـالتَّعْـظِيمِ مُنْفَـرِداً ... غـابوا عَنِ الكَـوْنِ فيهِ عندمـا شَهِـدوا
وداومـوا الـذِّكْـرَ في أوقـاتِهِمْ أبَـداً ... وفي الليالي وفي الأسْحارِ قَدْ سَهِدُوا(٢)

وللشيخ الفاضل قصيدة في «مسلك الزهّاد»، مطلعها:

لِلّهِ قـومٌ سَمَـوا بـالـعِلْمِ والـعَمَـلِ ... بـرَغْبَـةٍ صَـدَقَتْ في طـاعـةِ الأزَلِ
صَحَّتْ عَـزائِمُهُمْ في نَيْـلِ مَـرْتَبَـةٍ ... حَتَّى بِهـا لَحِقـوا بـالسّـادةِ الأُوَلِ

---

(١) فؤاد أبو زكي: ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف، ص ٢١٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٧.

فخالَفوا السَّهْدَ جَهْداً في دُجَى ظُلَمٍ ذَبُّوا الكَرَى للسُّرَى مِنْ داخِلِ المُقَلِ
لَهُمْ نُفوسٌ عن اللذّاتِ آبِيَةٌ وما لَهُمْ رَغْبَةٌ في الحِرْصِ والأَمَلِ
لا يُفْتَنونَ بأَمْوالٍ ولا وَلَدٍ ولا يُريدونَ غيرَ الواحِدِ الأَزَلِ . . . [١]

وهو، مع ذلك، لا يتوق إلى الشَّطَحات البعيدة، بل لا يسمح لنفسه بها أو بدعوى الحلوليّة شأنَ المتصوّفين المغالين، وقد رأيناه في الأبيات السابقة مثال المتصوّف الذي يتبنّى العلم والعمل[٢]، على غرار أبي حامد الغزالي (١٠٥٨ ـ ١١١١) الذي تأثّر به تأثّراً كبيراً من خلال كتابه «إحياء علوم الدين»، مشاركاً الروح الكلّي في السعي وراء تكامل الوجود. ويقول في بيتين لاحقين من قصيدة «مسلك الزهّاد» نفسها:

واللّهُ أَعْظَمُ ممّا أنْ يُحاطَ بِهِ مُنَزَّهُ الذّاتِ عَنْ شِبْهٍ وعَنْ مَثَلِ
قَدْ أَدْرَكَ الخَلْقَ والأَبْصارُ عاجِزَةٌ عَنْ دَرْكِهِ فَهْيَ ذاتُ الحَصْرِ والكَلَلِ [٣]

وقال يمدح العزّة الإلّهيّة، مضمّناً قصيدته معاني تدلّ على اطّلاعه على الفلسفة العربية الإشراقيّة:

بِسْمِ الإلَهِ بدأتُ أُنشِئُ قائلاً في سَيِّدٍ لاذَتْ بِهِ الأرواحُ
خيرُ الوَرَى بحرُ الصَّفا نورُ الهُدَى شمسُ الضُّحَى في ظُلمَةٍ مِصْباحُ
شمسٌ بَدَتْ أنوارُهُ للإسْتِضا أَحْيا القُلوبَ نسيمُهُ الفَيّاحُ [٤]

فخير الورى، هنا، هو العقل الكلّي أو العقل الفعّال[٥].

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٩٨.
(٢) لن ننسى قول الغزالي شيخ المتصوّفين: «العلم بلا عمل جنون والعمل بلا علم لا يكون» (عبده الشمالي: تاريخ الفلسفة العربيّة الإسلاميّة، ص ٤٩٤، وعبّاس أبو صالح: التربية الاجتماعيّة عند الشيخ الفاضل أبي هلال، مجلّة «الفكر التربوي الإسلامي»، بيروت، ج ٢، ١٩٨٢، ص ١٩٢).
(٣) فؤاد أبو زكي: ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف، ص ١٩٨..
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠٢.
(٥) ملاحظة في الهامش لفؤاد أبو زكي.

وله أبيات في تجلّيه عزّ وجلّ، مطلعها:

تَـوَحَّـدَ مـولانـا بـعـزٍّ وقـدرةٍ　　تـعـالى عَـنِ الأشبـاهِ ربُّ البـريّـةِ
تَفـرَّدَ بـالجَبْـروتِ والمَجْـدِ والعُلَى　　تَقَـدَّسَ عَنْ أوصـافِ كُـلِّ الخليقـةِ
بـقـوَّةِ سلطانٍ ونـاسـوتِ ظـاهـرٍ　　ولاهـوتِ قـادرْ[1] ومَـجْـدٍ وعـزّةِ
إلَـهٌ تَـجَلَّى لـلعِبـادِ بـأسْرِهِـمْ　　أنْسـاً وتقـريبـاً بلطفٍ ورحـمـةِ[2]

وممّا جاء في قهر النفس والتوبة في مقطوعتَي «توسّل» و«بكاء العين»:

مُـرادي يـا إلَـهي قـهـرُ نفـسي　　فـهـذا مُنْتَهَى أرَبي وحَـدْسِي...
بَكَتْ عيـني وحَقَّ لهـا بُكـاهـا　　ومـا يُغْنِي البُكـاءُ ولا العـويـلُ
سـألتُـكَ سَيّـدي قَصْـدي رَجـائي　　بِـمَـنْ هُـوَ لـلوَرَى هـادٍ دَليـلُ
تَـمُنَّ[3] بـتـوبـةٍ وجـمـيـلِ عـفـوٍ　　وتَغْفِـرَ[3] مـا جَنَى العبـدُ الـذَّليـلُ
فـمـا لي مِنْ مُعـينٍ أو نَـصيـرٍ　　سِـوى عَلْيـاكَ يـا نِعْمَ الـوكيـلُ[4]

وهكذا، كان الشيخ الفاضل خير ممثّل للشعر الصوفيّ في لبنان، مطبّقاً مبادىء التصوّف بالمعرفة، والسعي الروحي، والعمل الدؤوب. فامتزجت شعائر الدين لديه بشخصيّته المتّصلة دوماً بربّها. وكان عمله جزءاً من محبّته لله في مخلوقاته، ومن إسهامه في مجده تعالى. وقد عدّه الدكتور عبّاس أبو صالح[5] «من رعيل المدرسة الفكريّة الروحيّة التي بدأت بعهد الأمير السيّد عبد الله التنوخي قبل ذلك بنحو قرن من الزمن. وتمتاز هذه المدرسة بتأثّرها بفلسفة التصوّف الإسلاميّ وبالتشديد على دور سلوك الفرد وأخلاقه في

(١) سكّن الشاعر الراء لضرورة شعريّة، وهو جواز غير مقبول.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢١١. ولاحظ أبو زكي في الهامش أنّ هذا التجلّي جرى في الذرء الأوّل، وقال الله عند تجلّيه بالصورة الناسوتيّة: ﴿ألست بربّكم، قالوا بلى شهدنا﴾ (الأعراف ١٧٢/٧).
(٣) أي أنْ تَمُنَّ وأنْ تَغْفِرَ.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٢ و٢١٣.
(٥) من أساتذة الجامعة اللبنانيّة.

المجتمع كمعيار لتديّنه وإيمانه بالله تعالى»[١].

وفي سعينا إلى ممثّلين لشعر التصوّف في لبنان عثرنا على **المطران جرمانوس فرحات**، وتلميذه **الأب نيقولاوس الصائغ**، اللذين اندمجا بالجوّ اللبنانيّ واتّجاهاته، ونشرا جلّ نتاجهما في وطن الأرز، وتوهّج لديهما الشعر الدينيّ بالتصوّف. وإذا كانت المعاناة الأساسيّة للتصوّف العربيّ إسلاميّة على الأخصّ، فإنّ المسيحيّة من روافده[٢]. وقد عرف العرب النسك المسيحيّ منذ الجاهليّة، وورد ذكر الرهبان في شعرهم، مثل قول امرىء القيس في معلّقته:

تُضيءُ الظلامَ بالعَشِيِّ كأنَّها ... مَنارةُ مُمْسِي[٣] راهبٍ مُتَبَتِّلِ
... يُضيءُ سناهُ أو مصابيحِ راهبٍ ... أمالَ السليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ[٤]

وأقرّ القرآن الكريم للنصارى بأنّهم أقرب الناس مودّة للذين آمنوا، ﴿ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون﴾[٥].

و «أخذ الصوفيّون عن الرهبان لبس الصوف الخشن، وشابهوهم في الفقر، فجعلوه من مقاماتهم... ومال بعضهم إلى التبتّل ولا تبتّلَ في الإسلام... وكان للرهبان المسيحيّين السريان، منذ القرن السادس المسيحيّ، مؤلّفات صوفيّة مسيحيّة في اللغة السريانيّة، ترجمت إلى العربيّة قبل ظهور الصوفيّة الإسلاميّة»[٦].

والتصوّف قديم في المسيحيّة، وهو مشهور عند أمثال القدّيسين أغوسطينوس (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م)، وبينوا النرسياني الإيطالي (حوالى

---

(١) عبّاس أبو صالح: **التربية الاجتماعيّة عند الشيخ الفاضل أبي هلال**، ص ١٧٧.
(٢) Encycl. de l'Islam, IV/ 719.
(٣) بمعنى الإمساء.
(٤) **المجاني الحديثة**، ١/٣٣، ٣٧، والبيت السابق للثاني:
أصاحِ ترى برقاً أُريكَ وميضَهُ ... كَلَمْعِ اليدينِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
(حَبِيّ مُكَلَّل: سَحاب متراكم مستدير كالأكاليل).
(٥) المائدة، ٨٢/٥.
(٦) عبده الشمالي: **دراسات في تاريخ الفلسفة العربيّة الإسلاميّة**، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣.

٤٨٠ ـ ٥٤٧ م)، وفرنسيس الأسّيزي (١١٨٢ ـ ١٢٢٦)، وتريزيا الأفيليّة (١٥١٥ ـ ١٥٨٢)، ويوحنّا الصليبي (١٥٤٢ ـ ١٥٩١)، والأديب العالم الفرنسيّ بليز باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢)...

ولئن اتّصفت النسكيّة المسيحيّة، عموماً، في الغرب، بعقلانيّتها، وتعارضت، بذلك، رهبانيّة الغرب مع الرهبانيّة الشرقيّة، فإنّ نزعات الإصلاح الدينيّ الغربيّة طالما تجلّت بصوفيّتها، إذ نرى أنّ «التجربة الدينيّة الأرقى، التي جهدت التقوى اللوثيريّة لأن تبلغها، في صورتها المعروفة خلال القرن السابع عشر، هي التوحّد الصوفيّ بالألوهيّة. إنّ المقصود هو الشعور بالذوبان في الخالق، هذا ما يوحي به اللفظ الذي لم يكن معروفاً في ظلّ هذه الصيغة من المذهب الإصلاحي: الشعور بأنّ نفس المؤمن باتت محاصرة بالربّاني فعليًّا، بشكل يماثل فعل التأمّل لدى الصوفيّين الألمان، ويتميّز بأنّه ينتظر انتظاراً سلبيًّا تحقيق الرغبة الجامحة بالحلول في الله، كما يتميّز أيضاً بسريرته الوجدانيّة»(١).

ولا غرو في أن يلتزم الرهبان التصوّف وثيابهم المسوح(٢)، وقوام التصوّف المناجاة التي تتمثّل في حبّ الذات الإلّهيّة، والهيام في الله وأوليائه. وكما يقول الدكتور زكي مبارك: «حبّ العبد ربّه من صفات المتبتّلين»(٣). والكتب الدينيّة مليئة بالابتهالات الصوفيّة، و«أقدم الآثار الصوفيّة هو سفر أيّوب الذي شرح البلايا الإنسانيّة، وصوّر حيرة المرء بين السعادة والشقاء، والهوى والضلال»(٤).

وإن تمثّلنا بشعر فرحات والصائغ الذي يحتوي على مفاهيم التصوّف، ويتّصف بصفاته، فلا يعني هذا أنّ الراهبين كانا يعيان تصوّفهما، ويقرّان به.

---

(١) ماكس ڤيبر: الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة، ترجمة محمّد علي مقلّد، مركز الإنماء القومي، بيروت/ باريس، لات.، ص ٧٥، ٧٨، ٨٤.

(٢) من الآراء المشهورة في الصوفيّة أنّها حازت تسميتها من لبس أتباعها الأثواب الصوفيّة الخشنة. (Encycl. de l'Islam, IV/ 715).

(٣) زكي مبارك: التصوّف الإسلاميّ في الأدب والأخلاق، ١/ ٢٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ٢/ ٧.

فالتصوّف، اعتقاداً، يخالف الشرع واللاهوت، ويبالغ في مظاهر التقشّف والتقى، و«لا تسلّم به الديانات الحنيفيَّة، والمذاهب اللاهوتيّة النظريّة»(١). فالأديان تعتقد بالوجود كما خلقه الله، وكما يتبدّى للعيان، «والمتصوّف مثاليّ يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنّ العالم الحسّي ليس إلّا من وحي الحواس وخداعها»(٢). ولا يتناقض هذا وما جاء في دائرة المعارف الإسلاميّة من أنّ «الإسلام السنّي المتزمّت لا يرفض من التصوُّف سوى نزعاته المتمادية في الحلوليّة، والتألُّه، والشذوذ عموماً، مثلما كان شأنه مع ابن عربي والحلّاج»(٣). فالدارسون الذين أبعدوا التصوُّف عن المذاهب الدينيّة المستقيمة، كالدكتور جبّور عبد النور وغيره، إنّما نظروا، مع هذه المذاهب، إلى تطرُّفه وادّعائه ما يتعدّى قدرات الإنسان، وثوابت العلوم الوضعيّة، ومضامين الكتب الدينيّة التي تقرّب الإنسان من الله، إلّا أنّها تبقي بينهما الفسحة الواجبة بين السيّد الخالق والعبد المخلوق. أما سائر السُّبل التقشُّفيّة التي يتّبعها المؤمن المتصوّف، فليست سوى التزامات مثاليّة متسامية على طريق التُّقى والعبادة.

وإنْ رأينا الدكتور بكري شيخ أمين يخصّ الشعر الدينيّ والتصوُّف بعنوانَين مستقلّين في كتابه «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني» (ص ٢٢٩ و٢٣٣) فإنّه جعل من التصوُّف في آخر كلامه على الشعر الدينيّ أحد أقسام هذا الشعر إذ قال: «من الشعر الدينيّ قسم اتّجه إلى الله ـ جلّ جلاله ـ وهو ما نسمّيه بالشعر الصوفيّ»(٤). والشواهد على شمول الدين للتصوُّف كثيرة نخصّ بالذِّكر منها شاهدين حديثين، أحدهما للمطران جورج خضر، والثاني للشاعر أدونيس(٥).

---

(١) جبّور عبد النور: **التصوّف عند العرب**، ص ٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٦.
(٣) Encycl. de l'Islam. IV/ 717.
(٤) بكري شيخ أمين: **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، ص ٢٣٢.
(٥) علي أحمد سعيد إسبر، (١٩٣٠ ـ ٠٠٠).

قال المطران خضر: «في الكنيسة الشرقيّة ليس من فاصلٍ إطلاقاً بين اللّاهوت والتصوُّف، اللّاهوت والعبادة، وهي في عدّة جوانب تعبّر عن حقيقة واحدة يمكن القيام بها في بحثٍ أكاديميّ أو ترتيبٍ سلوكيّ. كلُّها لغات مختلفة لخطاب روحيّ واحد»[1].

وقال أدونيس: «عُرفت الصوفيّة بكونها حركةً دينيّة» متحفِّظاً بقول ابن تيمية[2]: «على أن يُعبد الله وحده، وأن يُعبد بما شرع ولا يُعبد بالبِدع»، وزائداً تعليله: «بسبب الخروج على المذهبيّة، اتّهمت الصوفيّة بالهرطقة والإلحاد»[3].

والشبه واضح بين الرهبانيّة والتصوُّف حتّى أنّ الدكتور زكي مبارك يقابل بين النصارى عموماً والمتصوِّفين، فيقول: «والتشابه كبير جداً بين مذاهب النصارى ومذاهب الصوفيّة في التعبُّد، فالنصرانيّ المتبتّل يدخل الكنيسة وفي جيبه كتاب يشتمل على طوائف من الأدعية والصلوات، والصوفيّ المخلص يدخل المسجد وفي يده كتاب يشتمل على طوائف من الاستغاثات والأحزاب والأوراد»[4].

وأكثر ما نجد شعر فرحات الصوفيّ في ذكر السيّد المسيح، ومديح مريم العذراء. وقد قرأنا من شعره ٣٧٦ قصيدة أو مقطّعة قصيرة، أحصينا له فيها سبعاً وثلاثين في المسيح، وثمانين في العذراء. أمّا تلميذه نيقولاوس الصائغ، فحاول اللحاق به، ولكنّه قصّر عن مداه كمّاً وكيفاً.

ومن شعر فرحات في مدح المسيح وهو في حلب سنة ١٦٩٥:

آلَ شَوقي لآلِ بيتِ يَهوذا رُبَّ شَوقٍ تُبيدُهُ الدَّعْواءُ[5]

---

(١) جريدة النهار، العدد ١٨٢٩٠، الجمعة ١٩٩٢/٧/٣١، ص١٤، تحت عنوان: «نحن الأرثوذكس لسنا فلاسفة، نحن لاهوتيّون بسطاء القوم».

(٢) ابن تيميّة (١٢٦٣ ـ ١٣٢٨) في كتابه: معارج الوصول، القاهرة ١٣٨٧ هـ، ص١٤.

(٣) أدونيس: الصوفيّة والسورياليّة، ص ١٥، ٢٠، ٢٦.

(٤) زكي مبارك: التصوُّف الإسلاميّ في الأدب والأخلاق، ٦٦/٢.

(٥) الدعواء: الدعوى؛ الادّعاء.

وَعَـرَّفَـنـي حَـبِـيْـبُ قَلْبِـيَ لَـمَّـا   وَسَـمْـتـنـي بِـدَمْـعِـهـا الـخَـنْـسَـاءُ
فَـغـرامي بِـحُـبِّـهِـمْ كَـفُـؤادي   وفُـؤادي تُـذيـبُـهُ الـبَـلْـواءُ[1]

وله شعر يظهر فيه عشقه وغرامه بالعزّة الإلَهيّة، نظمه عام ١٧٠٨، وهو يردّد فيه لفظ الله وكأنّه في حلقة ذكر، ومطلعه:

الـلّهُ الـلّهُ أنْـتَ الـسمـعُ والـبـصـرُ   في الـعـاشقينَ وأنْتَ الفـوزُ والـوَطَـرُ
... عِشقي وشَوقي غرامي في مَحَبَّتِكُمْ   سِـرٌّ سَـرُورٌ ونـارٌ ضِـمْـنَـهـا شَـرَرُ
إنْ تَهْجُـروني أجِدْ في وصْلِكُمْ طَمَعـاً   كالشَّمسِ تُرجَى وجِنْحُ اللَّيلِ مُعْتَكِرُ[2]

وقال يتغزّل بجمال قلب يسوع الأقدس:

يـا قـلبُ طِـرْ من وُكْـنَـةِ الأَحْشـاءِ   نَـحْـوَ الحبيبِ الـفـاخـرِ الأَزْيـاءِ
... فجمـالُـهُ نَفْسُ الجَمـالِ وإنّمـا   مِنْ حُسْنِـهِ قَـدْ كُـوِّنَ ابنُ ذُكـاءِ[3]
... مَنْ لي بأنْ أحظى بِكُمْ كَيْ يَرْتَوي   مِنْ عَـذْبِ مَـوردِكُمْ شـديـدُ ظَمـائي
... قَسَماً بناتَ القدسِ إنْ مَرَّ الحَبيـ   ـبُ بِكُنَّ صِفْنَ لَـهُ احتِكـامَ ضَنـائي
إنَّ الـمَـحَـبَّـةَ أضْعَـفَـتْـني فَـهْـيَ لـيْ   مَـوتٌ ألَـذُّ مِـنَ الـحَـيـاةِ لِبَّـاءِ[4]

وقال يمدح مريم البتول وهو في حلب عام ١٦٩٤:

وقُـلِ السَّـلامُ عليـكِ مِنْ صَبٍّ غَـدا   يَـحْـنُـو أضـالـعَـهُ عَـنِ الـرَّمْـضـاءِ
لَـوْ كـانَ يُمكِنُ أنْ يُـريْـكِ[5] ضنـاءَهُ   لأراكِ لـكِـنْ لَـيْـسَ بـالـمُـتَـرائـي
أصْغِي لِصَـوتِ أنينِـهِ كَيْ تَـعْـرِفي   مِـنْ صَـوتِـهِ مـا فـيـهِ مِـنْ بَـلْواءِ
... أفْـديـكِ مِنْ قَمَـرٍ بـدا مُتَنَـزِّهـاً   عَنْ نَقْصِ مَـرْتَـبَـةٍ وخَسْـفِ ضِيـاءِ
... إنْ كُنتِ في شَـرَفِ العُـلا كُلِّيَّةً   فَـهَـواكِ مِـنّـي شـامِـلُ الأَجْـزاءِ

---

(١) ديوانه، ص ٢.
(٢) ديوانه، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٣) ذُكاء: الشمس؛ وابن ذُكاء: الصبح.
(٤) ديوانه، ص ٤٤ ـ ٤٦. والباء: الرجل الكثير الجُماع.
(٥) سكّن الياء في «يريْكِ» لضرورة شعريّة.

... كُلّي لِسانٌ عَنْ غرامي ناطِقٌ والذِّكْرُ والتَّفْكيرُ مِنْ شُهَدائي
... يا مَرْيَمُ البِكْرُ ارحمينِ[1] بنظرةٍ كيما أراكِ ولاتَ حينَ فَنائي[2]

وممّا قاله متغزّلاً بمديح العذراء وهو في طرابلس عام ١٧٢٠:

... إنَّ لي في هواكِ مريمُ قلباً مُستَهاماً فليسَ يقبلُ نُصْحا
وفؤاداً يذوبُ فيكِ غراماً وعيوناً تُردِّدُ الدَّمْعَ سَفْحا
طالَ شوقي وزادَ فيكِ حَنيني وأَحلَّ الهَوى دَمي وأَلَحّا[3]

ونختار من شعر نيقولاوس الصائغ الصوفيّ شاهدين: الأوّل من القصيدة التي دعاها «الخريدة المقصورة»[4]، ونظمها في شرف القربان المقدّس والذبيحة السرّيّة الإلّهيّة التي هي السجود الفائق والوفاء الأعظم لعظمة الجلال الإلّهيّ وهو في دير ماريوحنّا الصابغ في الشوير عام ١٧٤٣:

لِذبيحةِ الغفرانِ يَنْبُوعُ الفِدَى وضَحِيَّةُ القُرْبانِ ضَحْوَةَ والعِشا
خُرُّوا إلى الأذْقانِ يا أهْلَ الوَرَى واهْدُوا السُّجُودَ من الملائِكِ والقُوَى
فَهْيَ السُّجودُ الأعظمُ الأسْمَى لِعِظْـ ـمِ جلالِهِ والمُقْتَضيهِ مِنَ الوَلا
... هُوَ لَذَّةُ الأرواحِ يُخْبَرُ بالنّهى مِنْ ذي التُّقى[5] وسِواه يُخْبَرُ باللُّها
... لَوْ حامِلُ النورِ احْتَسَى مِنْ كَأْسِها ما كانَ نَحْوَ العُمْقِ بالكِبْرِ انْهَوَى
... ما خَيْرُ مُلْتَذٍّ سِوى خُبْزِ التُّقى ما نَشْأَةُ الأرواحِ إلّا ذا الطِّلا
... يا لاحِياً فيهِ أَلَحَّ مُتَيَّماً قُلْ يا لَحاكَ اللّهُ مَعْ لاحٍ لَحَى[6]

والشاهد الثاني من اثني عشر بيتاً قالها متغزّلاً في العزّة الإلّهيّة:

ما أنا في هَواكَ بالمُرْتابِ يا مليحاً هواهُ عينُ الصوابِ
قَدْ تَمَلَّكْتَ مُهْجَتي وحيَاتي ومَماتي وكلَّ ما لي وما بي

(١) حذف الياء في «ارحمين» للضرورة الشعريّة أيضاً.
(٢) ديوانه، ص ١٥ ـ ١٨.
(٣) ديوانه، ص ١٣٥.
(٤) تقع هذه القصيدة في ٢٣٨ بيتاً من البحر الكامل.
(٥) نلاحظ، هنا، خطأ لغويًا في ذكر الفاعل بعد فعل مجهول.
(٦) ديوانه، ص ١٤ ـ ٢٤.

مــا تــأمَّــلْتُ فــي جــمــالِــكَ إلّا عُــدْتُ والعَقْــلُ مُشْغَــلٌ عَنْ خِطابي
فـغِيــابــي عــمّــا سِــواكَ حُـضُــوري وحُـضُــوري لَــدَيْــكَ نَفْسُ غِيــابي
. . . لــذَّ لي في هَــواكَ تَعْـذيبُ قَلْبي وَرَأَيْــتُ الــهَــنــا بــذاكَ الــعَــذابِ
. . . يــا حَـبيـبَ الفـؤادِ إنَّ غَــرامي فيـكَ أَرْبَى على الـرُّبَى والهِضـابِ[1]

كما أنّ له شعراً في مدح مريم البتول، ينسج فيه على منوال معلّمه[2]، ولا نرى فائدة في إثبات شذرات منه.

وما أثبتناه من شعر فرحات والصائغ الدينيّ يتضمّن الكثير من عناصر التصوّف، على رأسها العنصر المسيحيّ. كما نلمس فيه المناجاة والمديح والحبّ والوجد والعشق والتغزّل بالمسيح، والعزّة الإلّهيّة، ومريم العذراء. ويلفت الباحث في هذا الشعر كثرة توجّهه إلى العذراء التي فاق الشعر فيها لدى الشاعرين ما نظماه في المسيح نفسه، وذلك يعود، بنظرنا، إلى ما تمثّله العذراء من صفات الأمومة، والحنان، والطهارة، والجمال، والشفاعة، والظهور، والمثاليّة الإنسانيّة. كما يعود إلى إيمان المسيحيّ بأنّ عبوديّته لها تَدْرَأ عنه الشرّ والهلاك.

ولعلّ عنصر الحبّ هو من أبرز سمات التصوّف، والمحبّة لبّ المذاهب الدينيّة واختصار لمبادئها، وهي طاغية على شعر الراهبين. ولقد خصّ الدكتور زكي مبارك الحبّ، في دراسته المستفيضة حول التصوّف، بعنوان لافت معبّر: «الحبّ الحبّ الحبّ». وبعده يقول: «بداية الصوفيّة في الحبّ»، ويتابع: «فما أعرف كلمة من أسماء المعاني شغلت الصوفيّة كما شغلتهم كلمة الحبّ، ويكفي أن نتذكّر أنّ أناشيد الصوفيّة تدور كلّها حول الحبّ»[3].

أمّا السكر بالله و«الخمر الإلّهيّة»[4]، فليسا شائعين في شعر متصوّفي

---

(١) ديوانه، ص ٢١.
(٢) ديوانه، ص ٤١ ـ ٤٥، ٥٨ ـ ٦٢، ٧٧ ـ ٧٩، ١٦٦ ـ ١٧٠، ١٧٦، ١٨٣، ١٩٦.
(٣) زكي مبارك: **التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق**، ٢/٢٢٨.
(٤) يحتفل المتصوّفون كثيراً بالخمر التي يحرّمها القرآن الكريم في هذه الدنيا، ويعد بها الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنّات النعيم. (Encycl. de l'Islam, IV/718).

النصارى، وهم يجلّون «خمر التقديس» عن التسبّب بضياع الهدى، ويرون فيها، على العكس، مباءة للاستنارة وتعزيز الروح، كما ورد في شعر نيقولاوس الصائغ المذكور آنفاً:

... لَوْ حاملُ النُّورِ احْتَسَى مِنْ كَأْسِها ... ما كانَ نَحْوَ العُمْقِ بالكِبْرِ انْهَوَى
... ما خَيْرُ مُلْتَذٍّ سِوى خُبْزِ التُّقَى ... ما نَشْأَةُ الأَرْواحِ إلاّ ذا الطِّلا

ومقامات الصوفيّة[1] بادية لدى الشاعرين حيث يتجلّى الورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكّل، والرضا. أمّا التوبة فنلمسها في شعر معبّر للمطران، إذ قال، مثلاً، وهو في طرابلس يوبّخ ذاته ويحثّها على الموت والتوبة عام ١٧٠٨:

... يا ربِّ إقْبَلْ تَوبَتي ... مِنْ قَبْلِ أنّي أفْتَضِحْ
يوماً تَقومُ مُناقِشاً ... والسِّرُّ عِنْدَكَ يَتَّضِحْ
إنْ كانَتِ الأبرارُ مِنْ ... صَوتِ اقْتِدارِكَ تَنْطَرِحْ
ما حالُ مَنْ قَدْ كانَ عَنْ ... آثامِهِ لا يَنْتَزِحْ[2]

وقوله هذا قريب من قول أبي نواس:

يا ربُّ إنْ عَظُمَتْ ذُنوبي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بأنَّ عفوكَ أعظَمُ
إنْ كانَ لا يَرجوكَ إلاّ مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يلوذُ ويَسْتَجيرُ المُجْرِمُ
أدعوكَ ربِّي كما أمَرْتَ تَضَرُّعاً ... فإذا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذا يَرْحَمُ[3]

وتثبت لنا القيمة الصوفيّة لهذه الأبيات إذا ما سمعنا الدكتور زكي مبارك يؤكّد: «إنّ لأبي نواس أشعاراً في الندم هي أقوى وأصدق من كلّ ما نظم أبو العتاهية في الزهد»[4]. ولا يبعد الزهد كثيراً عن التصوّف. ولفرحات شعر كثير

---

(١) راجع هذه المقامات في كتاب الدكتور جبّور عبد النور: **التصوّف عند العرب**، ص ١٠١ ـ ١١٠، وفي Encycl. de l'Islam, IV/717.
(٢) ديوانه، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٣) علي أحمد الزبيدي: زهديّات أبي نواس، ص ٦٩.
(٤) التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ١/٣٤.

في التوبة، والزهد، وذمّ الدنيا(١). ويلفتنا لديه تسميط أبيات مشهورة في الزهد والتصوّف للسُهْرَوَرْدي نظمها عام ١٦٩٢ ومطلعها:

خَلَعَتْ هياكلَها بجَرْعاءِ(٢) الحِمَى   كَرَهاً وَقَدْ أَزِفَتْ لأنْ تَتَعَلَّقا(٣)

وليست الأحوال الصوفيّة(٤) بعيدة عن شعر الأب والمطران، إذ نجد فيه المراقبة والقرب، والمحبّة والخوف، والرجاء والشوق، والأنس والطمأنينة. أمّا المشاهدة واليقين فلم يبلغاهما، ولا قصداهما، ولا اعترفا بهما؛ وهما يلتصقان، في عرفهما، بالمسرفين الشاطحين، ولا يستهويهما التصوّف إلاّ استرسالاً مع الله تعالى(٥). ولا ننتظرنّ من رجلَي دين مسيحيّين أن يعتقدا بوحدة الوجود Panthéisme التي نادى بها أمثال ابن عربي أو ابن سبعين(٦).

ويلفتنا فيما ذكرنا من شعر الصائغ وفرحات ما يتّسم به شعرهما من طلاوة، وسهولة، وبُعْد عن التصنّع والتكلّف والترصيع والتزيين، حتّى لتكاد لغة هذا الشعر تلامس اللغة النثريّة. إنّها لغة السجيّة والعاطفة القلبيّة الصادقة، لغة الابتهال والمناجاة. وهما في ذلك، يسلكان مسلك المتصوّفين، ويذهبان مذهبهما التعبيريّ الصافي، ويبتعدان، في الوقت نفسه، عن باطنيّة الرموز والإشارات الغامضة. قال الدكتور زكي مبارك: «وإذا كان الصوفيّة شُغلوا في

---

(١) ديوانه، ص ١٥٠، ١٨٣، ٢٢٥، ٣٠٠، ٣٣٠.

(٢) الجَرْعاء: رملة مستوية لا تُنبت شيئاً.

(٣) ديوانه، ص ٣١٠.

(٤) راجع الأحوال الصوفيّة لدى جبّور عبد النور: **التصوّف عند العرب**، ص ١١١ ـ ١١٧. ويذكر أدونيس أنّها عشرة: المحبّة، الغيرة، الشوق، القلق، العطش، الوجد، الدّهش، الهيمان، البرق، الذوق. ومراحل الفناء أو درجاته ثلاث: المكاشفة، التجلّي، المشاهدة (**الصوفيّة والسوريالية**، ص ٤١ و ١١٩).

(٥) المرجع نفسه، ص ٩١؛ وعبده الشمالي: **تاريخ الفلسفة العربيّة الإسلاميّة**، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٦) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمّد بن نصر الإشبيليّ. ولد في وادي قُوطَه من أعمال مرسيه Murcie، وتوفّي في مكّة منتحراً أو مسموماً (١٢١٧ ـ ١٢٧٠). قصد شمالي إفريقية مع تلاميذه. تزوّج امرأة موسرة في سبتة. ثمّ رحل إلى قابس في تونس، فالقاهرة، فمكّة حيث نشر دعوته وألّف بعض كتبه وخلّف حوالى ٤١ مصنّفاً (أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: **مدخل إلى التصوّف الإسلامي**، ص ٢٥١ ـ ٢٥٥، و Encycl. de l'Islam, IV/718)

أدبهم عن الزخرف والبريق، فلهم عذر مقبول، فقد كانت لهم مسالك تبغض الزخرف، وتنفر من البريق، لأنّهم أرادوا أن يسجّلوا ثورات الخواطر والنفوس والقلوب تسجيلاً أميناً، وذلك لا يتمّ لمن يُشغل بغير المعاني»[1].

وختاماً، لا تثريب علينا في أن توقّفنا في لبنان خصوصاً عند التصوّف المسيحيّ، والمسيحيّة من أصول التصوّف. وربّما كان أقرب إلى طبيعة المذاهب وطبيعة لبنان أن يكون شاهدانا راهبين شعارهما الصليب. أمّا المتصوّفون المسلمون، بأحزابهم، وأورادهم، وأدعيتهم، ومدائحهم، وحلقاتهم، وتكاياهم، وطرقهم، فقد عمّت شواهدهم، وحفلت بهم المجتمعات العربيّة. ولا يضير اختيارنا إحجام المسيحيّين عن التزام الشطحات، والمكاشفات، والسعي إلى بلوغ المشاهدة النورانيّة أو مشاهدة الحقّ[2]، إذ إنّ التصوّف قد يكتفي «بكلّ عاطفة صادقة، متينة الأواصر، قويّة الأصول، لا يساورها ضعف، ولا يطمع فيها ارتياب... وهو خليق بأن يصحب كلّ نزعة شريفة من النزعات الوجدانيّة»[3]. والمنطلق إلى التصوّف من مذهب حقّ، مسلماً كان، أو درزيًّا، أو مسيحيًّا، ليس كالمنطلق من وهم وخرافة، وحلقات ذكر، وغيبوبة جسديّة، لأنّ هنالك اختلافاً جوهريًّا بين الدين والتصوّف الذاهب إلى أقصى مداه.

ثالثاً ـ النثر

كان فريق من الأدباء يعبّر بالنثر عن خلجات فؤاده وشواغل نفسه، وفريق آخر يمتهنه طريقةً للعيش كالعمل في الدواوين أو الكتابة لبعض الأمراء والوجهاء، وفريق ثالث ينصرف إلى كتابة التاريخ[4]. وكان الملوك والأشراف والوجهاء يرون في الكتابة والقراءة صفةً لا تليق بمقامهم، وهو عرف ورثوة عن

(١) زكي مبارك: التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ١/٣٩٢.
(٢) Encycl. le l'Islam, IV/717.
(٣) المرجع السابق، ١/٢٠ ـ ٢١.
(٤) كمال اليازجي: روّاد النهضة الأدبيّة، ص ٤٥.

عهد الانحطاط في الشرق والغرب على السواء، فاستعملوا كتّاباً وقرّاءً يغنونهم عن التبذّل، ويكفونهم زرع الريش أو أقلام الغزّار والمحابر في خواصرهم. جاء في مجلّة «أوراق لبنانية»: «كانت الأميّة أو ما يقارب منها متفشيّة في رجال الحكم، غالبةً على ذوي الإقطاع إلى أواخر القرن السابق... وفي أوروبة كان كثيرون من الحكّام ومن هم في حكمهم يصدرون أوامرهم: نحن فلان برنس أو دوق كذا الذي لا يعرف يقرأ ولا يكتب. يقولونها في معرض الفخر والاعتزاز ترفّعاً عن صناعة الكتابة ومعرفة القراءة اللتين هما من خصائص العوام. وكان الوزير العثمانيّ في زمن الانحطاط، إذا جاد خطُّه، عطّل رأس قلمه، كي لا تجيء كتابته حسنة فيُشبِهُ خطُّهُ خطَّ الكتّاب!»(١).

ويمكن تفريع أسلوب الكتابة، آنذاك، إلى مذهبين أساسيّين: مذهب التصنُّع، وهو الغالب، ومذهب الترسُّل العادي. فمن المذهب الأوّل نمثّل بقطعتين لعبد اللطيف فتح الله. الأولى يبدي فيها رأيه في الشعر بمقدّمة إحدى قصائده فيقول: «... وإنّي تحدّثني قوّتي الواهمة، وفكرتي الهائمة، أنّني لم آتِ فيها بشيء من المبالغة، وأنّها لم تكن إلى أدنى البلاغة بالغة... ومع هذا، لو رآها من يراها، لَقال إنّها بالغةٌ من المبالغة أقصاها، ولربّما يمدُّ لسان اعتراضه، ويجعلني لِسَهْمِ قَدْحِهِ من جملة أغراضه، وإنّي له أجيب بجوابٍ مُصيبٍ، وهو: إنَّ الشعر أبلغه أبدعُهُ، وأسناه مخترَعُهُ، وأحلاه وأعذبه مُختَلَقُه وأكذَبُهُ؛ كيف... والمبالغة أمرٌ أجمعت على قبوله طباعُ الفصحاء، وعلى استحسانه والميل إليه نفوس البلغاء. إلخ...»(٢).

والثانية في رثاء أستاذه أحمد البربير: «وكان ممّن تهافت على تعلُّمي له (أي الشعر)، ويُعلّق بأنّي أصير من أهله، العالمُ النحرير، الجَهْبَذُ الشّهير، إمام أهل الفصاحة والبلاغة، والنباهة والفطنة، من نال في كلِّ فنٍّ من الفنون إحكامه وإتقانه، الشاعر المُفلق البليغ الماهر، والخطيب المِصْقَعُ في الباطن والظاهر، لا يُجارَى، ولا يشقُّ له أحد في بلاغة القريض غبارا، فكم أكثر فيه من

---

(١) أوراق لبنانيّة، ١/٧، تموز ١٩٥٥، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ (مقال لعارف النكدي).
(٢) عبد اللطيف فتح الله: ديوانه، ١/٢٧.

الاختراع والابتكار، وأبرز منه المخدَّراتِ العرائسَ الأبكار، بسلاسة وطلاوة وانسجام وحلاوة، تطلع على أشعاره شموس القبول، وكلٌّ منها هو الحالي المقبول، مع حسنِ ذات، وحميد صفات، ورقيق طبع، وبديع إنشاءٍ وسجع، بقريحةٍ جيدة سيّالة صادقة، عيونها نضّاحة فيّاضة دافقة رائعة. تصيد شوارد المعاني البديعة الرقيقة الدقيقة الحِسان، كما شاهدتُ ذلك، وليس الخبر كالعِيان، تذلّلتْ له صعابُ القوافي وانقادت، وعلى طاعة أمره اعتادت، ألا وهو اللّوذعيّ الأديبُ الأريب، والألمعيّ الحاذق اللبيب، والهُمام الشّهمُ الفذ الأوحد، والجوهر الفرد والعَلَم المفردُ، القليلُ المثيل والنظير، سيّدي وأستاذي المرحوم، السيّد أحمد أفنذي، ابن المرحوم السيد عبد اللطيف، ابن المرحوم السيّد أحمد البربير، سقى الله تعالى ثراه شآبيب الرحمة والرِّضوان، وأسكنه في بحبوحةِ الجِنان، في جوار رِضوان. . . »[1].

أمّا الكتابة الجارية على الطبع بغير تكلُّف أو تصنُّعٍ أو تزويق، فنأخذها من مقدّمة كتاب الشمّاس عبد الله زاخر «الرِّهان الصريح في حقيقة سِرَّيْ[2] دين المسيح» المؤلَّف سنة ١٧٢١ : « . . . والحال أنّ أكثر مسيحيّي عصرنا هذا يجهلون هذه المعرفة، وذلك لفقر اللغة العربيّة، وعُدْمِ المدارس اللاهوتيّة. فهم مسيحيّون حقّاً يقيناً لكن بالتسليم فقط دون المعرفة. فلا يستطيعون أن يتكلّموا أو يوضحوا حقّ إيمانهم بدون خطر الضلال والغلط. ومن ثمّ يحصل هزؤاً وحمقاً الإيمان المقدّس المأخوذ عن شخص سيّدنا يسوع المسيح قدّوس القدّيسين وعن صفاته العجيبة؛ الإيمان الذي انتشر في العالم بنوع عجيب، أعني بمناداة صيّادين أُمّيّين لا بفصاحة النطق ولا بالسطوة والاقتدار، ولا بالترخيص للطبيعة بل بما يضاد ذلك؛ الإيمان المتضمّن سمّو التعليم والقداسة، الكابح أهواء النفس ومرقّيها إلى الاتّحاد بالله الذي خلقها على صورته ومثاله؛ الإيمان الذي تأسّس بالعجائب الفائقة والأفعال المذهلة التي أجراها تعالى على أيدي الكارزين به شهادةً لحقّه وتأييداً لاستقامته؛ الإيمان الذي لم يكن حدوثه

(١) المصدر نفسه، ١/٣٦ - ٣٧.

(٢) سرُّ التثليث وسرُّ التجسُّد الإلّهي.

باتّفاق وصدفة بل بتدبير إلّهيّ قد سبق تعالى وأخبر به عن ألسن أنبيائه القدّيسين؛ الإيمان الذي ألوف ألوف وربوات ربوات من الشهداء سفكوا دماءهم شهادةً لحقّه، ولم يكن الله ليرتضي بسفك دماء عبيده شهادةً للباطل؛ الإيمان الذي ثبت زماناً هكذا مستطيلاً نامياً بين كثرة الاضطهادات الفادحة والأحزان المبرّحة، ولم يكن نموُّه ممكناً على هذه الصفة لو لم يعضده الله تعالى الحقّ الأزليّ. فهذا الإيمان المقدّس إذ قد حصلت حقائقه مجهولةً من كثيرين ألجأتنا الضرورة أن نجرّد العناية والاهتمام بطبع هذا البرهان المختصر لتمكن مطالعته بتكرير ليفهم القارىء معانيه ويسهل على كلّ غنيّ وفقير أن يقتنيه»[١].

ولئن لم تبلغ هذه الكتابة مستوى الإنشاء الأدبيّ الرفيع، فإنّها تمهيد واضح له، وسير سليم في اتجاهه. وفي كلّ ما قرأنا من القرن الثامن عشر، لاحظنا تطوّراً في الكلام المنثور يضاهي ما لحق الكلام الموزون، بل قد ينوف عليه كمًّا وكَيْفًا، إذْ هو ألصق بحياة الإنسان اليوميّة وحاجاتها، وهو يجاري نمط العصر في تزيينه وترصيعه وتسجيعه وتقيُّده بفنون البديع عموماً. «وكرّت القرون على الإنشاء وهذه حاله: الخلف يقلّد السلف متقيّداً بما وضع له من قواعد لغويّة وبيانيّة، جارياً وعيناه إلى الوراء في سبيل الحياة الأدبيّة»[٢].

ألف ـ الرسائل

عرفنا منذ القرن الخامس عشر رسائل ومصنَّفات دينيّة مختلفة على يد جبرائيل إبن القلاعي (١٤٤٧ ـ ١٥١٦)[٣]، كما اتّصلت الرسائل بين بطاركة الموارنة وأساقفتهم وبين الكرسي الرسولي في رومية[٤]. وفي بحثنا حول

---

(١) أعلام النهضة الحديثة، ١/٢٤٧ ـ ٢٤٨، من مقال لفؤاد أفرام البستاني بعنوان «عبد الله زاخر» مستلّ من مجلة الكتاب المصريّة، ج ٦ (١٩٤٨)، ص ٣٨٦ ـ ٣٩٨.

(٢) أنيس المقدسي: تطوُّر الأساليب النثريّة، ص ٢١٦.

(٣) اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٣٦٩. ومجمل مؤلّفات إبن القلاعي مذكورة في الكتاب، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٦، ٤١٦، ٤٢٠؛ والوثائق الوافية في هذا الموضوع في أرشيف=

«المدرسة المارونيّة» خصصنا الرسائل بعنوان خاصّ متقدِّم، وأبرزنا كثرتها، وأعطينا نماذج وافية عنها. وعرفنا الرسائل في القرنين السادس عشر والسابع عشر مع بهاء الدين العاملي (١٥٤٦ - ١٦٢١) وسواه من أدباء جبل عامل، كما عرفناها مع الشيخ محمد أبي هلال الفاضل (١٥٧٩؟ - ١٦٤٠) وغيره[١]. «ولقد أربت نسبة الرسائل من نثر العصر على نسبة فنونه الأخرى»[٢].

كان سلاطين الأتراك يرسلون التعريفات، والكتب الشريفة، والفرمانات، إلى الرعيّة والدول والأقاليم والأمراء والأعيان والقناصل وكبار الموظّفين[٣]، يُملون فيها إرادتهم، أو يبلّغون أخبارهم وقراراتهم. ففي عام ١٧٦١ أرسل السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) إلى كلّ بلاد السلطنة يبشّرهم بولادة ابنه سليم. ومطلع الفرمان: «دستور مكرّم، مشير مفخّم، لنظام العالم، مدبِّر أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متمِّم مهمّات الأنام بالراي الصايب، ممهِّد بنيان الدولة والاقبال، مشيِّد أركان السعادة بالإجلال. . .» ومنه: «وأشرقت العطيّة السبحانيّة، وتلالت أنوار المنحة الصمدانيّة. . . بزغ الكوكب المنير من سلالتنا سلطان سليم، أقرن الله تعالى شأنه في البقا والتكريم، وجعله متعافياً في مهده، راضعاً حليب المسرّة من نهده، فاقتضى أنّنا أشهرنا وأظهرنا بشاير البهجة والأفراح، وعلايم السرور والانشراح، إلى جميع من هم تحت ذرى حمايتنا وسلطنتنا داخل وخارج مملكتنا. . . فلزم إصدار بشارتنا لكم عن يد افتخار الأماجد والأكارم قبجي باشي دام مجده. ففي وصوله إليكم تعملون دُعا في دوام سلطنتنا، وامتداد عمر سليلتنا، أنتم وساير العباد والزهّاد، وتشهرون ذلك في المحافل والمساجد، بالدُعا على المعتاد القديم، وتزيّنوا الأسواق والمصادر، والحصون والقلاع، وتشهروا ذلك بإطلاق المدافع والشُنُك[٤]

= البطريركيّة المارونيّة في «بكركي»، وفي كتاب المجمع اللبناني، ذيل للمجمع اللبناني، ص ١٤٩ - ١٧٢.

(١) فؤاد أبو زكي: ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف، ص ٢٣٤ وما بعدها.

(٢) أسامة عانوتي: الحركة الأدبيّة في بلاد الشام، ص ٩٠.

(٣) أنيس المقدسي: تطوُّر الأساليب النثريّة، ص ٢٢٥ - ٢٣٩

(٤) الشُنُك: دفعات متتابعة من إطلاق البارود، من كلام العامّة (محيط المحيط، ص ٤٨٥).

بالبندق، وإظهار أنواع المسرّات من غير أذيّة ولا مضرّة على الرعيّة، واتبعوا مضمون فرماننا هذا واعتمدوا عليه غاية الاعتماد»[1].

ونعم القرن الثامن عشر بمراسلات قلّ فيها الوشي والتنميق واللُّهاث وراء البهرجة البيانيّة، كرسالة نيقولاوس الصائغ إلى أستاذه جرمانوس فرحات، وإن بقي فيها أمشاج من السجع و«الافتنان بالألفاظ الاصطلاحيّة»، إذ يذكر «نَحْوَ» فرحات فيقول: «نحا إليه سيبويه مُنخفض الجناح، وحتم الزمخشري بنصب فضله على حال النجاح، ورفع ابن هشام ألوية تعمّقه إلى أرفع مقام. . .» ويخاطبه بقوله: «ونصبتُ من أجلها فعلاً بديع السناء إجلالاً لقدرها، وغدوتُ لديها خافض جناح العقل الذليل. . . وصار عقلي تابعاً معناها كالأربع التوابع. . . والعقل غدا مرتفعاً بتجرّده نحو عامل معنويّ حسنه رفع المبتدا. وليس عجباً أن يُرفع التجرّد والابتداء. . .»[2].

وفيما يلي رسالتان تفلتتا تماماً من أيّ ثقل تقليديّ في أسلوبهما.

١ ـ رسالة الأب الكرمليّ يوحنّا المعمدان ده سان فوستو إلى البابا إقليموس الحادي عشر، من طرابلس عام ١٧٢٠ :

«. . . يحكم هذا الشعب أمير جبّار، يدين بالديانة نفسها (الدرزيّة) ويقيم بطريق الوراثة في إمارته، بين عدّة باشاوات من الأتراك، يقاومهم غالباً بالقوّة غير عابىء بسطوتهم. وقد مات أحد هؤلاء الأمراء لأعوام خلت، عنيت الأمير بشيراً، تاركاً أميرة هي أولى نسائه، وأميراً صغيراً خلفه الشرعي في الحكم، وابنتين فتيّتين. لكن، لسوء حظّ هذه العائلة، استرق الحكم أمير آخر (هو حيدر موسى الشهابي)، فأجبر هؤلاء المساكين على التخلّي عن أمرٍ كان من حقّهم شرعاً»[3].

---

(١) حيدر الشهابي: لبنان في عهد الأمراء الشهابيّين، ١/٥٥ ـ ٥٧؛ وأنيس المقدسي: **تطوُّر الأساليب النثريّة**، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧.

(٢) أسامة عانوتي: **الحركة الأدبيّة في بلاد الشام**، ص ٩٥؛ عن **ديوان نيقولاوس الصائغ**، ص ٢٩١.

(٣) **أوراق لبنانية**، ٣/٨، آب ١٩٥٧، ص ٣٦٢. وعنانا من هذه الرسالة أسلوب كتابتها وفحواها، وإن لم يكن أصلها باللغة العربيّة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ رسالة القاصد الرسولي يوسف شمعون السمعاني إلى البابا إقليموس الثاني عشر عام ١٧٣٧، ومطلعها:

«إنّ الذي كنتم ترونه أنتم أيُّها الأب الأقدس وسلفاؤكم الأحبار الرومانيّون الأعظمون في شأن ثبات الموارنة الراسخ في المعتقد الأرثوذكسي وخالص انقيادهم للسدّة الرسوليّة وأمانتهم نحوها وتعلّقهم بها قد أيّدوهُ الآن لا بما أنفذوه من الرسائل الناطقة بمزيد احترامهم وطاعتهم لسدَّة القدّيس بطرس رئيس الرسل المقدَّسة فقط بل بما أقاموا من الحجج الجديدة الساطعة إذ ألحفوا بالسؤال فانعطفتم إلى الإجابة وأمرتم بتسييري إليهم لأعالج بقوّة سلطانكم بعض أشياء سرت شيئاً فشيئاً إلى التهذيب البيعيّ غريبة عن وضعهِ وبهائهِ القديمين على حين لم يكن في أملهم أن يجدوا إلى معالجة ذلك سبيلاً من عند أنفسهم. فإنّهم قد بذلوا كلّ ما بوسعهم إتماماً لما رأوه آئلاً لتمجيد الله وخلاص النفوس على وفق رغائبكم»[١].

فإنّ القارىء لهاتين الرسالتين لا يكاد يفرّق بين كتابة ذاك الزمان وكتابة العصر الحاضر. ويلفتنا بهما إسهام المسيحيّين الواسع في تخليص أسلوب الرسائل من رواسب التقليد منذ انبلاج فجر النهضة العربيّة الحديثة بتأثير انفتاحهم على الغرب.

باء ـ المقامات

كانت المقامات من أبرز موضوعات النثر، وخير من كتب فيها أحمد البربير، وأشهر مقاماته «في المفاخرة بين الماء والهواء»[٢]، وفيها نوع من التجديد في فن المقامة بعد أن كانت قديماً في التكدية والاحتيال. وليس لمقامته بطل ولا راوية، تتخلّلها شواهد شعريّة، وفي آخرها قصيدة من ٣٥ بيتاً يمدح فيها بعض أسياد دمشق عبد الرحمن المرادي، الذي أُهديت إليه المقامة. قدّمها بقوله: «... وبعد، فإنّ الفكر والخيال دخلا بي إلى رياض ضاع زهرها فنمَّ عليه النسيم، ودار عليه الماء الزلال... غير أنّنا كنّا نسمع محاورة، ضمنها منافرة ومفاخرة، فسألنا الرياض عن جليّة الأثر، فقالت: سلوا

(١) المجمع اللبنانيّ، ذيل للمجمع اللبنانيّ، ص ١٧٢.
(٢) ١٨ صفحة متوسطة الحجم، بلا تاريخ، أصدرها الطبيب نسيب البربير.

النسيم فقد أصبح عند النسيم الخبر، فوجّهنا وجه السؤال الوسيم، إلى قبلة النسيم، فتدلّى وتدلّل، وما ألطف النسيم إذا تعلّل، ثم مرّ بنا مُقبلاً ومقبّلاً، وقال: يا أهل الفراسة والسياسة، والفتوّة والمروّة والحماسة، إنّها منافسة بين الماء والهواء، أوجبها حبّ انفراد كلٍّ منهما عن صاحبه بالرياسة، فهل تنعمون بحضورها لديكم، ومثولها بين يديكم. . .».

ونقرأ في المقامة بعد التقديم: «أنا الهواء الذي أؤلّف بين السحاب، وأنقل ريح الأحباب، وأهبّ تارة بالرحمة وأخرى بالعذاب، نصر الله بي محمّداً وصحبه الأمجاد، وأهلك الله بي قوم عاد، وأنا الذي تمّ بي ملك سليمان، وأجري الماء في خدمتي لكلّ مكان، وسيّر بي الفلك في البحر كما تسير العيس في البطاح، وأطار بي في الجوّ كلّ ذات جناح، وأنا الذي ألعب بالطُّرَر فوق الغُرَر، كما ألعب بلحى الجبابرة من البشر. . .

فعلا الماء بموجه، حتى صعد إلى ما انحطّ عنه الهواء من أَوجه، ولولا الأرض تملكه لسال، لكنّه تجلّد وأقبل علينا وقال: الحمد لله الذي خلق كل شي، وجعل من الماء كلَّ شيء حي. أما بعد، فقد سمعت جعجعةً ووعوعةً، ظننتها صرير باب، أو طنين ذباب، باطل في صورة حقّ، وسراب إذا تأمّلته زال وانمحق، فاسمع أيّها الهواء ما أتلوه من آيات فخري الشامل، وما أجلوه عليك من عقد فضلي الذي أنت منه عاطل، ﴿وقُلْ جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطل﴾. أنا أوّل مخلوق ولا فخر، وأنا لذّة الدنيا والآخرة ويوم الحشر، وأنا الجوهر الشفّاف، المشبّه بالسيف إذا سُلَّ من الغلاف. وقد خلق الله منّي جميع الجواهر حتّى اللآلىء في الأصداف. أحيي الأرض بعد مماتها، وأخرج منها للعالم جميع أقواتها، وأكسو عرائس الرياض أنواع الحلل، وأنثر عليها لآلىء الوبل والطلّ حتّى يُضْرب بها في الحسن المثل، كما قيل:

إنَّ السَماءَ إذا لَمْ تَبْكِ مُقْلَتُها ... لَمْ تَضْحَكِ الأَرْضُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الزهَرِ»[1]

(١) أحمد البربير: «مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء»، ص ٥ وما بعدها؛ وأسامة عانوتي: الحركة الأدبيّة في بلاد الشام، ص ٩٧ ـ ٩٨.